

الثورة .. والحرية

مصر ورسالتها

دراسة فى خصائص مصر

تأليف: د. حسين مؤنس

مصـــر ورســـالتهـا

دراسة فى خصائص مصر



الثورة .. والحرية (٨)

مصر ورسالتها

دراسة فى خصائص مصر

تأليف

د. حسين مؤنس

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
(١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م)

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة
أ. د. محمد صابر عرب

مؤنس، حسين.
مصر ورسالتها: دراسة في خصائص مصر/ تأليف حسين مؤنس. ـ القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، 2011-
١٧٨ ص؛ 20 سم. ـ (الثورة والحرية)
تدمك 7 - 0801 - 18 - 977 - 978
١ – مصر ـ تاريخ ـ العصر الحديث
أ – العنوان.

٩٦٢

إخراج وطباعة:
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

www.darelkotob.gov.eg
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١١/٨٦٤٥
I.S.B.N. 978 - 977 - 18 - 0801 - 7



الثـورة .. والحريـة
سلسلة غير دورية

فى هذا الكتاب

- ●● مصر أم الدنيا
- ●● الأبعاد الثلاثة لتاريخ مصر
- ●● مصر وأفريقية
- ●● مصر والبحر الأبيض
- ●● مصر والشرق
- ●● رسالة مصر .. نور وسلام

هذه الطبعة

عندما نشـــرت هذا الكتاب اول مرة سنة ١٩٥٥ ، كنت التوقع ان يلقى من القراء هذا الاقبال الذى لقيه • فموضـوعه هام واســـاسى ، وجمهور أهل العلم فى مصر وســائر العالم العربى ، فى حاجة الى ان يعرفوا حقيقة مصـــر ومكونات شـخصيتها ، والدور الذى قامت به فى التاريخ قبل الاســـلام وبعده ، والعمــــل الذى يمكن ان تقوم به فى المســتقبل •

ولم يكن احد قد طرق هذا الموضوع من قبل ، لأنه ــ رغم مايبدو من يسره ووضوحه ــ عسير كل العسر ، فهو يتطلب الاحاطة الشاملة بتاريخ هذا البلد الكريم وتطوره الحضارى فى كل عصوره ، والاحاطة كذلك بســير الأحداث وتطور الحضــارة خارجه ، ليتعرف الانسان مدى تاثير مصر فى تاريخ العالم وحضــارته ، ومدى تاثرها هى ايضا بتيار الحوادث وسير الحضارة خارجها ؛ وبدون هذه الاحاطة لا يتاتى قط معرفة رسالة مصر فى هذا الوجود •

وقد يسر الله هذا الأمر العســـير ، وخرج الكتاب فى طبعته الاولى موفيا على الحاجة من تاليفه قدر الطاقة ، ولقيت تلك الطبعة الأولى قبولا احمد الله عليه ، وكتب نقاد منصفون واساتذة اجلاء عن الكتاب فاثنوا عليه او وجهوا اليه ما وسعه علمهم من وجوه النقد • وقد افدت من ذلك كل الفائدة ، فعدت الى الكتاب اعدله وانقحه واضيف اليه ، واستبعد منه ما لا يجعله او فى بالغرض المطلوب •

وقبل الطبعة الرابعة عدت الى الكتاب مرة أخرى ، فراجعته مراجعة كاملة ، واعدت صياغة معظم فصوله ، على ضوء ما تبين لى من الاطلاع المستمر على المراجع الخاصة بتاريخ مصر والعالم العربى والاســلامى بصورة خاصــــة • واخرجت للناس الطبعة الرابعة ، اقرب الى الهدف المنشود من طبعات الكتاب الثلاث السابقة • وقد نفدت تلك الطبعة فى وقت قصير ، واصبح لزاما علينا ان نقدم للناس طبعة خامسة • وظهرت تلك الطبعة سنة ١٩٧٦ ونفدت •

وعندما تفضـــلت الهيئة المصرية العامة للكتاب بتبني هذه الطبعة السادسة وقبول الكتاب في سلسلة مطبوعاتها القيمة ، عدت الى الكتاب خلال صيف ١٩٨٥ فراجعته من جديد ، وادخلت مابدا لي ادخاله من التعديلات معتمدا في ذلك على تصورات جديدة لمصر ومكانتها في التاريخ ، وما يستطيع شعبها المجيد من عمل عظيم اذا تيسرت له الظروف · وقد ظهرت الجانب الأكبر من هذه التصـــورات في مؤلفات معظمها أوربية وامريكية واقلها عربية ، صدرت كلها بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة ، وما تجلى فيها من مواهب هذا الشعب وملكاته الكامنة في نفسه ، وقدرته على تغيير مجرى التاريخ في منطقته ، وفي العالم كله الى حد بعيد ··

والحمد لله في البداية والنهاية ومنه نستلهم الهداية ونسأله الرضا والتوفيق ··

د· حسين مؤنس

مدخل

مصر أم الدنيا

ف البدء كانت مصر .. قبل الزمان ولدت ، وقبل التاريخ . هنا بدأ كل شيء : الزراعة ، والعمارة ، والكتابة ، والورق ، والهندسة ، والقانون والنظام ، والحكومة ..

وهنا ، وقبل كل شيء ولد الضمير . هكذا قال جيمس هنرى بريستد ف كتاب جليل عن مصر عنوانه : فجر الضمير The Dawn of History والضمير هو ذلك الوازع الداخلى ف كيان الانسان الذى ينبهه الى الخير ويحذره من الخطأ ويحاسبه على ما يتعارف من أخطاء حسابا داخليا صامتا ولكنه ألم للانسان من كل عقاب . وعلى أساس الضمير ظهرت الديانة المصرية القديمة .. وكان المصرى القديم أول من تنبه بالفطرة الى حقيقة البعث والحساب .

من حيوان يجرى ف الأحراش لينجو من خطــــر ، أو ليفترس ، أو ليأكل ، أو ليبحث عن أنثى .. تحول الى انسان يفكر ، ويتأمل ، ويرسم ، ويكتب ، ويحاسب نفسه .

مع حساب النفس نشأت الآلهة لتقوم بالحساب وتنصب الميزان .. خارج دنيا الأرض نشأت دنيا السماء ، وقام الدين والأخلاق ، والخير والشــــر .

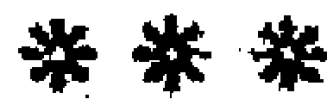
الملائكة والشـــياطين ولدوا جميعا هنا ، ومن عندنا خرجوا الى الدنيا .

وف قلب المصرى القديم ، وف بيته وف مدينته وحقله ، ف أرضــــه وسمائه وجدت « معات » ، رمز الضمير والاحساس الانسانى والقانون الأخلاقى . « معات » هى ما نسميه اليوم بالمروءة ، المروءة بمعنى الانسانية والحب والخير والعدالة والفضيلة . هذه كلها اكتشفها المصرى القديم ، وهو يعمل ف حقله وينظر الى السماء الزرقاء ، ويســـتعطف الشـمس الحامية ، ويعانق النبات الأخضر الطالع .

عندما اكتشفها المصرى القديم وصل الى أعظم كشف فى تاريخ الفكر البشرى ، اكتشف انه انسان ، وأن هناك فرقا بينه وبين الحيوان : لا تنازع على البقاء وانما تعاون للبقاء ، لا قتل ولا ظلم ولا عدوان ، بل حب وتعاون واخاء ·· هذا سر من الأسرار الكبرى لحضارة مصر القديمة التى حيرت البشر ·

قرون تجرى فى اثر قرون ، عوالم تولد ثم تموت ، ومصر هنا فى مكانها ، تبنى وتنشىء وتعمر وتكتب وترسم وتنشد وتصلى ، وتتالق وتتوهج ، وتخبو ، ثم تتالق وتتوهج ·

حكاية جميلة من الف فصل مضت ، والف فصل تاتى باذن الله ··



هنا بدأ كل شيء ، وهنا عاش كل البشر · هنا عاش رسل وانبياء وحواريون · لم يذكر الله سبحانه فى كتابه العزيز بلدا باسمه الا مصر ·· هنا خرج الانسان من الحيوان وبدأ رحلته عبر القرون نحو الخير والسعادة · من هنا بدأ العلم والفن والفكر ، ومن هنا يمكنك أن تقول : صعد الانسان الى القمر وسار عليه بقدميه ·

وكما كانت مصر فى كل زمان ،فهى أيضا كائنة فى كل مكان · فى فرنسا يقولون ان مصر تبدأ من ميدان الكونكورد ، حيث مسلتنا العظمى على مسافة قريبة من ميدان « الوفاق » · هنا يقوم متحف اللوفر ، والقسم المصرى فيه جزء من تاريخنا وتاريخ فرنسا معا ، اشترك فى كتابته فرنسيون ومصريون ، أو متمصرون اذا شئت ·

كان جان فرانسوا شامبوليون يقول : انا شامبوليون المصرى · عندما عاد من مصر وزار قريته المسماة فيدجاك قال : هذا « كفر » فيدجاك ·· جاء الى بلادنا غلاما فى الثامنة عشرة من عمره يلتمس المجد : وخرج منها وفى احدى يديه مفتاح الهيروغليفية ، وفى الأخرى مفتاح الحياة . وأصبح — وهو فى الثلاثين من عمره — أستاذا فى الكوليج د فرانس ·

بهذين المفتاحين اضاف الى تاريخ البشر خمسة آلاف سنة ، وعثر على مفاتيح اخرى لألوف السنين ·· هذا العبقرى الذى فتح ذلك الفتح العظيم ومات فى الثانية والأربعين من عمره ، كان محموما بمصر · عندما وصل الى أبى سمبل وجد المعبد مطمورا فى الرمال الى اوساط التماثيل ، تسلق ونفذ الى داخل المعبد غير عابىء بالحيات التى كان الناس يرونها راى العين · لم تجرؤ الحيات على أن تمسه ، كان ايمانه كعصا موسى : يبطل معها كل سحر ·

بعد شامبليون ، عشرات من العباقرة مدوا حدود مصر الى عواصم أوربا ، حتى وصلت أدنبرة ولنينجراد وبرلين .

حدود مصر فى الغرب كانت حينا فى برقة ، وحينا عند الاسكندرية ، ولكن كشوف الأثريين خلال السنوات الأخيرة مدت حدود مصر الى قلب الجزائر . هناك وعلى صخور الصحراء حتى منطقة الهقار — التى تسمى « آهاجار » — اكتشفوا طلائع الفن المصـــرى القديم .. هناك عاش أحد العناصر البشرية التى كونت شعب مصر ، أولئك الذين كان المصــــريون القدماء يسمونهم « التحنو » ويسميهم العلماء « أهل الريش » — أبو الريش اذا شئت .. من هنا اتوا يحملون ريشهم وفنهم ويســـوقون قطعانهم ، ليستقروا آخر الأمر على ضفاف الوادى ويصبحوا مصريين ، اقرأ عنهم عند سليمان حزين وجمال حمدان و أحمد فخرى ، وعبد المنعم أبى بكر ، وابراهيم رزقانة ، وغيرهم كثيرين ..

ومع كل فلدينا حدود غربية لحضارة مصر هى أبعد من هذا، هناك على ساحل الأطلسى فى جمهورية موريتانيا الحالية يوجد اقليم شنقيط . شنقيط هذه كانها جزء بعيد من مصر . على طول العصور الوسطى كان الشناقطة يأتون من هناك ليتعلموا ويعودوا ، الكثيرون منهم أقاموا عندنا، ورواق الشناقطة فى الأزهر مشهور ..

وفى الأندلس — اسبانيا والبرتغال اليوم — كانت باجة (فى البرتغال) تسمى مصر ، ومرسية (فى أسبانيا) كانت أيضا تسمى مصر ، لأن العرب الذين سكنوهما كانوا مصريين .

وفى الجنوب، اين تبدأ مصر — حضاريا اقصد ؟ لقد قال هارولد ماكمايكل الدبلوماسى البحاثة البريطانى : « فى رحلتى الأولى مع النيل جنوبا ، ما وجدت بناء حجريا — من الخرطوم الى اكواتوريا (المديرية الاستوائية) — الا وهو من بناء المصريين . كل المدارس والمساجد ونقط البوليس وثكنات الجند ومراكز المواصــــلات ومحطـــات الرى ، بناها المصريون » .

مصر هذه كبيرة صغيرة .. الذى تراه منها على ضفاف النيل هو عاصمتها . عاصمة تبدأ عند الاسكندرية وتنتهى عند الشلال .. وبقية الدنيا هى البلد !

المصريون يقولون : مصر أم الدنيا . حقيقة كبرى يقولونها دون أن يدركوا مغزاها . نعم أم الدنيا ، بل هى الدنيا .. ولو عرف كل مصرى قدر مصر لما كفاه أن يعمل لها بيديه وأسنانه وعقله عشرين ســـاعة فى اليوم .. بهذا فقط يكون المصرى جديرا بمصر ..

* * *

أحيانا ــ وانا أعيش فيها ، وافكر ــ أحس أنها عود قطن أو ورقة فى شجرة جميز ٠٠ شىء أخضر على أى حال ٠٠ أحيانا أخرى ــ وأنا بعيد عنها ــ أحس ــ أنها كل الدنيا ٠٠

عندما خرج أفلاطون من مصر ووصل الى كريت رآه الناس يتحسس راسه ، فسألوه فقال : اريد ان اتأكد ان دماغى مازال فى مكانه ٠٠ كاد يضيع منى هناك ٠٠ هذا بلد تجار يشترون منك أى شىء !

وعندما وصل الاسكندر الى الدلتا قال : أى جنة هذه !

وعندما وضع نابليون قدمه على شاطىء مصر قال : أى نار هذه

وعندما وصل اليها عمرو بن العاص قال : هذه شجرة خضراء ٠٠

وعندما جاء ابن خلدون الى القاهرة قال : رأيت مجمع الدنيــــا ومحشر الأمم ٠٠

ويوليوس قيصر ــ عندما أجهده المصريون فى حربهم وحاصروه فى الاسكندرية ــ قال : لن ابقى فى هذا الجحيم لحظة اكثر مما ينبغى ٠٠

اما صلاح الدين فقد قال شيئا معناه : هذا بلد لا يخرج منه الا مجنون ٠٠

اقوال وآراء شتى تخرج منها بأن مصر هى كل شىء وأى شىء تريد ، بحسب مزاجك وملكاتك واتساع قلبك وعمق شعورك ونظرتك الى الحيـــــــاة ٠٠

كثيرون جدا من الذين زاروا مصر على طول العصـــور فهموها واحبوها واستقروا فيها واندرجوا فى غمار اهلها واصبحوا شــيئا من كيانها ٠٠ ولكن أبا نواس ــ على عبقريته ــ لم ير فى مصر الا النيل ولم ير فى النيل الا التماسيح ٠٠ والمتنبى ــ وهو شاعر أضخم من أبى نواس ــ لم ير فى مصر شيئا اصلا ! لأن المتنبى كان يسير فى الدنيا وعيناه تنظران فى داخل نفسه ٠٠ هذه الدنيا لم ير منها شيئا ، ولكنه رأى المتنبى جيدا ٠

ومصر عاشت تاريخها كله على القلائل الذين فهموها جيدا وأحبوها فى عمق ، سواء أكانوا عباقرة أم ناسا بسطاء ٠ لقد قال نابليون : لو أتيح لى أن أعيش فى هذا البلد وأحكمه ، لما تركت قطرة من ماء النيل تذهب الى البحر ٠ هذا مانفذه جمال عبد الناصر ، وهذا هو السد العالى ٠٠ حقا ان العقول الكبيرة تتلاقى ، وكذلك القلوب ذات العمق ٠ فى الفرنسية

يقولون : الأرواح الطيبة تتلاقى • ومصر هذه انما هى ثمرة جهد عقول كبيرة وقلوب ذات عمق وأرواح طيبة تتلاقى وتعمل معـــا ، وربما دون قصـــد ••

فى أيام الخليفة الحاكم — وكان دون شك رجلا غير سليم العقل — أتى من العراق عبقرى رياضى هو الحسن بن الهيثم ، وفى حقيبته مشروع لتنظيم مياه النيل : أين الحسن بن الهيثم وأين مياه النيل ؟ ولكنه كان عقلا كبيرا ، والنيل قلب كبير • لم ينجح الحسن بن الهيثم فيما أراد ، وادخلوه السجن • كان سجنه غرفة مظلمة ، فى بابها ثقب صغير • فى ظلام المحبس رأى صورة الخارج تمر من الثقب ، وتنعكس على الجدار • هذه هى « الغرفة المظلمة » •• الكاميرا أو بسكيورا ، هذه هى الكاميرا أو الفوتوغرافية • اكتشفها عقل كبير فى سجن على ضفاف النيل •• بعد أن خرج من السجن لقى على بن يونس • كان أيضا عقلا كبيرا ، ولكنه كان مجنونا ولاشك •• كان يرصد النجوم على قمة المقطم ، وكان يعشق كوكب الزهرة (فينوس) • كان يلبس رداء طويلا أحمر ، ويضع على رأسه طرطورا طويلا أحمر ، لكى يستلفت نظر محبوبته السماوية ، ولكنه كان فلكيا عظيما ، كان مجنونا وعقلا كبيرا فى آن واحد •• واحدا من العقول الكبيرة التى صنعت تاريخ مصر •

فى تاريخ مصر عقول كبيرة كثيرة ، ولكن الكثير منها لم يكن كبيرا قبل أن يدخل مصر • مصر هى التى أعطتها حجمها •

الاسكندر دخل مصر قائدا صغيرا ، وخرج منها الها معبودا •• وعمرو بن العاص دخل مصر قائدا عاديا ، وخرج منها من بناة الدول •• وصلاح الدين ، ماذا كان قبل أن يدخل مصر ؟ قلها ولاتخف •• مجرد ضابط صغير • •مصر جعلت منه صانعا من صناع التاريخ •• ونابليون دخلها مغامرا ، وخرج منها وقدمه على عتبة سيادة الدنيا •

مصر صنعت لهم جميعا اكثر مما صنعوا لها ••

هؤلاء الذين اتوا من الخارج لم يصنعوا تاريخ مصر كما يقال ، بل مصر صنعت تاريخها وصنعتهم هم أيضا • كانوا يقولون ان مصر هبة النيل ، ولكن شفيق غربال صحح العبارة وقال : ان مصر هبة أبناء مصـــر ••

ماذا صنع احمد بن طولون — مثلا — لمصر ؟

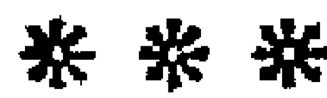
ماذا كان يستطيع محمد بن طغج الأخشيد ان يصنع لها ؟

وبيبرس ، وقلاوون ، وبقية السلسلة ؟ صنعتهم مصر فيما صنعت • ان تاريخنا لم يكتب بعد ، عندما يكتب ستتلاشى أسماء كثيرة ، ستسقط

كما تسقط أوراق شجرة عجوز بعد عاصـــفة خريف ·· انما العقول الكبيرة التي صنعت تاريخ مصر هي عقول ابنائها الذين نشأوا من ترابها ، أولئك الذين يخرجون من بطون الريف وفي قلوبهم فحولة الفراعنة وحزم شيخ البلد ورقة نفرتيتي · أولئك الذين يصنعون تاريخ مصر على مهل وفي صمت ·

والاغريق ـ الذين يزعم المؤرخـون انهم من كبريات الشــــعوب التي صــــنعت التاريخ ، والذين يفخر الأوربيون بأنهم آباؤهم الروحيون ـ هؤلاء الاغريق انفسهم كانوا يعترفون بأنهم تعلموا أصول الحضارة من مصر ·

هنا تعلموا الفن والفكر والجمال والدولة والنظام · بعضهم اعترف بفضل مصر وبعضهم ابغضها بغض الانسان لما هو أحسن منه ، وهيرودوت يمدح مصر أحيانا ، ويهجوها أحيانا اخـــرى ، وهجوه اياها أدل على اعترافه بفضلها من مديحه ··



القلوب الطيبة التي تضفي طابع الانسانية الغالب على تاريخ بلادنا كثيرة ، أقدمها من الناحية التاريخية ذلك الموظف المصري الكبير الذي عاش سنوات الفوضى والقلاقل التي أعقبت الأسرة السادسة قبل الميلاد بخمسة وعشرين قرنا · في صفحات بردية حافلة بالعمق الانساني ، بكى هذا الرجل الطيب مصير بلاده التي افترستها الفوضى ، هذا الرجل الطيب رثى بلاده رثاء يدل على احساس قوي عظيم ·

هذه أول وثيقة في التاريخ نشعر فيها بما يسمى « حب الوطن »

قبل ذلك بقليـــل نقرأ اســـم أول « رئيس وزراء » في التـــاريخ ، هو « أوني » وزير الملك « بيبي » ·· كان رجل دولة بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، كان « وزير خارجية » أيضا يعقد الاتفاقيات والمعاهدات ·

في نفس الوقت نسمع عن أقدم قصة وفاء زوجي في التاريخ ، هي قصة الملكة « نبت اكيرتي » التي تسميها نيتوكريس · معنى اســـمها « الجميلة ذات الخدين الورديين » ·· هذه أيضـــا كانت أول ملكة في التاريخ ·

كما قلت لك : كل البدايات تجدها هنا ·· هذه القلوب الطيبة ·· كانت دائما هنا ·· معظمها لناس بدون أسماء ، ناس مجهولين ، قل ان شئت : جنودا مجهولين ··

فى العصور الوسـطى كانت القلوب الطيبة تسكن جناحا من تل المقطم ، هو « القرافة » .. هناك كانت مدينة الصالحين واهل الخير ، هناك كانوا يعيشون للعبادة ثم يموتون . لقد سماها « لوى ماسينيون » مدينة الموتى ، وكتب عنها مقالا لا ينسى . انها مدينة الموتى الأحياء .. ثم الأولياء والصالحين وأهل الخير والعفاف حقا .

انهم يختلفون كثيرا عن الأولياء الذين يعيشون فى المدن بين الناس . هؤلاء ربما كانوا اولياء وربما لم يكونوا ، لأنهم غارقون فى دنيا الناس . الآخرون ـ حراس مصر الذين عاشوا بعيدا مع الله ـ هم اصحاب القلوب الطيبة من اولياء وقديسين . كثيرون منهم ناس بسطاء ، تعرفهم بسيماهم واعمالهم . فى قريتك وقريتى ، فى شارعك وشارعى ، فى اسرتك وأسرتى ـ يوجد اولئك الناس الطيبون الذين يخدمون الآخرين ويرعون تقليد المروءة .. انهم يواصلون رسالة « معات » رمز الضـمير الحى عند اجـداد اجدادنا .

الناس الطيبون الذين صنعوا تاريخ مصر هم الزراع والصناع ، وكل اولئك الذين يملأون الخلية المصرية نشاطا وشهدا ، هم الذين يبنون وينشئون وهم يسعون لرزق الأولاد ، والأولاد ذخائر الأوطان .

هم الجنود المقاتلون الذين رابطوا على حدود مصر من فجر التاريخ .. هم الجنود المجهولون الذين انشأوا الامبراطوريات ، وهم الذين يقفون اليوم على الحدود ليحموا ارض مصر فى كل اتجاه . وأرض مصر ـ بعد الوف السنين ـ لم تنقص شبرا منذ ايام مينا او نارمر ، وكل شبر من ارضها اعادته اليها القلوب الطيبة الباسلة باذن الله . ونجزم ـ من شواهد التاريخ ـ بأن المصرى لن يرضى ابدا بأن يترك شبرا من أرضه تحت يد غيره .

* * *

ومصر عاشت تاريخها كذلك على العلم وأهله ، عالم مصر الأول هو امحوتب ، هذا المهندس العظيم ـ الذى وضع تصميم مدينة سقارة ذات الأسوار وبناها ـ كان طبيبا ايضا ، وقد جعله الاغريق الها .

من ايام امحوتب ـ ومن قبلها قطعا ـ لم تتوقف شـعلة العلم فى مصر ابدا ، لم يخل عصر من عصورنا من علماء كبار . بعد علماء مصر القـديمة الذين اخترعوا الهندسـة والطب والطبيعة والكيمياء والقانون والأخلاق جاء علماء الاسكندرية ، اسكندرية البطالمة اقصد ، كانت جامعة كبرى ملأت الدنيا نورا . لم يزدهر العلم فى مدينة قبل العصور الحديثة كما ازدهر فى الاسكندرية : فلاسفة ورياضـيون ولاهوتيون وجغرافيون ومؤرخون ، علماء ملأوا طباق الأرض علما . واحد منهم استرج وزن الأرض ، وآخر قاس بعد الشمس . كنيسة اياصوفيا ـ اعظم عمل معمارى

مسيحى خلال العصور الأولى ـ بناها خلال حكم جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) مهندسان من الاسكندرية ··

علماء مصر الاسلامية لا يحصيهم عد ، فى يوم من الأيام جمعت الفسطاط علم الدنيا كله · فى كل نواحى عالم الاسلام ركدت العقول فى أواخر العصور الوسطى ، الا فى مصر : كيف يمكن أن يكون عصر ركود ذلك العصر الذى عاش فيه أمثال السخاوى والسيوطى وابن حجـر العسقلانى والمقريزى وأبو المحاسن والقلقشنـدى والنويرى وابن منظور والمرتضى الزبيدى وعبد الرحمن الجبرتى ؟ ·

وفى العصر الحديث اتصلت سلسلة أهل العلم والأدب ، من رفاعة رافع الى محمد عبده وجمال الدين الأفغانى ومحمود الفلكى وحسن طليقل ومحمود سامى البارودى ، وشوقى وحافظ وطه حسين ولطفى السـيد وعلى ابراهيم وعلى رامز ومحمد رمزى ، وعبد الرحمن الرافعى وشفيق غربال ومصطفى نظيف ، ونجيب محفوظ المثال الواضح الذى أقر العالم كله عبقريته عندما منحه جائزة نوبل فى الأدب · وبناة السد العالى وصناع مجدنا الصحفى الى أبى نظارة ·· الى آخرين كثيرين جدا لا تحضرنى أسماؤهم ، فان الذاكرة خوانة والبيان طويل ·· طويل جدا ··

هل أجبنا عن سؤال : مصر ·· ما هى ؟

لا أعتقد !

على أى حال : أظن أنك ـ على الأقل ـ تحس الآن ما هى مصر ·· هذا الوطن العظيم الجميل الذى نتشرف بالانتساب اليه ·

والكثير الذى فاتنى يحدثك عنه علماء هم أوسع منى علما ··

هم الآخرون عقول كبيرة وقلوب طيبة ، وأهل علم من المشاركين فى بناء تلك الخلية الخالدة التى لا تسكن أبدا ·· خلية مصر ، أم الدنيا ومجمع الشهد وأم الخيرات والبركات ··

الأبعاد الثلاثة لتاريخ مصر

هناك مثل هولندى يقول : « خلق الله الهولنديين ، وخلق الهولنديون هولندا » ، وهو مثل يطلق على الأمة من الامم تنشأ فى ظروف جغرافية غير ملائمة ، فلاتزال تكدح حتى تتغلب على العقبـــات ; تذلل الظروف الطبيعية ، وتهيىء لنفسها احوالا معاشية طيبة ، وتشق طريقها فى الحياة محافظة على كيانها، ذائدة عن حدودها ، وسائرة فى ركب القوة والقيادة دائما ، غير متخلفة عن واجبها نحو اخواتها الامم ، ولا مقصرة فى مطلب من مطالب العزة والقدرة والعلم والسيادة . وخير مثل لذلك هولندا : فان أرضها سهل منخفض يغير عليه ماء البحر ويهدد اهله ، ثم ان هذا السهل ضيق لا يحتمل الكثيرين ، فيظل اهله قلة يطمع فيهم الناس ولا يعسر غلابهم على الأعداء المكاثرين ، فمازال الهولنديون يقيمون السدود على طول الساحل ، حتى ردوا عن انفسهم عادية البحر وامنوا فى سهلهم، ثم استصلحوا الأرض واغاروا هم على البحر ، فجففوا الأراضى الضحلة بطول السواحل ، ووســـعوا رقعة بلادهم ، وحولوها الى جنة من جنان الدنيا ، مازالوا يغالبون العدا حتى قطعوا اطماعهم فى بلادهم ، ثم انهم لم يقنعوا بذلك حتى عبروا البحار انشئوا لانفسهم فيما وراءها ملكا شاسعا، واصبحوا من اغنى اهل الأرض واسعدهم حالا . وقريب من هولندا — فى ذلك — سويسرا والدانيمارك وبلجيكا واليابان ، وغيرها كثير .

ولا نستطيع نحن ان نضع بلادنا فى زمرة هذا النوع ، لأن الله خلق مصر وســـواها على الهيئة التى هى عليها من قبل أن يدخلها اجدادنا الأولون . وهذه الأرض هى التى صنعت المصريين ، او هى التى صنعت لهم كل شىء : هذا النهر المبارك الفياض الذى لا يشبهه فى الفيض والوفرة والجمال الا نهر او اثنان ، وهذه التربة الزكية التى تزيد على الذهب قيمة ، حقيقة لا مجازا ، فان الذهب يباع مرة واحدة ، اما هذه الأرض فقد انبتت الوف السنين سنة بعد سنة ، بل انبتت فى بعض السنين مرتين ، فاحسب قدر ذلك كله تدرك قيمة الأرض التى تسير عليها !

وهذا الموقع الجغرافي الفريد هو في ذاته رأس مال ضخم لو وجد من يعرف كيف يستخدمه ، فاننا في أهم ملتقى على هذه الأرض ، والمرور بأرضنا ضرورة لا يستغنى عنها البشر ؛ ومجرد المرور له ثمن ، وحسبك أن تلقى نظرة على ايراد قناة السويس من ضريبة المرور وحدها لتكون لنفسك فكرة عن « القيمة » الحقيقية لهذا الموقع ، ولتقدر خسارتنا اذ لم نحسن استغلاله فيما مضى ، ولتدرك ايضا أن حسن القيام عليه والانتفاع به ضرورة يستلزمها وجودنا ، ورسالة مفروضة علينا لخير البشر أجمعين، رسالة لا مفر لنا من اداء حقها ، ولا مفر لنا ايضا من الاستمتاع بخيراتها ۰

لقد سماه جمال حمدان بعبقرية المكان ، وهو أجمل ما قيل في تقدير موضع مصر ، فهو عبقري فعلا ، وهو في ذاته رأس مال لا يفنى ، والمهم أن تعرف قدره وتقوم بحقه ۰

ومن نعم الله على المرء أن يكون لديه شيء يحتاج اليه الناس فينفع وينتفع ۰ فاذا لم يفعل هو ذلك قطعه غيره قسرا عنه وشقى هو بالذل والحرمان ، كرجل يقوم على عين ماء لا مفر للناس من أن يشربوا منها ، فاذا هو قام على الماء حق القيام وأحسن الانتفاع به وبيسر للناس وروده باع الماء بالذهب ، واذ لم يفعل اقتحم الناس عليه الموضع وشربوا ، وباء هو بالخسران ۰

كل شيء على هذه الأرض يشرى مرة واحدة ، الا الأوطان ۰۰ فان كل جيل من أجيال الامة لابد أن يؤدى ثمن وطنه ، لابد أن يضحى ويستهدف للموت ليثبت حقه في أرضه ، فاذا أهمل أمر هذا الدفاع جيل من الأجيال ضاع الوطن ، لأن الأمم ــ في تنافسها على السيادة وموارد الثروات واتساع الرقعة ــ يتربص بعضها ببعض ، ولا تكاد واحدة منها تتوسم من الأخرى ضعفا حتى تنقض عليها ، وهذه حقيقة واقعة لا مجال لانكارها أو الشكوى منها ، فاذا ضيع جيل من الأجيال وطنه أو جزءا منه كان على الأجيال التالية أن تبذل الثمن مضاعفا لتسترد الوطن ممن غصبوه - ونحن المصريين أبناء هذا الجيل الراهن لانزال نؤدى ضريبة أسلافنا ممن ضيعوا هذا الوطن ، للمدا بالفتور والاهمال ، ونحن قد استرددناه جغرافيا ، وعلينا الآن أن نسترده تاريخيا وحضاريا ۰ فمصر التى نفتخر بأن نقول انها مهد حضارة البشر لابد أن تكون دائما في طليعة ركب الحضارة ومن المهانة البالغة لنا أن نجد أنفسنا في غمار الشعوب النامية ، وهي شعوب الصف الثالث ، وهذا خطأ في حق مصر ، لأن مكان مصر الطبيعى أن تكون في الصف الأول ، لا من ناحية القوة العسكرية أو الثروة ، بل من ناحية الحضارة ۰ وهذه الحقيقة وحدها تعرفك بفداحة الواجب الملقى على عاتقك ، الواجب الذى لابد أن تقوم به لتكون جديرا بمصر ۰

وكلما تقدم الزمن ضاقت رقعة الأرض بالبشر ، وزاد صراع الأمم على الوطن ، وانتاب الناس جشـــع بغيض جعلهم يشرهون الى أرض الآخرين ، واصبحنا نرى الآن صـــورا من العدوان على أوطان الناس لا توصف الا بأنها جرائم ، واكبر مثل لذلك عدوان الصهيونية العالمية على أرض فلسطين ، تؤيدها قوات الاستعمار التى لا تتخلى أبدا عن طبعها البغيض فى سرقة أوطان الآخرين ، أو امتصاص خيرات بلادهم وتحويلهم الى اجانب فى بلادهم ، أو طبقات دنيا فى أراضـــيهم ، كما ترى فى جنوبى أفريقية ، حيث تصر فئة ضئيلة من الأجانب على سيادة البلاد وحكمها بالقوة ، واعتبار المواطنين الأفريقيين الأصليين طبقة دنيا من أهل البلاد ، لا حق لهم فى اكثر من العيش الكفاف ، كأنهم عبيد أو رقيق أو أدنى مقـــاما .. !!

اما الصهيونيون - وهم فئة باغية من يهود العالم جمعت مالا عريضا ووصلت الى سلطان كبير فى الكثير من بلاد الغرب ، وارادت أن تستغل المال والسلطان فى الحصول على وطن ، وما هم بحاجة الى وطن ، فان بلاد الدنيا كلها لهم أوطان ، ولكن المال والسلطان احيانا يقتلان الضمير ويعميان البصر - فاستعانوا بانجلترا أولا ، ثم ببعض بلاد أوربا ثانيا ، ثم بأمريكا أخيرا ، فى اغتصاب أرض فلسطين وتشريد أهلها ، واحلال يهود يأتون بهم من نواحي الأرض محلهم .

وتحت بصـــر الدنيا كلها شرعوا فى جريمتهم ، فاحتلوا الأرض بالسلاح والغدر والخديعة ، وانشأوا ما سموه باسرائيل ، وحسبوا أن الجريمة تنفع ، وأن العدوان يعطي حقا ، وأن السارق يصبح صـــاحب البيت ، ولكن هيهات ! فمادامت أمة العرب واعية لحقهـــا ، متمســـكة بأوطانها ، مضحية فى سبيلها بالروح ، ففلســـطين عائدة لأهلها وأهلها عائدون اليها مهما طال الزمن ، ومهما فعل الصهيونيون وأحلافهم ، فان الباطل لا يصبح حقا أبدا ، والعدوان لا ينشىء وطنا ، و « يحق الله الحق ويمحق الباطل » .

وهذا الكلام لا يتناقض مع ما تراه من صلح مصر مع اسرائيل فهو صلح وقعناه بعد حرب منتصرة ، وهو صلح يحمى حدودنا فى الشرق ولكنه لا يبرر احتلال الصهيونية لأرض فلسطين .

هذا استطراد لابد منه فى هذا الموضع ، لأن مأساة فلسطين مثال رهيب وعبرة كبرى ، وهى درس لكل عربي وكل مصرى ، يبصره بما يمكن أن يحيق به اذا هو أهمل فى حق وطنه ، وتهاون فى واجبه حياله .

ولكن انتفاعنا بموقع بلادنا الجغرافى ليس بالأمـــر الهين . فهو ككل شيء قيم فى هذاالـ وجود - له ثمن لابد وأن كاملا قبل أن نجنى ثماره ، وهذا الثمن هو الدفاع عنه وذياد الطامعين فيه عن حياضه ، وإذ

كان هذا الموقع فريدا عظيم القيمة على النحو الذى وصفناه ، فلابد أن يكون الثمن غاليا باهظ التكاليف أيضا ، لأن المطـامع فيه متجددة ، والراغبين فيه كثيرون ، والمورد العذب كثير الزحام كما يقولون ، فلابد لأصـحاب موقع جغرافى كموقع مصـر من أن يظلوا على الاهبة أبدا ، ولا معدى لهم عن أن يبذلوا دماءهم دواما فى سبيل الحفاظ على هذا الموقع وخيراته ، بل ليس لهم أن يشكوا من طمع الناس فى ارضهم وكلبهم عليها ، لأن هذا الطمع فى ذاته أمر منطقى بالنسبة لطبيعة الحياة على الأرض ، وهى طبيعة صراع متصل على موارد الرزق والخير .. ونحن انفسنا ـ فى فجر التاريخ ـ غزونا هذا الموقع غزوا ، واستولينا عليه اسـتيلاء ، وجعلناه بلدنا بأسنة الحراب ، مثلنا فى ذلك مثل غيرنا ، فكل شـعوب الأرض انشأت أوطانها بحد السيف .

ولقد اتى سكان الدلتا ـ قبل توحيد القطرين ـ من جزائر البحر المتوسـط ، وكانوا شعبا قائما بذاته مستقلا عن مصر العليا ، وكانت صلات هذا الشعب بأهل جزائر البحر موصولة ، فلما تجرد أمراء مصر العليا للوصول بمصر الى حدودها الطبيعية ـ وهى ساحل البحر المتوسط ـ كان عليهم أن يحاربوا أهـل الدلتا ويرغموهم على الاتحـاد معهم ، واستمرت الحرب بين الجانبين زمانا طويلا ، وانتهت بتوحيد القطرين وضم التاجين وميلاد مصر الباقية الى نهاية الزمان باذن الله .

وقد كنا ـ ونحن صبيان ـ نقرأ ما يقسم لنا من تاريخ بلدنا فى القديم ، ونمر سراعا بعبارة تقليدية فى تاريخ كل فرعون تقول : « وقاد حملة الى سوريا ، وهزم البدو الليبيين ، وغزا النوبة » ، وكنا نحسبها مجرد عبارة تقليدية يضمها المؤلفون فى نهاية أعمال كل ملك من ملوك مصر القديمة لاستكمال شكليات لابد منها ، فلما تقدمنا مع الدرس وزاد ادراكنا للتاريخ ، ادركنا أن هذه العبارة انما هى تاريخ مصر كله ، لأن كلا من الفراعنة كان عليه أن يؤدى ضريبة موقع مصر الجغرافى ، ويحفظ مصر للمصريين بهذه الحملات شرقا وغربا وجنوبا ، لأن هذه الغزوات لو توقفت حينا لوقعت مصر بين أيدى الأعداء ، فأوقفوا تاريخها ، وكتبوا على ثراها تاريخهم ، وهو ما حدث مرارا وخلال فترات طويلة من تاريخنـا الطويل ، وأضاع علينا ثمرات ذلك الموقع الجغرافى خلال فترات طويلة من تاريخنا فى الأعصر الماضية .

ولا يتصور فداحة الثمن الذى اشترت به مصر هذا الموقع الا من درس تاريخ مصر القديم دراسة تفصيل وتعمق ، لأن هذا التاريخ الذى يبهر العين برواء الحضارة ، ولالاء الصناعة ، وبدائع الفن ، وروعة المنشآت ، لم يقم الا بدماء الذين ذادوا العدا عن الوادى وحفظوه لأهله ، وأتاحوا للصانع أن يصنع ، وللمفتن أن يسترسل فى فنه ، وللمنشىء أن يبدع ماشاء .

وأنت لا تخطو مع التاريخ المصرى القديم خطوة الا لمحت ضرام المعارك على الحدود ، وأحسست أنها ضرورة ملازمة لا غنى عنها لهذا التاريخ · خذ مثلا هذه السطور من حكم الملك بيبى الأول من ملوك الأسرة الخامسة ، قال المؤرخ هنرى بريستد :

« وبلغت سياسة بيبى الخارجية شأوا عظيما ، ودرجة كبيرة غير مسبوقة النظير ، فقد أخضع بلاد النوبة تماما ، وجند من أهلها فرقا للجيش المصرى استعملها فى غزواته الجنوبية والشمالية ، واعتاد ـ كلما أغار البدو على شرقى الدلتا أو مناجم سيناء ـ أن يرسل الى « أونا » (حاكم الوجه القبلى) أمرا بحشد جنود نوبية مع جنود مصرية لكبح جماح هؤلاء العصـــاة · وقد أصدر أمره فيما بعد بتعيين « أونا » قائدا عاما للقوات المصرية فى أثناء الحرب مع البدو، مرقيا اياه بذلك على زملائه من رؤساء الجيش · والتحم « أونا » بالبدو وسحقهم وشتت شملهم ، ثم عاد الى وطنه ، وبعد ذلك عهد اليه مليكه بأربع غارات أخرى ضد البدو أيضا عقابا لهم · ولما أغار البدو على اقليم شرق الدلتا أرســـل بيبى عمارة بحرية تحت قيادة « أونا » المذكور الى فلسطين ، فسارت محاذية سواحل فلسطين الجنوبية ، وأنزلت جندها هناك ، وفتكت بالثائرين فتكا ذريعا ، ثم طردتهم الى جبال فلسطين الشمالية ، ويعتبر هذا المكان أقصى ما وصل اليه النفوذ المصرى فى عهد المملكة القديمة » ·

وقد أوردت هذه الفقرة ـ على طولها ـ لأنها تصور حلقة كاملة من حلقات ذلك الكفاح العنيف الذى قامت به مصر ، للاحتفاظ بموقعها ودفع الطامعين عنه وتمهيد السبيل لأهله بذلك للانتفاع بخيراته ·

وذلك هو الطبيعى بالنسبة لموقع كهذا يجتذب الناس من أقاصى الأرض ، ويفىء على أصحابه من الميزات مالا يكاد يضارعه فيه موقع آخـــــر ·

ولم يظهر هذا الموقع بقيمته كلها من فجر التاريخ ، بل ظهرت هذه القيمة مع عمران الأرض وتفرع الشعوب وظهور الشرق والغرب ، اذ من الطبيعى ألا يكون لهذا الموقع تلك القيمة قبل ظهور دول اليونان والرومان من ناحية ، واتصـــال بلاد جنوبى آسيا وشرقها ببقية العالم من ناحية أخرى ، وقيام نشاط التبادل التجارى بين الجانبين · ففى عهود الدولتين القديمة والوسطى من تاريخ مصر القديم لم يكن هذا الموقع على شىء مما نراه اليوم من الأهمية ، لأن البحر المتوسط ـ كمهد من مهاد التاريخ ـ لم يكن قد ولد بعد : كان راكدا لا تعمر حوضه الا جماعات من البدائيين فى كل ناحية من نواحيه ، وشيئا فشيئا أخذت شواطئه تعمر ، وأخذ نشاط أهله يتزايد ، وظهرت العـــلاقات بينهم ، وظهرت البحـــريات والموانى والتجارات المتصلة المنظمة ، وهنالك بدأت أهمية الموقع تظهر · ثم اتصل

أهل الهند بأهل افريقية ، ونشـــط التبادل بين الجانبين ، فظهرت أهمية الموقع كاملة ٠

وظلت لهذا الموقع أهميته مدة قيام دولة الرومان ، فلما انقضـــى أمرها ، واستولت على أراضيها قبائل المتبربرين هبط النشاط البحرى فى البحر المتوسط حينا ريثما استجمع العرب أمرهم واستقرت دولهم على شواطىء ذلك البحر ، وتجمعت لها أسباب القيام بأمور البحار من موانىء ودور صناعة وأساطيل وملاحين وما الى ذلك ، عاد النشاط الى حوض البحر المتوسط من جديد فى ظلال العرب ، ومع عودة النشاط عاد لموقع مصر أهميته ، فاذا بها مركز البحرية الشرقية الاسلامية : فيها كانت تصنع السفن ، ومنها كانت تصـــدر العمائر ، وبرجالها كانت تحشـــد الأساطيل للعمل فى البحرين المتوسط والأحمر ٠

واستمر ذلك طوال العصر الأموى ، لأن الدولة الأموية كانت دولة بحرية متوسطية : كان الشام مهدها ، ومصر قاعدتها الكبرى ، وحوض البحر المتوسط الشرقي فى مجالها الحيوى ٠ ثم تغير الأمر بعد أن انتقل مركز الدولة الاسلامية من دمشق الى بغداد ، لأن الدولة الاسلامية لبست ثوبا جديدا فى عصر بنى العباس بعد أن استقرت بأرض الرافدين ، فتحولت من دولة بحرية متوسطية الى دولة قارية آسيوية ٠

فبينما كانت عيون خلفاء بنى امية متجهة نحو القسطنطينية وجزائر البحر المتوسط والمغرب والأندلس ، وبينما كانت عناية رجالها بالأساطيل والبحار متصلة متزايدة ، اذا بعيون خلفاء بنى العباس تتجه الى الشرق من بغداد ، واذا هى تتخلى شيئا فشيئا عما كسبته من بيئة البحر المتوسط العامرة بأنفاس مصر القديمة واليونان والرومان ، وتقاليدهم فى الحضارة والفن وروح الحكم ، واذا هى تصبح كسروية فارسية ، وترتد فى الروح والنظام واسلوب الحياة الى عالم الدول الآسيوية القديمة التى لا تعنى بالبحر والمرافىء والملاحين العناية الكافية ٠ ومعظم الدول الآسيوية — عدا اليابان — برية قامت على صهوات الخيل ، فى حين أن معظم دول البحر المتوسط برية بحرية قامت على ظهور الخيل ومتون السفن ٠

ولم يزل هذا الاتجاه الآسيوى يغلب على الدولة الاسلامية — ومصر جزء منها — حتى صرفها عن البحر صرفا تاما ، فاغلقت نوافذ مصـــر الشـــمالية واضمحلت الاسكندرية ٠ ولم يزل الأمر على ذلك حتى بلغ ذروته عندما وقعت مصر فى أيدى الأتراك العثمانيين ، فهبط عليها ذلك الستار الكثيف الذى حال بين ما وقع فى أيديهم وبقية العالم ، فلم تعد لهذا الموقع الا أهمية ضئيلة ، وظل ذلك حاله حتى نهاية القرن الثامن عشـــر ٠٠

ومن مطالع القرن التاسع عشر بدأ هذا الموقع الجغرافى يسترد أهميته من جديد ، فقد اكتمل عمران الشرق والغرب ، ولم يعد التبادل التجارى بينهما هواية يتجشمها المغامرون الذين يطمعون فى الكسب الكثير عن طريق استجلاب كماليات كالتوابل والعطور ، بل أصبح ضرورة مفروضة لا يقوم عمران الدنيا بدونها ، فقد كثر الناس فى الشرق والغرب واحتاج كل من الجانبين الى ما عند الآخر ، وبدأ الكفاح الواسع المدى بين القوى العالمية ، وظهرت معه أهمية المواقع الاستراتيجية الرئيسية كقناة السويس وجبل طارق ومضيق ملقا وقناة بنما وما الى تلك . وهنا أصبح موقع مصر ميدان كفاح عالمى خطر ، وزادت الأعباء الملقاة على أهلها ، لأنه أصبح مفتاحا للسيادة على الأرض ، من ملكه فقد ملك الكثير ، ومن خسره فقد خسر الكثير أيضا .

وانما مررت بتاريخ هذا الموقع ذلك المرور السريع لكى أبين للقارىء أهميته من ناحية ، ولكى أخلص الى ثلاث حقـائق أعتقد أنها من أهم ما يعيننا على تحديد مكانة هذا البلد ورسالته العليا فى الوجود من ناحية أخـــرى .

الأولى أن تاريخ مصر هو تاريخ البحر المتوسط على وجه التقريب : اذا استقرت أمور مصر ورخيت أحوالها عمر هذا البحر بالنشاط وانتعشت موانيه ورخيت أحوال بلاده ، وانت تستطيع ــ لهذا ــ أن توجز تاريخ البحر المتوسط فى تاريخ الاسكندرية ، أما قبل انشائها فلم يكن لهذا البحر ــ ككل مترابط ــ تاريخ ، انما كان هناك نشاط محدود فى هذا الجانب أو ذاك . ومنذ ظهر هذا البلد ظهر البحر المتوسط بوحدته وقيمته الكاملة .

ولقد ظهرت قبل الاســكندرية فى حوض هذا البحر موانىء ذات أهمية ، كموانىء الشام وشـبه جزيرة البلقان وقرطاجنة ومرسـيليا وبرشلونة وغيرها ، ولكن واحدة منها لم تخـرج بالحـوض الذى تقع فيه عن المحلية المحدودة ، فأما الاسكندرية فقد ربطت شـرق البحر بغربه وشماله بجنوبه ، على نحو مكن للبشر من القبض على نواصيه ، ويسر لهم ركوب أمواجه والانتفاع به على أوسع نطاق ، وأعطاه القيمة العظمى التى يحتلها فى حياة البشر .

وخلاصة هذا الكلام أن البحر المتوسط ــ فى الحقيقة ــ اسكندرى ، أعطته الاسكندرية ما لم تعطه غيرها ، وأفاد منها مالم يفده من غيرها أيضا ، وأيسر دليل على ذلك أن أزهى عصورة هى أزهى عصورها ، فهذا البحر لم يأخذ مكانه الصحيح خلال التاريخ الطويل الا على أيام البطالمة وخلال أيامنا هذه .. فأما أيام البطالمة فتتحدث عنها منارة الاسكندرية . وهى أبلغ ما يدل على النشاط البحرى ، ولم ينشىء البشر مثلها ــ فى البحر المتوسط أو سواه ــ الا فى هذا العصر الحديث . ومن أسف أن

هذه المنارة زالت بفعل الزمن ، وكانت من عجائب الدنيا • ومن واجب المسئولين عن الاسكندرية أن يعيدوا بناءها • ورسمها كله معروف • أما الاسكندرية وبحرها فى أيامنا هذه ، ففى غير حاجة الى بيان •

ولقد قامت على شطآن هذا البحر — فى بعض العصور — مرافىء أخرى ربما زاد بعضها على الاسكندرية فى الضخامة ومظاهر العمران ، ولكنها — برغم هذا التفوق — لا تقص من تاريخ هذا البحـــر ما تقص الاسكندرية ، ولا تصور من نشاطه ما تصور ، وتستطيع أن تطوف بموانىء هذا البحر كيف شئت ، فلن تجد ما يجمع شعوبه كلها على بساط واحد مثل هذا البلد المجيد •

ولهذه الصلة بين الاسكندرية وحوض البحر المتوسط صدى بعيد فى تاريخ مصر ، ولها نصيبها من رسالة مصر كلها •

والحقيقة الثانية أن تاريخ مصر متأثر بالبحر المتوسط على صورة دائمة ، وقد لا نحس نحن بهذا التأثير فى بعض الأحيان ، وقد يخيل الينا فى أحيان أخرى أن هذا التأثير قد ضعف أو تلاشى • والواقع أنه قائم فعال أبدا ، حتى فى الاعصر التى يسكن فيها نشاط مصر البحرى ويسود السكون موانيها ، كالعصـــر التركى مثلا ، فقد قامت فى أثنائه جاليات التجار الأوربيين فى الاسكندرية والقاهرة • ولم تنقطع حركة السفن بين مصر والشام واليونان ، وأبســط الدلائل على ذلك تلك العربة المعروفة بالكارو ، التى كانت من أهم وســائل المواصــلات فى المدن المصـــرية ، وكانت وسيلة النقل الوحيدة الى حين قريب ، فهى ايطالية ، وفدت علينا من صقلية خلال القرن السابع عشر على الأغلب ، وأثرها فى الحيـــاة المصرية العامة أظهر من أن نقف عنده فى هذا السياق •

والحقيقة الثالثة هى أن حياة مصر لا تستقيم الا اذا كانت على صلة بالبحر المتوسط ، فان العنصر البحرى داخل فى كيانها ، مشترك فى تكوينها بنصيب كبير ، وسترى فى كلامنا عن علاقة مصر بهذا البحر ، أننا وان غلب علينا الأصل الأفريقى فان نصـــفنا الذى يعيش فى الوجه البحرى لم يفقد أثر البحر أبدا ، بل ان الآثار البحرية تغلغلت فى مصـــر العليا حتى أصبحت جزءا لا يتجزأ من الحضارة المصرية فى شتى عصورها •• وأنت أنى وقفت فى مصر لا تعدم شيئا يدلك على صلة هذا البلد بالبحر ، ولو كان هذا الشىء نسمة بحرية تعبر لك حاملة اليك ريح البحر اللطيف وتداءه الغلاب • وسترى فيمايلى موجزا لقصة الصراع الطويل بين البحر والقارة الافريقية على مصير هذا البلد •

* * *

ولدت مصر افريقية : فقد ظهرت الأسرة المصرية التي اقامت الملك المصري في الصعيد · وكانت هناك ـ في أول الأمر ، بطبيعة الحال ـ أسر قوية كثيرة في شتى النواحي ، وقامت الحروب بينها واختفى الضعيف منها حتى انتهت الى أربع ، هي التي يرمز اليها : بالنحلة ، والبوصة ، والثعبان ، والنسر · والاثنتان الأوليان في الوجه البحري ، والأخريان في مصر العليا · ثم غلب قبيل النحلة على الوجه البحري كله ، وقبيل النسر على الوجه القبلي · ثم قامت الحروب بين الوجهين ، ودامت دهرا طويلا انتهى بانتصار ملك مصر العليا · وتغلبت مصر الأفريقية على مصر البحرية ، ودام ذلك معظم عهد الدولة القديمة ·

وفي أواخر ذلك العهد ، بدأت آثار البحر المتوسط تظهر في الحضارة المصرية · كان الاتحاد بين الوجهين قد تم ، واستقرت الأمور في البلاد . وتحول سكان مصر ـ من البحر الى الشلال ـ الى شعب واحد متجانس ، وأخذ تأثير الوجه البحري يظهر ويمتزج بتلك العناصر الافريقية التي اقامت حضارة الأسرات الأولى ، وشيئا فشيئا نجد ملوك مصر يتجهون نحو الشمال ويشعرون بجانبيته ·

ويسهم رجال الوجه البحري في بناء الدولة ، ويسيرون اساطيلهم في البحر باسمها ، تغزو مواقع الساحل وتؤيد القوات المصرية البرية الزاحفة في فلسطين لتأمين حدود مصر من هذه الناحية · وأخذت تظهر في الفن المصري عناصر تؤكد اثر البحر المنعش الرقيق ، وبدت صناعات الأسرتين الخامسة والسادسة بهذا الطابع الفياض بالقوة والرقة والأصالة والجمال، لأنه مزاج من الحضارة الافريقية وحضارة البحر ، وستقوم عليهما حضارة مصر وتاريخها من ذلك التاريخ الى يومنا هذا ·

ثم كانت الأسرة الثانية عشرة ، وهي تحتل في تاريخ مصر مكانا خاصا ، بسبب ما ساد ايامها من رخاء ، وما ظهر على الفن المصري في ظلالها من الأصالة والتجديد والدقة والالهام الصادق ، ومرد ذلك الى أن التوازن بين المصرين ـ مصر الافريقية ومصر البحرية ـ كان كاملا في ذلك الحين ، وان الناظر الى ما خلفه ملوك هذه الأسرة الفيومية ، ليلاحظ دون مشقة انه يحمل الروح نفسه الذي ستحمله فيما بعد فنون أمم البحر المتوسط كلها ·

ثم يجتاح الهيكسوس مصر ، ويتلكأ سير الحضارة فيها الى حين ، حتى اذا أذن الله بخروجهم كان القائمون بعبء ذلك أمراء من اقصى جنوب مصر ، كانوا افارقة خلصا جددوا شباب الدولة المصرية ، بما ركبه الله في طبعهم من صلابة الافارقة الخلص ، التي لاتزال تلمحها الى اليوم في أبناء الصعيد ، ولكن مطالب الدفاع وظروف الدولة المصرية اذ ذلك اتجهت بهم الى الشمال ، وجعلت عيونهم مثبتة على الحدود الشمالية

الشرقية والحدود الغربية ، ولم يكن لهم بد من أن يتأثروا ـ بدورهم ـ بالبحر .

وكان العالم قد تغير من حولهم ، وبدا بوضوح أن جبهات مصر الحقيقية ليست فى الغرب ، حيث كانت جماعات البدو الليبية تجوس الفيافى متلمسة غرة أهل الوادى ، أو فى الجنوب ، حيث كانت النوبة ، وانما فى الشمال ، حيث البحر وشعوبه الوليدة فى الجزر وأشباه الجزر المواجهة لمصر ، التى كانت تتحفز لانتزاع القيادة منها ، وفى الشمال الشرقى حيث انتظمت بعض شعوب آسيا فى دول صغيرة تنازع مصر السيادة والسلطان .

ومست الحاجة الى الأساطيل ومن يتولون أمرها ، وأصبح الفراعين يقضون معظم أيامهم فى الشمال ، وازدادت عنايتهم بالوجه البحرى وغلب على الدولة كلها طابعه ، أى أن مصر البحرية غلبت على مصر الأفريقية ، وظهر ذلك بشكل واضح فى الناحيتين المادية والمعنوية للحضارة المصرية ، فأما من الناحية الأولى ، فذلك ظاهر فى طرز منشآت الدولة الحديثة ابتداء من أيام أمنحتب الثالث ، وأما من الناحية المعنوية ، فيتجلى ذلك فى هذا المذهب الدينى الذى نادى به اخناتون ، مذهب التوحيد الذى يتمثل فى عبادة قرص الشمس آتون ، وهو نفحة امتدت الى مصر من مهبط الأديان ، أى الركن الجنوبى الشرقى من حوض البحر المتوسط ، أرض فلسطين .

ومعنى هذا كله أننا نلاحظ أن مصر البحرية تجتذب مصر الأفريقية اجتذابا شديدا ، من أيام الأسرة الثانية عشرة وما تلاها . حتى اذا وصلنا الى الأسرة الثانية والعشرين وجدنا مركز مصر قد انتقل الى الوجه البحرى ، وأصبحت العاصمة فى صا الحجر ، أى أن مصر البحرية غلبت آخر الأمر ، وأصبح البلد كله يدار من الشمال . نعم ان ذلك كان ايذانا بنهاية مجد مصر القديم ، ولكن هذا المجد كان لابد أن ينتهى يوما ما ، فلقد دام لمصر أكثر من عشرين قرنا متوالية ، وهذا أطول زمان عرفه التاريخ لمجد أمة من الأمم .

ومن ذلك الحين انتهت سيادة مصر الأفريقية تماما ولم تعد الى الظهور الا فيما بعد ، فى العصر الحديث ، وارتبطت مصر ومصايرها بالبحر المتوسط وأهله على نحو متصل الى اليوم ، ودخل فى الميدان عنصر جديد هو العنصر الآسيوى ، الذى بدأ بالغزوة الفارسية المغرية سنة ٥٢٥ قبل الميلاد ، وهى غزوة تعتبر نقطة تحول فى التاريخ المصرى كله ، لأنها فتحت باب الشرق على مصراعيه . وأصبح تاريخ مصر بعد ذلك نزاعا بين موجات الغزو الآسيوية ومصر البحرية ، أى مصر البحر المتوسط .

لقد كان كفاحا طويلا دام قرونا ، غلبت خلاله آسيا على مصر مايزيد على الف ومائتي عام ، لم تتخللها الا فترة انقطاع واحدة : عصر البطالمة الذى أعاد الى مصر البحرية مقامها ، وجعل هذا البلد مركز البحر المتوسط كله . أما الباقى فموجات ودول آسيوية يلي بعضها بعضا ، الطابع الغالب عليها آسيوى ، وانظارها متجهة الى الشرق كما ترى فى دول الطولونيين والاخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك ، ثم دولة الأتراك العثمانيين التى لم تنته الا عندما غزا الفرنسيون مصر عام ١٧٩٨ . وانفتح باب البحر المتوسط على مصراعيه واتصلت مصر به اتصالا مباشرا وثيقا ، واستعادت مكانتها بين دوله وبالتالى بين دول العالم .

فاذا نحن أردنا أن نجمع ذلك كله فى عبارة واحدة تعطينا فكرة واضحة عن الاتجاهات الرئيسية لتاريخ مصر العام ، قلنا ان مصر تنازعت تاريخها ثلاث قوى : أفريقية وآسيا والبحر المتوسط ، وأن القوة الأولى تلاشت فى منتصف الدولة الحديثة من تاريخ مصر القديم ، وأما الثانية فقد فرضت على مصر فرضا ، وتمكنت — فى فترات طويلة — من تحويل اتجاه تاريخه العام وجعله آسيويا خلال قرون كثيرة من العصور الوسطى . ولا يدخل العرب أو الاسلام فى تلك العناصر الآسيوية . فالعرب كانوا دائما عنصرا سكانيا أساسيا فى تكوين مصر ، وسيناء التى هى موطن من مواطن العرب أرض مصرية ، والصحراء الشرقية المصرية كانت دائما حافلة بالعرب المصريين .

أما القوة الثالثة — وهى البحر المتوسط — فهى العنصر الأساسى فى تاريخ هذا البلد . ومصر التى ولدت افريقية لم تلبث أن صارت بحرية ، مثلها فى ذلك كمثل اليونان والرومان ، فقد أقبلوا من قلب القارة الأوربية، ثم اجتذبهم البحر واخضعهم لسلطانه وحملهم تراث حضارته ، التى هى الحضارة الراهنة كما سنرى بعد قليل .

وهذه القوى الثلاث التى تنازعت تاريخ مصر ، هى الأبعاد الثلاثة لهذا التاريخ ، وهى فى مجموعها تعطى هذا التاريخ هيئته وحجمه وعمقه أيضا ، ولابد لمصر — اذا ارادت أن يستقيم ميزان حياتها — من أن توازن بين هذه القوى ، فلا تغلب واحدة منها على واحدة ، ولا تصرفها واحدة منها عن واحدة ، وسنرى فى سياق هذا الكلام أن اهمال مصر الناحية الشرقية قد جر عليها بلاء شديدا ، وأن اهمالها لمكانها فى البحر المتوسط قد عرضها لأخطار شتى ، وأن انصرافها عن افريقية — فى بعض فترات تاريخها — أساء اليها .

وفى أيامنا هذه ، وقد ولدت القارة الافريقية كلها من جديد ، زادت أهمية البعد الافريقى وأصبح محورا رئيسيا من محاور حياة مصر وتاريخها وسياستها .

وهذه الأبعاد الثلاثة للتاريخ المصرى تحدد لنا حدود الحضـــارة المصرية ، فان لكل بلد ذى مقام على وجه الارض حدودا حضارية لابد أن تقوم برسالتها فيها . فحدود الولايات المتحدة السياسية مثلا معـــروفة ثابتة ، ولكن حدودها الحضارية تترامى الى ما وراء ذلك بكثير ، حتى لتشمل العالم الجديد كله ، وحدود مصر الحضارية تترامى الى ما وراء حدودها الجغرافية فى أفريقية والشرق الأوسط والبحر المتوسط .

والأمم لا ترسم حدودها الحضارية ـ كما ترسم حدودها الجغرافية ـ بقوة الجند والسلاح ، ولكن هذه الحدود ترسم نفسها بنفسها ، وتتوقف على ما أودع الله فى كيان الأمة من الأصالة وقوة الاندفاع . وقد عرف التاريخ أمما أوتيت من القوة الدافعة مامد حدودها الحضارية الى مدى لايكاد يصدق ، كهذه الأمة العربية التى مدت حدودها الحضـــارية من الفيلبين الى المحيط الأطلسى ، وتلك الأمة الأسبانية التى أدخلت فى نطاق حضارتها قارة بأسرها ، هى أمريكا الجنوبية وما يصاقبها .

ومصر من تلك الأمم ذات القوة الدافعة التى تحمل حضارتها الى ما وراء حدودها بمراحل كثيرة ، وسنحاول فى الفصول التالية أن نتتبع هذه الحدود .

وهذه الحدود الحضارية هى التى تجدد للأمة رسالتها فى الوجود ، فما دامت أجيالها الماضية قد عرفت كيف تمد حـــدودها الى ذلك المدى المقدور ، فان على أجيالها اللاحقة أن تسعى للحفاظ على تلك الحدود ، وتجتهد فى بث النور فى أرجائها والطمـــوح الى المزيد . لأن التاريخ فى صميمه تاريخ حضارات وصراع مدنيات ، فحدود مدنيتنا هى حـــدود تاريخنا ، وبقدر ما نحافظ عليها تقسم لنا أيام الرخاء والسعود .

وسنحاول أن نتتبع فى الفصول التالية حدود مصر الحضارية فى تلك الاتجاهات الثلاثة التى ذكرناها ، فاذا تبيناها ظهرت لنا حدود رسالتنا فى هذا الوجود .

مصـــر وأفريقيـــة

ولدت مصـــر ـ كما قلنا ـ أفريقية ، ومازالت تشـــعر بأفريقيتها وبالتزاماتها حيال تلك القارة على مدار التاريخ • ولقد اجتذبها البحـــر المتوسط وأدخلها في نطاقه الحضاري • وشغلتها آسيا واحتوتها في نطاقها قرونا طويلة ، ولكن شعب مصر كان ـ ومايزال ـ يشعر بأفريقيته حريصا عليها فخورا بها ، ولايزال الصعيد وأهله موضع فخار مصر ومصـــدر قوتها وحصنها الذى تركن اليه • وما من شيء تراه قائما في مصر اليوم الا ولأهل الصعيد فيه الاثر البعيد • فهؤلاء الرجال الأشداء هم الذين حفروا قنوات مصر كلها ، وأقاموا بسواعدهم معظم ما ترى من المباني والمنشآت ، وهم قدموا ـ ومازالوا يقدمون ـ لهذا البلد أجيالا من خيرة رجاله الذين قادوا أموره ووجهوا سياسته ورفعوا رأسه في كل ميدان •

وهذا الفخر بالصعيد وأهله هو في ذاته فخر بالعنصر الافريقي في تكويننا ، و هو الدليل الناطق على اتصال شعورنا بأفريقيتنا • ولقد سخر الناس من أحد الخديويين ، حينما قال أن مصر قطعة من أوربا ، لأن ذلك الزعم يحرمهم من موضع اعتزاز عميق في نفوسهم ، هو الانتساب الى تلك القارة المظلومة : أفريقية •

ولم ينصف التاريخ أو الناس هذه القارة ، فقد كانت تسمى الى حين قريب بالقارة السوداء ، نسبة الى لون معظم سكانها ، وكانت تسمى بالقارة المظلمة ، بســـبب جهل الناس بداخلها ، وحسب الاوربيون أنهم يستنقذون هذه القارة مما هي فيه بتقسيمها فيما بينهم مناطق نفوذ ودوائر استعمار ، وبدلا من أن يسعى كل فريق منهم في النهوض بما اقتطعه من بدن هذه القارة اجتهد في تحويله الى مزرعة لبلاده ، أو مورد للمواد الخام ، أو منصرف للزائد من السكان ، أو نقطة ارتكاز عسكرية تنفعه في الصراع العالمي ،وهكذا كان نزول أولئك الناس تلك القارة بلاء عليها وعلى سكانها ، وانضافت الى مشاكلها مشكلة جديدة ، هي مشكلة أولئك المستعمرين ، وعلينا اليوم ـ قبل أن لا نستطيع شيئا لجيراننا الافريقيين ـ أن نبدأ بمطاردة المستعمر وتحرير القارة منه ، ثم يبدأ بعد ذلك الاصلاح •

ولقد فرضت الظروف على مصر أن تكون صاحبة النصيب الأكبر في جهاد النهوض بشركائها في هذه القارة ، ولقد قامت بواجبها نحو الوطن الافريقي على طول التاريخ كما سنرى : قامت به من تلقاء نفسها وبفطرتها التي براها الله عليها ، ولكنها تجد اليوم حوائل تحول بينها وبين أداء هذه الرسالة ، وهذه الحوائل هي الأغلال الثقيلة التي قيد الاوربيون بها كل شيء في افريقيا ، فهم كانوا قد وضعوا الحدود واقاموا السدود بين اقسام القارة ، ونصبوا في كل ناحية حكومة استعمارية عسكرية لا تأذن للداخل أن يدخل او للخارج أن يخرج الا بحساب تراعي فيه مصالح الدولة المستعمرة لا صوالح الأهلين المساكين .

ومن ثم فان المصري ــ الذي تعود خلال العصور القديمة والوسطى أن يتنقل بين ما شاء من بلاد افريقية معلما أو تاجرا ــ لم يعد يستطيع أن يفعل ذلك في عصور الاستعمار ، والمصري الذي تعود أن يرى جماعات اخوانه الأفريقيين مقبلين الى بلاده ليتعلموا أو ليستزيدوا من الخير أو ليتاجروا ، لم يعد يراهم ــ الى اوائل الستينيات من هذا القرن ــ الا اذا كان مجيئهم خلسا ، حتى الحاج منهم الى بيت الله الحرام لم يعد يستطيع المرور بمصر الا اذا أخذت عليه المواثيق والضمانات التي تلزمه بالعودة وقد حسب أولئك المستعمرون انهم ــ بذلك ــ اوقفوا كل تيار منعش عن أن يصل الى قلب القارة ، الا اذا كان عن طريقهم وبالقدر الذي يرون .

وقد كان لهذه السياسة الأوربية ، التي اتفق عليها الأوربيون كلهم ، أسوأ الأثر في اتجاه القارة ، لأن الافريقيين ، وأهل القسم الشمالي منهم بصفة خاصة ، قد انطبع مزاجهم منذ أمد بعيد على نحو معين ، ولم يعودوا يقبلون من الوان العلم أو العقائد الا ما يلائم هذا المزاج ، وهذا المزاج العربي اسلامي في جملته ، فان اللغة العربية كانت تنتشر بين أهل أفريقية دون معلم ، بينما كان الاوربيون يجتهدون في انشاء المدارس لنشر لغاتهم ، فلا يصلون الى شيء يساوي عناء الجهد الذي بذل في سبيله ، وكذلك الاسلام انتشر في افريقيا دون جهد كبير ، اذ ان أهل افريقيا كانوا يتلقون ما وصل اليهم من نور الاسلام كما يتلقى الناس النسيم المنعش ، في حين أن جماعات التبشير النصرانية كلها كانت تبذل أقصى ما تستطيع فلا تصل الى شيء يتناســـب مع الجهد المبذول ، وهذه حقيقـــة يقررها الأوربيون انفسهم .

وآخر ما اهتدوا اليه ــ في عصور استعمارهم لافريقيا ــ هو ايقاف ذلك التيار العربي الاسلامي والحيلولة دون انتشاره بكل سبيل ، فكانت هذه القيود والسدود التي يحاول الافارقة اليوم تحطيمها في كل مكان ، وتمد لهم مصر يد المعاونة على قدر ما تستطيع .

وهذه السطور تحدد جانبا من رسالة مصر فى القارة الافريقية . وكان من الممكن أن نبسط القول فيها . ومجال الكلام فيها فسيح . ولكننا قلنا ـ فيما سبق من الكلام ـ اننا نرسم حدود رسالة مصر فى هذه الناحية أو تلك على ضوء ماقامت به فيها فى الاعصر الماضية ،وقلنا ان حدود مصر الحضارية هى التى ترسم لها حدود رسالتها ، فلنحاول أن نرسم حدود الحضارة المصرية فى افريقيا قبل أن تستطرد مع الكلام .



قلنا أن مصر تشعر شعورا متصلا بافريقيتها ، وذكرنا ان أولئك المصريين الذين يعمرون مصر العليا قد اقبلوا اليها من أقصى الجنوب . من نواحى الصومال فيما يجاورمضيق باب المندب . وبقى أن نقول انهم ـ وهم فى طريقهم الى الصعيد ـ لم يأتوا وحدهم طبعا ، وانما انضمت اليهم فى اثناء السير الطويل ، الذى تم على مدى قرون كثيرة ، جماعات من كل الشعوب التى تعمر وادى النيل من منبعه الى مصبه ، أى أن هذا الجنس الكريم الذى استقر فى مصـــر العليا واختلط بمن كان هناك من الناس ، انما يمثل سكان وادى النيل كله من منبعه الى حيث استقر بهم المطـــــاف .

ثم ان العلاقات المتصلة بين سكان الوادى وأهل غرب مصر الذين يسمون فى النصوص بالليبيين ، وهى علاقات سلام حينا وعلاقات حرب حينا آخر ، قد أدت الى اختلاط بشرى بين المصريين وأهل المغرب ، بل ان بعض الأسر التى حكمت مصر فى العصـــور القديمة كانت من أولئك الليبيين ، مما يسمح لنا بأن نستنتج أن الاختلاط كان قويا متصلا بين الجانبين ، وأن حضارة مصر امتدت حتى شملت أولئك الاقوام ونقلتهم من البداوة الصرفة المطلقة الى الاستقرار والسير فى مدارج العمران ، حتى بلغوا منه مبلغا مكن لهم من اقامة الدول .

ومن الثابت ـ على أى حال ـ أن الحدود السياسية الغربية لمصـــر فى العصور القديمة والوسطى تصل الى اقليم برقة ، وقد كان هذا الاقليم جزءا من مصر الى أواخر أيام البطالمة ، واعتبره الرومان جزءا من مصر . وفى خلال العصور الاسلامية أستمرت هذه التبعية الحضارية ، وان خفيت فى فترات . فأما الفترات التى خفيت فيها فكالعصر الطولونى أو عصر دول المماليك ، والسبب فى ذلك أن الاخطار كانت تهدد مصر من ناحية الشرق تهديدا متصلا ، فانصرفت عن الغرب بكيانها كله انصــــرافا يكاد يكون تاما . ولكن حكام مصر ظلوا يشعرون ـ مع ذلك ـ أن برقة جزء داخل فى حدودهم الحضارية، بدليل أن صلاح الدين الايوبى أرسل أحد أخوته ليستطلع الأحوال فى برقة وليمهدها له ، حتى يلجأ اليها آل صلاح الدين اذا اختلفوا اختلافا خطرا مع نور الدين بن محمود بن عماد الدين زنكى .

وقد كشفت الرسوم والتصاوير التى حفرتها يد الانسان على صخور الجبال وجدران الغيران أن الكثيرين ممن استقروا فى وادى النيل قبل عصر الأسرات كانوا من الليبيين وأهل المغرب . أى أن الحضارة المصرية فيها عنصر كبير ليبى ومغربى ، ومن الواضح أن أهل الصحراء الغربية المصرية والليبيين أبناء عمومة • وبعد أن قبست حضارة مصر القديمة من الليبيين وأهل المغرب ما استطاعت فى عصر ما قبل الأسرات ، عادت - بعد أن قامت الدول المصرية القديمة - فردت الى أهل ليبيا والمغرب ما اسلفوا • وعلى طول الساحل المصرى غربى الاسكندرية ، وفى واحات مصر فى الصحراء الغربية ، اختلط المصريون بالليبيين اختلاطا شديدا ، فالناس هناك مصريون ليبيون •

وبعد الفتح العربى ودخول مصر فى نطاق دولة تمتد حتى المحيط الأطلسى وجنوبى فرنسا ، زاد اختلاط المصريين بالليبيين وأهل المغرب ، وتحولوا جميعا الى عرب تجمعهم وحدة الدين واللسان والمصير •

نقول ذلك لأن اسلام أهل الشمال الأفريقى مصرى ، أى اسلام سنة وجماعة • فمصر هى البلد الاسلامى الوحيد الذى لم يقبل فى تاريخه الا مذهب السنة والجماعة • ولا نقول هذا الكلام انكارا منا للشيعية ومذاهبها ، ولكننا نقول هنا ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه ، فقد قال انه ترك من بعده للمسلمين مالا يضلون معه أبدا : كتاب الله وسنة رسوله • ومصر حكمها الفاطميون ثلاثة قرون وهم شيعة اسماعيلية وخرجوا منها دون أن يخلفوا فيها شيعيا واحدا ، وبقايا الشيعية وما تفرع عنها خرجت الى بلاد الشام وغيرها من بلاد الاسلام حتى الهند وهناك ضربت لها جذورا مازالت باقية الى اليوم •

ولأن مصر لزمت مذهب السنة والجماعة ، وقاومت كل مذهب منحرف عن السنة ، فقد كان المغرب كله كذلك ، فالجناح الغربى لمملكة الاسلام جناح سنى صرف ، بما فى ذلك الأندلس الذى ضاع وصقلية التى عصفت بها رياح الزمان • وليس هذا ، فعل ، مصر بل هو اثرها ، اى أن مصر كانت أشبه بالمصفاة : لا يمر منها الى بلاد الغرب الا ما هو على مذهب سنة وجماعة • وفى مدرسة المدينة المنورة - دار مالك بن انس امام دار الهجرة - تعلم أوائل فقهاء المغرب والأندلس ، ولكن فقهاء مصر من رجال المالكية هم أساتذة الأجيال التالية من شيوخ افريقية والأندلس ، وسحنون أبو سعيد عبد السلام بن سعيد اكبر شيوخ المغرب تلميذ لفقهاء الفسطاط : عبد الرحمن بن القاسم العتقى ، وأشهب بن عبد العزيز ، وعبد الله بن لهيعة ، وآل ابن عبد الحكم ومن اليهم • وفقهاء افريقية (وهى تونس على وجه التقريب) ، هم الذين غلبوا دعاة الشيعة ورجال دولتهم فيها • وفقهاء القيروان - وهم المعروفون بالقرويين - هم الذين شدوا بنيان دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى • والدولة الادريسية كانت دولة شرفاء من آل البيت ، ولكنها كانت دولة سنة ومذهبها كان مالكيا ، هذا

طبيعى لأن آل البيت لا يمكن أن يكونوا الا آل سنة لأن السنة طريق جدهم صلوات الله عليه ، أما الشيعة فشيعتهم .

وهذا يصدق أيضا عن اسلام السودان النيلى ، فهو اسلام سنى ، لأنه دخل السودان من مصر ، ومع أن اليمن أقرب الى وسط السودان من مصر – وفى اليمن شيعة كثيرون – فان الاسلام فى السودان سنى .

ونحن نقصد بالاسلام الدين والحضارة ، لأن الاسلام دين وحضارة .. حتى أشراف مصر والسودان وأتباعهم كلهم أهل سنة .

وهذه الرابطة السنية تعتبر من أوثق روابط شعب وادى النيل .

حقا لقد سارت بلاد المغرب ومدنه فى طريقها الحضارى الخاص بها ، وأصبح لكل منها شخصيتها وطابعها وخصائصها الحضارية ، كما نرى فى ناحية العمارة مثلا ، فان طراز العمارة المغربية – الذى تجلت ملامحه المميزة واتخذ صورته التاريخية فى جامع عقبة بن نافع ، بعد تجديده على يد زيادة الله بن الأغلب ثالث أمراء الأغالبة ، ثم ابراهيم بن احمد قاسمهم – يختلف تمام الاختلاف عن طراز العمارة الاسلامية المصرية الذى ولد فى جامع أحمد بن طولون ، ولكن الاشعاع الحضارى من الفسطاط الى سائر الغرب الاسلامى ظل عاملا متصلا حيا على مر العصور .

ولا حاجة بنا الى الاشارة الى ما يلاحظه كل زائر لتونس حتى اليوم من تشابه الطابعين الحضاريين المصرى والتونسى ، والى ما قبل الاحتلال الفرنسى لتونس سنة ١٨٨١ كانت مصر هى الوجهة الحضارية لتونس ، وكان أهلها يعتبرون مصر هى المركز الكبير الذى يستطيعون الاعتماد عليه فى كل حين .

واذن فالحدود الحضارية لمصر تصل بصورة واضحة كل الوضوح الى تونس ، وهى تمتد الى ما يلى ذلك امتدادات تصل فى بعض الأحيان الى المحيط الأطلسى . والثابت – على اى حال – ان تونس كانت خلال العصور الوسطى داخلة فى النطاق الحضارى المصرى ، وان التونسى أو القيروانى قريب فى لهجة الكلام والذوق العام من أهل مصر ، وأهل القاهرة ومحافظة البحيرة على الخصوص .

وقد استقلت تونس اليوم بشخصيتها وحضارتها ولكن روابط الماضى لازالت تربط بينها وبين مصر .

وصلات تونس بمصر فى العصر الحديث موضوع طريف يحتاج الى دراسة ، فقد عملت الظروف كلها على تفريقهما وقطع الصلات بينهما . ففى خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر لا نكاد نلمح علاقة

سياسية بين الناحيتين ، بل كانت فرنسا تغرى « محمد على » بغزو تونس لحسابها ، ولكن الباب كان مفتوحا بين الشعبين ، فكان التونسيون يفدون الى مصر فى طريقهم الى الحجاز أو كانوا يلمون بها للدرس أو للاستقرار فيها · وفى تاريخ رواق المغاربة فى الازهر ما يدل على ذلك بابلغ بيان ، ومازال بين ظهرانينا احفاد المهاجرين التونسيين الذين وفدوا الى مصر خلال القرن الماضى ، ولابد أن الذين عادوا الى بلادهم من أولئك الوافدين اكثر ممن أقاموا · ومن الطريف أن عددا كبيرا من الجالية اليهودية المصرية أصلهم من يهود تونس ، هاجروا الينا وتمصروا ·

واستمرت الصلات بين البلدين حتى نهاية العقد الثامن من ذلك القرن التاسع عشر · ومن غريب المصادفات أن تونس وقعت بين براثن الاحتلال الفرنسى قبل أن تقع مصر فريسة للانجليز بسنة واحدة · ومن الطبيعى أن يقفل الباب بين الجانبين بسبب سياسة الانجليز فى مصر من ناحية ، وسياسة الفرنسيين فى تونس من ناحية اخرى · ولقد بذل الفرنسيون أقصى ما استطاعوا من جهد لفصل تونس عن بقية أمم الشرق الاسلامى ، ومصر أولاها ، وفتحوا الباب على مصراعيه لمهاجرة الايطاليين حتى كادت جاليتهم تكون خطرا على الكيان البشرى لتونس ·

ولكن ذلك كله لم يغن الفرنسيين شيئا ، واستمرت تونس اسلامية عربية ذات طابع شبه مصرى لأن مصر هى أول مايلقى التونسى المتوجه الى المشرق ، وهى كذلك اضخم بلاد الشرق العربى — مع استقلالها وشخصيتها المتميزة — ومن أوفرها حضارة ، ومن ثم فان التونسى يقتنع بما يجده فيها ، فاذا كان طالب علم درس فيها ، واذا كان حاجا اراح فيها فى الذهاب واحتقب منها ما استطاع فى الاياب ، اما اذا كان مهاجرا فهى حسبه ، وفيها مماعداها غناء · ومن ثم فلا غرابة فى أن نقول ان الحضارة التونسية الشرقية انما هى فى الواقع امتداد للحضارة المصرية ، ولا غرابة فى أن نجد اللهجة التونسية اقرب اللهجات الى اللهجة المصرية ، والتونسى الوافد على مصر ما أن يقر فيها اسبوعا حتى يجرى لسانه بلهجة اهلها ، ويندمج فيهم فلا تكاد تميزه من بينهم بشىء ·

ولا يظهر هذا الاثر المصرى بصورة واضحة فى الجزائر ، وذلك نتيجة لظروف الجزائر التاريخية · فهذا البلد الذى يعد من أجمل بلاد العروبة والاسلام فى افريقيا لم ينعم بالرخاء والاستقرار الا فى فترات صغيرة من تاريخه ، لأنه كان فى أغلب الأمر نهبا موزعا بين جارتيه تونس ومراكش ، وقد كان جزؤه الغربى فيما بين نهرى شلف وملويه يعرف فى العصور الاسلامية باسم المغرب الأوسط ·

ولكن الشعب الجزائرى ظل دائما شعبا عفيا محاربا شديد التعلق بالاسلام ، وقد غلب على سكانه الطابع العربى بعد الغزوة الهلالية التى بدأت من منتصف القرن الخامس الهجرى ، لأن طبيعته الجغرافية قاسية ،

وموارد المياه فيه شحيحة ، ولابد من عمل شاق طويل حتى يتوافر الماء اللازم لقيام العمران الغزير . ولم ينعم القطر الجزائرى خلال العصور الوسطى بدول طويلة العمر عظيمة القوة تستطيع سيادة الاقليم كله ، واقرار السلام فى جوانبه وتقوم بمشروعات المياه الضخمة التى تحتاج الى العلم والوقت والمال ، كما يحدث فى جزائر اليوم ، فظلت الدول تقوم فيه وتسقط ابتداء من الدولة الرستمية التى قامت سنة ١٦٤ هـ وكانت عاصمتها تاهرت ، ثم ان حدود الاقليم الجزائرى ظلت متغيرة غير ثابتة طوال العصور الوسطى ، فان شرق الجزائر وما يعرف الآن بمحافظة قسنطينة وما يليها غربا مما كان يسمى بالزاب ، كان داخلا فى افريقية (اى تونس) من الناحية السياسية .

والى حين قريب كان الكثيرون منا يتسايعون ما زعمه مؤرخو الفرنسيين من أن الجزائر الاسلامية لا تاريخ لها ، وانها لم تاخذ شكلها السياسي الا خلال القرن السابع عشر الميلادى عندما استولى عليها الأتراك العثمانيون وحولوها الى ولاية عثمانية بحدودها الحالية تقريبا . وعلى الرغم من أن الأتراك لم يخطوا بالجزائر خطوة الى الأمام فانهم أدوا لها أجل الخدمات ، فقد قطعوا عنها غارات الاسبان وطردوهم منها ، وتحدد بذلك مصير الجزائر كقطر عربى اسلامى خالص .

وخلال تلك الأحقاب المتطاولة التى مرت بالجزائر الاسلامية حافلة بالأحداث والحروب والآلام ، استمر الاشعاع الحضارى المصرى يصل الى الجزائر ويربطها الى مصر وأخواتها فى العروبة والاسلام ، وخاصة بعد أن انفتح الطريق على مصراعيه بين البلدين على يد الفاطميين . ولقد كانت قبيلة كتامة — التى قامت بعبء الدولة الفاطمية — قبيلة جزائرية ، ومعظم الجند الفاطمى الذى فتح مصر تحت راية جوهر الصقلى كان كتاميا جزائريا ، وهذا الجند الكتامى الكثير نزل مصر واستقر فيها وتمصر مع الزمن ، فكان واشجة قرابة بين البلدين ، ولاشك كذلك فى أن الكثيرين من الكتاميين عادوا الى بلادهم حاملين اقباسا من حضارة مصر .

وتشاء الظروف أن تكون الغزوة الهلالية — وهى التى وضعت الأساس المكين لعروبة الجزائر — صادرة من مصر . فمن مصر خرج العرب الهلالية ومنهم : بنو رياح والمعقل والاثبج والزواودة ، وانتشروا بعد ذلك فى نواحى تونس والمغرب الاوسط ، اى الجزائر ، فمدوا بذلك خيوطا بشرية وحضارية زادت البلدين قربا . وعلى الرغم من كثرة ما كتب عن الغزوة الهلالية فاننا لا نعرف عن حقائقها وآثارها الا القليل .

وبعد أن احتل الفرنسيون الجزائر ابتداء من سنة ١٨٣٠ اخذ الجزائريون يتطلعون الى مصر تطلعا شديدا ، فقد كانت فى نظر اهل الدين والفكر والرأى منهم موئل العروبة والاسلام ، وكانت العروبة والاسلام

مما الصخرتين اللتين عصمتا الجزائر من أن يعصف بشخصيتها الغزو الثقافي الديني الفرنسي . فعلى الرغم من الستار الحديدي الذي ضربه الفرنسيون على هذا القطر الجليل ، فان تيار طلاب الجزائر لم ينقطع عن مصر أبدا : كانوا يتخطون الحدود ـ رغم الرقابة الفرنسية ـ ويتجهون الى بيت الله الحرام ، ثم يدرسون في الأزهر في القاهرة ، وفي الغالب كانوا يعودون الى بلادهم حاملين زادا وافرا من العلم الاسلامي العربي .

وكانت كتب مصر تتسـرب الى الجزائر بكل طريق ، ومن اغرب ما كشف عنه البحث أن كل كتابات جمال الدين الافغاني ومحمد عبده تسربت الى الجزائر وقرئت في حينها ، وعلى هذه الكتب قامت في الجزائر حركة الاصلاح التي قادها عبد الحميد بن باديس ، وهو من اجلاء قادة الاصـلاح والنهوض في تاريخ العرب الحديث ، ومما يجهله الكثيرون أن محمد عبده زار الجزائر من منفاه في باريس واجتمع بعلمائها واخذوا عنه ، فكانت زيارته القصيرة للجزائر من اكبر بواعث النهضة الفكرية الجزائرية .

واذا استطردت الى مايلي ذلك غربا ، أي الى المملكة المغربية ، احسست بالأثر المصري يبدو من جديد ، والسبب في ذلك أن المغرب الأقصى قطر منظم قوي ، ومركز للممالك والدول من اقدم العصور الاسلامية ، وهو الذي شاد دولا مجيدة كالدولة الادريسية ثم الدولة المرابطية ـ وهي دولة اسلامية باسلة انقذت مصير الاسلام في الأندلس من الضـياع في القرن الحادي عشر الميلادي ، وفتحت أبواب افريقيا المدارية للاسلام ـ ثم الدولة الموحدية التي تعد من اجل دول الخلافة في تاريخ الاسلام شرقا وغربا . ثم تلتها دول مجيدة أخرى أهمها الأشراف السـعديون ثم الأشـراف العلويون ، والى المغرب الأقصى صار جزء كبير من تراث الأندلس بعد ضياعه ، والى بلاده كانت هجرة الألوف من أهل الأندلس حاملين تراثا حضاريا ضخما .

واذا كانت مصر قطب حضارة الشمال الافريقي من ناحية الشرق ، فان المغرب الأقصى قطبه الغربي ومنتهاه ، والتبادل بشتى صوره السياسية والحضارية يكون على اقواه وادومه بين الجماعات القوية المنظمة . ومن ثم فلا غرابة في أن نجد الاتصال الحضاري بين مصر والمغرب ظاهرا متصلا نستطيع أن نؤرخ له . ويكفي أن نذكر في هذا المقام ركب الحجاج المعروف بالركب المغربي ، الذي كان يخرج من فاس ومراكش للحج ، ويلم بمصر شهورا طوالا في الغدو والرواح ، فقد كانت القافلة تصل في بعض الأحيان الى الخمسين الف انسان ، وتصـور انت ما يمكن أن يكون من الأثر لخمسين الف انسان ينتقلون كل عام من المغرب الى مصر فالحجاز ، ومن الحجاز الى مصر فمراكش .

وفي أثناء عصور الاستعمار الفرنسي الأسـبانى للمغرب ، كانت المنطقة الشمالية التي كان الاسبان يحتلونها ــ وكانت تسـمى بالمنطقة الخليفية ــ على أوثق الصلات الثقافية بمصر ، فقد سمح الأسبان لأهلها بالاتصال بمصر ، فانشأ أهلها دار المغرب في القاهرة ووفد طلابهم على مصر يدرسون في معاهدها جيلا بعد جيل ، ودخلت الأفلام المصرية بلاد المغرب ، حاملة اللهجة المصرية التى أصبحت مألوفة عند معظم الناس هناك ٠

ولقد زرت هذه المنطقة ونزلت تطوان سنة ١٩٥٢ فأحسست بتطلع شديد نحو مصر ، وراعتنى مظاهر التأثير الفكرى المصرى ، بل استرعى انتباهى ذات مرة أن « السلام » القومى الذى كانوا يعزفونه للخليفة (أى ممثل سلطان المغرب في المنطقة) كان السلام المصرى القديم ٠

وعندما انتقلت الى طنجة ، عجبت لما وجـدت فيها من مظـاهر الاتصال الروحى بمصر ، وبحسبى أن أقص هنا قصة ، يغنى مغزاها عن كلام كثير : ففى سنة ١٩٤٧ الم بهذا البلد الصحفى المصرى المعروف المرحوم محمود عزمى في وفد صحفى ، ووقف ذات مرة بسـاحل البحر يستجم وحده ، فاذا بصـوت يهيب به : « أين القبعة يادكتور ؟ » فوجم الرجل ، اذ أن قائل هذه العبارة لابد أن يكون قد تابعه في حياته كلها ، فان محمود عزمى رحمه الله عندما عاد من دراسته في أوربا كان متحمسا للحضارة الغربية وأصر على أن يحتفظ بالقبعة في مصر ، فكان ذلك مثار أحاديث الناس وتنادرهم ، وكتبت الصحف في ذلك ، واشتهر أمر الرجل بذلك ، وقد خلع محمود عزمى القبعة بعد ذلك وتطربش ، ومرت على ذلك سنون ، حتى نسى الناس في مصر قبعته وحكايتها ، ولهذا كانت عبارة هذا الطنجى مثار أعمق عاطفة انسانية في قلب ذلك المصرى الكريم ، الذى أطربه أن يجد على سـاحل الأطلسى من يعرف عنه ذلك كله ، فاعتنقه اعتناق الشقيق ! وقد قص على هذه القصة صاحبها الطنجى ، وهو معروف لكل من يلم بطنجة من المصريين ٠

ويتصل بهذا الاشعاع الحضارى المصرى نحو الغرب اشعاع آخر يتجه غربا بجنوب ، فيصل الى نواحى السنغال ٠ وربما دهش المصرى اذا علم أن هناك ــ بين السنغال وما يتصل به من ليبيريا وساحل العاج وساحل الذهب ، من ناحية ، ومجرى النيجر الأعلى من ناحية أخرى ــ اقليما يكاد يكون ذراعا حضارية طويلة لمصر هو اقليم شنقيط أو شنجيط ، وهو اليوم جزء من جمهورية موريتانيا الاسلامية ، وأهله هم الشناجطة المعروفون في مصر ، فلهم فيها جالية تمصرت من زمن طويل ٠

والقرون الماضية تقص قصة الركب الشنجيطى الذى كان يخرج من هذه الناحية القصية ليحج الى بيت الله الحرام ، فيلم بمصر ويطيل المقام

بها ، وربما تخلف الكثيرون من أفراده أعواما في مصر ريثما يتزودون بزاد العلم ، ثم يعودون الى بلادهم ·

ولقد ازدهر امر شنقيط وزخرت نواحيها بالعلم والعلماء ، وكلهم تلاميذ مصر في العلم وطراز الحضـــارة · والتاريخ الوحيد الذى كتب لشنقيط وعلمائها وحضارتها كتب في مصر ، كتبه شنقيطي فاضل استقر في بلادنا وتمصر ، واسم كتابه « الوسيط في معرفة ادباء شنقيط » ، وانت لا تقلب من ذلك الكتاب صفحة الا خيل اليك ان قطعة من مصر قد انتقلت الى حدود السنغال !

وعلى طول طريق الركب الشنجيطي قامت امم مر بها نسيم مصر الرقيق عاما بعد عام وقرنا فقرنا ، امم لا تعرف غير مصر مطلعا لنور العقيدة وموئلا لذخائر العرفان · وقد ذكر ابن خلدون هذه الشعوب على ايامه ، وأورد ما أمكنه من أخبارها كما سمعها ممن وفد على مصر للدرس من ابنائها ، وسنذكرها بترتيبها الذى ذكره في تاريخه ، مع مخالفته للنسق الذى نسير عليه ·

فنحن الآن بسبيل حصر هذه الأمم من الغرب الى الشرق ، أما ابن خلدون فيرتبها على العكس ، من الشرق الى الغرب ، فيبدأ بالحبشـــة « ويليهم البجاوة ، وهم نصارى ومسلمون ولهم جزيرة بسواكن في بحر السويس ، ويليهم النوبة اخوة الزنج والحبشة ، ولهم مدينة دنقلة غرب النيل واكثرهم مجاورون للديار المصرية ، ومنهم رقيق ، ويليهم زغاوة ، وهم مســـلمون ، ومن شـــعوبهم تاجوه ، ويليهم الكانم ، وهم خلق عظيم ، والاسلام غالب عليهم ، ومدينتهم حميمى ، ولهم التغلب على بلاد الصحراء الى فزان ، وكانت لهم مهادنة مع الدولة الحفصية من أولها ، ويليهم من غربهم « كوكو » وبعضـــهم نقالة والتكرور ولى وللم وجاى وكورى وافكزاو ، ويتصلون بالبحر المحيط الى ناحية الغرب » ·

أى أن افريقية المدارية كلها كانت ، في القرن الرابع عشر الميلادى ، شديدة الصلات بمصر ، كان أهلها يفدون على بلادنا للعلم والتنور · وقد بقيت في مصر جماعات كبيرة ممن وفد منهم عليها ، ولازالت نواح من مصر تحمل اسماء أولئك الأقوام ، خذ مثلا الناحية المســـماة ببولاق الدكرور ، فهى منسوبة الى أمة التكرور ، وكانت تسكن غربى كردفان ، فيما يعرف الآن باسم جمهورية تشاد وجمهورية النيجر ·

بل ان الصلات بين مصر وتمبوكتو ، كبرى مدائن حوض النيجر الأوسط في العصور الوسطى ، كانت طوال هذه القرون موصولة لم يوقفها الا التدخل الأوربي في العصر الحديث · وقد كان الأوربيون يظنون أن تمبوكتو هذه ناحية مجاهل لا يعلم أمرها الا خالقها ، وتصدى نفر من الأوربيين لكشفها ، فلم يجدوا اليها سبيلا الا عن طريق القاهرة ، وتستطيع

أن تقرأ قصص الكاشفين من أمثال مونجو بارك وفردريك هورنيمان ورينيه كابيه وهاينريخ بارث لتتبين تعجبهم من وصول نور القاهرة الى هذه النواحى القاصية الخافية وراء الرمال ، ولكن هؤلاء جميعا ، بل أوربا كلها ، لا تعلم شيئا عن سر مصر ورسالتها فى القارة التى جعلها الله فيها :

انها الأم ومنبع النور ، وهذا فى ذاته حقيقة يثبتها التاريخ فى كل حين ، وتحمل مصر على أدائها واعية أو غير واعية ، كما تغذو الأم بنيها بطبع ساذج ركبه الله فى خلقتها ·

ونحن لو استرسلنا مع ابن خلدون فيما يذكره عن ارتباط هذه الأمم بمصر فى العصور الوسطى ، وما كان بينهما من علاقات للكتا العجب ، مع أن مصر لم تكن لها اذ ذاك سياسة مرسومة فى هذا الصدد ، وهو يروى ما يقوله عن رجل من أهل التكرور يسميه « صاحبنا المعمر ابا عبد الله بن خديجة الكومى » كان يقيم فى مصـــــر ويقوم بعمل المترجم بين أهل هذه النواحى والمصريين ، ولا يتسع المقام للتفصيل ، وانما حسبنا ما تدل عليه السطور ، وهو ليس بالقليل ·

ونجتزىء من ذلك كله بمثلين يسيرين نتخيرهما لأنهما يدحضان زعمين قد يلجأ اليهما الناس ، أولهما أن وقوع مصر فى طريق الحج هو الذى هيأ لها القيام بهذا الدور ، والثانى أن مصر لم تقم بهذا الا فى عصور الاسلام ·

فأما المثل الذى يدحض الزعم الاول فهو انتشـــــار المســــيحية ثم الاسلام فى السودان الشمالى عن طريق مصـر ، فلقد دخلت المسيحية بلاد النوبة تنفيذا لسياسة الكنيسة المصرية ، ولقد جاهد أحبار هذه الكنيسة جهادا طويلا حتى نشروا المسيحية فى ممالك السودان الثلاث فى العصور الوسطى ، وهى ـ بحسب ترتيبها من الشمال الى الجنوب ـ النوبة ثم مقرة ثم علوة · وقد كتب الرحالة المصرى كوسماس المعروف بالبحار الهندى بين سنتى ٥٣٧ و ٥٤٧ الميلاديتين يقول ان الكنائس المســـيحية منتشرة بين النوبيين وكذلك الأساقفة والرهبان والشهداء · هذا ، ولم يكن فى المسيحية اذ ذاك مواضع حج يرحل الناس اليها ، وانما الحقيقة هى أن المصريين هم الذين أوغلوا فى السودان ونشروا المسيحية فيه ·

وحدث مثل هذا فيما يتصل بانتشار الاسلام فى شمال السودان ، فقد حمله المصريون أو العرب النازلون بمصر ، وهم مصريون ، دفعتهم الى ذلك طبيعة البلد الذى استقروا فيه واتخذوه وطنا ، والا فلماذا لم يدخل العرب الاسلام من جزيرتهم ، والعبور منها الى السودان أيسر ، وكانت حركة انتقالهم من الجزيرة الى السودان عبر البحر الأحمر مستمرة طوال العصور الوسطى ؟ لماذا لم يحمل الاسلام الى النوبة ومقرة وعلوة

الا عرب مصر دون عرب الجزيرة أجمعين ؟ ولماذا تسود ثقافة مصر بلاد السودان ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادى ـ مع ان مصر ليست فى طريق الحج من السودان ، وانما كان الناس هناك يحجون عبر البحر ؟

والمثل الثانى ادخال المصريين للمسيحية فى الحبشة • واين مصر واين الحبشة ؟ ولكن طبيعة مصر ووظيفتها فى القارة الافريقية فرضت عليها هذا الواجب ، فلقد حمل هذه الديانة الى الحبشة حبران مصريان فى خبر لطيف اسطورى الطابع ، ولكنه لا يخلو من دلالة ، وهذان الحبران هما اللذان انشآ الكنيسة الحبشية • وجعلاها تبعا للكنيسة المرقسية المصرية ، ومازال الأمر على ذلك الحال الى الآن ، وهو يدلنا على أن مصر تقوم بهذه الرسالة فى افريقيا من قبل الاسلام بزمن طويل ، ولأسباب أخرى غير وقوعها على طريق الحاج ، وهذه الأسباب هى موقعها الجغرافى وطبيعة أهلها واتجاه تاريخها •

ونحن لا نذكر هذا الكلام تغنيا بفضل ، وانما تقريرا لحقيقة ، حقيقة مسعدة لأهل هذا البلد ، لأن السعيد فى الدنيا من كانت حياته رسالة خير للآخرين ، وينبغى أن تكون مسعدة لجيرانها ، لأن الجار الذى لا يحمل الا الخير انما هو نعمة من نعم الدنيا • وليت العالم كله جيران على هذا المنوال !

ورب من يقول ان مصر قامت بذلك لخيرها المباشر أو لنفعها المادى، والتاريخ الصريح امامك ، لا تجد فيه دليلا واحدا يؤيد ذلك ، ولو من بعيد • فان مصر أعطت افريقيا هذا الذى رأيته كله ، فماذا كسبت منها ؟ لقد انشأت مصر امبراطوريتها دائما فى بلاد آسيا ـ وسنفصل أمر ذلك فى حينه ـ ولكنها لم تطمع يوما ما فى جار افريقى ، ولم تقتنص أحدا منهم شيئا ، واتضح الدلائل على ذلك ان الفتح المصرى للسودان على أيام محمد على كان فتح حضارة لا فتح سياسة ، وقد رافق الحملة المصرية نفر من علماء مصر افاد منهم السودان بعد ذلك أعظم الفائدة •

أما ما وقع فى اثناء الحملة من بعض أعمال القسوة ، فالمسئولون عنه نفر من أتراك محمد على نفسه وأهل بيته ، وقد ظلموا أهل مصر قبل أن يظلموا أهل السودان • ولكن يكفى مصر من حملت الى السودان من أهل العلم ، ويكفيها أن مهندسيها ـ وهم من أبناء الفلاحين المصريين ـ هم الذين انشأوا الخرطوم عاصمة السودان اليوم واكبر مدائن افريقيا فيما بين اسيوط ومدينة الكاب • ولو لم يكن للمصريين غير هذا لكان حسبهم ، وهو اتضح دليل على طبيعة رسالتهم فى السودان أولا وفى بقية القارة الافريقية بعد ذلك : رسالة خير وعمران وانشاء •

ونحن قد انشأنا فى السودان هذا البلد ، فأين ما انشاه غيرنا ممن يزعمون انهم اكثر حضارة منا ، وانهم أهدوا الى السودان فوق ما اهدينا

اليه ؟ ان المسألة ليست بما عندك بل بما تعطي مما عندك ! فقد نكون أقل من أولئك الخصـــوم مالا وثروة ، ولكننا أعطينا القليل الذى لدينا ، أعطيناه كله ، وهذا — آخر الأمر — محك القيم الانسانية وميزان العواطف البشـــرية .

ويصعب الأمر لو ذهبنا نستقصى اشعاعات مصر فى افريقية ، فان القارة ضخمة وتاريخها طويل ، وعلاقات أجزائها جميعا بوادى النيل أوغل فى القدم وابعد فى الاتساع من أن نستطيع احصاءها كلها ، وانما اردنا بهذا أن نصل الى تأييد هذه الحقيقة التى ترسم رسالتها فى افريقية : وهى أن مصر كانت — دائما وفى كل عصر — منبع الحضارة الأفريقية ومصدرها . فما اتصل بمصر من بلادها تحضر وتقدم فى مدارج الرقى ، ومالم يتصل بها بقى مكانه حتى استولى عليه أهل الغرب واستعمروه وفرضوا عليه لغتهم وحضارتهم فرض سياسة واستغلال ، ليصبح فى عداد المستعمرات ، يجرى فيه الناس على الفطرة ، ويستغلهم الاوربى كيف شاء ، بل يرفض أن يساويهم بنفسه ، ويحرمهم من أن يكون لهم صوت فى ادارة بلادهم ، ويسن قانونا يعتبرهم به مواطنين من الدرجة الثانية ، بل لا يعتبرهم مواطنين أصلا ، أين هذا كله من بلد يقف الآن على قدميه ويجرى فى ميدان الحضارة أشواطا ما كانت تخطر بالبال ؟

فاذا لم يكن هذا اثر مصر فاثر من يكون ؟

* * *

وهنا موضع كلمة لابد أن نقولها فى علاقة مصر بالسودان .

فان مصر والسودان شعبان شقيقان يعمران وادى النيل من منبعه الى مصبه تقريبا . ومصر لم تطمع أبدا فى وطن السودانيين .. ومحمد علي عندما بدأ فتح السودان كان يرمى الى استقلاله ، أما المصريون الذين ساروا معه فما فكر واحد منهم فى أن يصبح السودان جزءا من مصر بل هم ذهبوا الى وطن ثان لهم ، بل ان معظم الضباط والجنود المصريين فى السودان تزوجوا هناك وأنشأوا أسرا . ولو سارت الأمور سيرها الطبيعى لصار البلدان بلدا واحدا ، ولكن الانجليز تدخلوا وفصلوا مصر عن السودان ليجعلوا منه مستعمرة انجليزية ، ثم ركزوا جهودهم على جنوب السودان على أمل أن يجعلوا منه وطنا انجليزيا نصرانيا ، ولم يكن هذا حبا فى أهل جنوب السودان أو رغبة فى تحضرهم ، بل ســعيا الى تفتيت وادى النيل ، ومن أسف أن بعض اخواننا فى جنوب السودان جازت عليهم الحيلة وظنوا أن مستقبلهم هو الانفصال عن السودان وانشاء دولة خاصة بهم ، وهذه دسيسة انجليزية أوربية ، فلاضير فى أن تكون فى جنـــوب السودان جماعات مسيحية ، فان فى مصر ايضا اخوة مسيحيين يفخر بهم

هذا البلد ولا يجعل بينهم وبين اخوانهم المســــلمين اى فاصل ، فكلنا مصريون ، وكلنا مشاركون فى بناء مصر ، وهذا وطننا جميعا وليس لنا وطن غيره ، ونحن فخورون باقباطنا سعداء بهم ومعهم . وفى ثورة سنة ١٩١٩ اثبت اقباط مصر انهم اصدق وطنية مما ظن الانجليز ، فقد هبوا للدفاع عن وطنهم المصرى جنبا الى جنب مع اخوانهم ، وبهذا ضربوا للدنيا كلها مثلا عاليا فى الأخوة الوطنية وكيف تسمو على اى اعتبار(١) .

وليس فى مصر رجل واحد يطمع فى شبر من ارض السودان ، فأرض السودان لأهل السودان ، وانما نحن أخوان شقيقان لكل منهما بيته وأهله، ولا كلفة بينهما فمصر بلد كل سودانى ، والسودان بلد كل مصرى ، ومهما بلغ حب الواحد منا لأخيه فان هذا لا يأذن له فى ان يمس شعور اخيه بالسيادة فى بيته .

ان هذا هو عصر الدول الكبرى ، فمصر كبيرة بالسودان والسودان كبير بمصر ، ونحن مما يمكننا أن نحمى وادى النيل كله لشعبينا دون أن يجور احد منا على احد ، واذا تصـــور سودانى من اهل الجنوب انه يستطيع ان ينشىء وطنا مسيحيا جنوب السودان فلينظر فى امر بوتسوانا وانجولا وموزامبيق وســوازيلاند وليســوتو مما يجاوز جنوب افريقية ويخضع لها ويأتمر بأمرها فعلا ، فهل هذا هو ما يسعون اليه ؟

اننا لا نرضى لهم هذا المصير ، ومن واجبنا ان نقول لهم : ان الغرب يلقى بدسائسه فى قلوبهم ليفتت وادى النيل ، وينفرد أهل الغرب بشعوبه واحدا واحدا ، ونحن اقوياء اذا اجتمعنا ، وضعفاء اذا تفرقنا ، والدين لا يمكن أن يكون فاصلا بين مواطن ومواطن .

لقد كان وادى النيل كلا واحدا من مائة عام ، ففرقتنا بريطانيا الى دولتين ، والآن تحاول أوربا كلها ان تجعلنا ثلاثة ، وهنا يضيع امرنا جميعا .

فلنحافظ على وحدة مصر ووحدة السودان ، وليأت الى مصر اى سودانى يريد ان يطلب العيش ، ويذهب الى السودان اى مصرى يطلب أرضا يزرعها ، فستظل الأرض دائما سودانية ، ولكن الخير ســيعمنا جميعا ..

---

(١) ولفظ الاندوجو لفظ سواحلى ، وهى اللغة العربية الافريقية . وقد نشأت فى جنوب مصر ، وامتدت منها الى البلاد التى ذكرناها وفى ايامنا هذه تنشأ جماعة الاندوجو ، اى جماعة حوض وادى النيل وهى مصر والســودان واوغندة وكينيا وزائير وجمهورية افريقيا الوسطى والحبشة ونيجيريا .

فلننشيء شـــركات مصـــرية ســـودانية كما ينشيء الفرنسيون والبلجيكيون شركات أوربية ٠ اننا أهل وادى النيل نســـتطيع أن نطعم انفسنا وأهل افريقية كلها اذا كنا عقلاء اذكياء ، وكفانا أن الانجليز عبثوا بنا مرة ، فحذار أن تعبث بنا أوربا وامريكا مرة ثانية ٠ لنؤمن بوحدة وادى النيل : وحدة قلوب ومصالح وتعاون مع استقلال كل منا بوطنه ، واذا اصغى بعضنا لنداء الحبشة ، فهو جد واهم ، فالحبشة تستعمر بلدا عربيا كريما هو اريتريا ، والحبشة ليست مستقلة فى الراى او السياسة وهى دولة صديقة ولا اكثر ٠ وهى دولة فقيرة تعيسة ٠٠ فكيف تعين غيرها على الخروج من الفقر والتعاسة ٠

ان هدفنا الأخير ينبغى ان يكون اتحاد وادى النيل : مصر والسودان واريتريا وأوغندا ورواندا وبوروندى ٠ اتحاد قلوب واقتصاد ومصالح لا يمس الاستقلال القومى لكل منا ، ولو وفقنا فى ذلك لابرزنا للعالم قوة افريقية كبرى تساهم فى تقدم افريقيا باكبر نصيب ٠ هنا تحل رسالة وادى النيل محل رسالة مصـــر لأن الخير والحضـــارة والرخاء هى الغاية فى النهاية ٠

مصر والبحر المتوسط

خطر ببالي ان هذا العنوان قد يثير في ذهن القارىء سؤالا اساسيا في دراستنا هذه : انحن من الشرق أم من الغرب ؟

ان المفهوم الشائع اننا من الشرق ، بل اننا درجنا في السنوات الاخيرة على أن نعتبر ذلك جزءا من كياننا الذي يقرر مصايرنا ، ورسمنا جانبا كبيرا من سياستنا على ذلك الأساس ، واعتبرنا انفسنا ممثلين للشرق ، فاذا قيل : الشرق ، صغت آذاننا وقلوبنا ٠

والواقع ان ذلك الوضع في الشرق ليس « طبيعيا » بالدرجة التي نتصور ، ولم يكن هو وضعنا دائما على مدار التاريخ ٠

وحضارتنا ـ الى ما قبل الفتح العربي ـ لم تكن شرقية ، واتجاهنا ـ من مطالع العصر الحديث ـ ليس اتجاها شرقيا خالصا ٠

بل كان العرب انفسهم في حيرة من وضعنا ، فجعلنا بعضهم في المغرب ، ومن أولئك ابن سعيد المغربي ، وهو من كبار الجغرافيين المسلمين، وتبعه في ذلك ابو الفدا ٠ وقد فعل ابن سعيد ذلك عندما قسم العالم الى قسمين ليختص كلا منهما بكتاب ، فوضع مصر في المغرب ٠

وعندما قسم الرومان دولتهم ـ على أيام دقلديانوس ـ قسمين كبيرين : احدهما شرقي والآخر غربي ، جعلوا مصر في الشرقي ، ولكن ذلك لا يعني شيئا ، لأن دقلديانوس اختار أن يكون امبراطورا على القسم الشرقي نظرا للأخطار التي كانت تتهدد الدولة كلها ، وترك زميله يحكم القسم الغربي ٠ وقد وضع مصر في قسمه لانها كانت أغنى ولايات الامبراطورية ، ولم يكن من الحكمة أن يدعها من نصيب شريكه في الدولة ٠ ولكن الواقع أن علاقات مصر بما يليها شرقا كانت قليلة جدا ، وانما كانت علاقاتها المتصلة مع أمم البحر المتوسط ، وكان مجال حياتها أيضا حوض ذلك البحر ٠

وعندما انفصل قسما الامبراطورية الرومانية أحدهما عن الآخر ، كانت مصر طبعا من نصيب الشرق ، وأصبحت بذلك تعيش في مجال الدولة الشرقية التي عرفت بالبيزنطية ، وهي المعروفة عند العرب بدولة الروم ، وأخذت تتصل علائقها بما يليها من بلاد آسيا ، فكانما كان ذلك تمهيدا للفتح العربي ، ولانضواء مصر تحت راية الشرق جملة ، وبدء ذلك التاريخ المصري الشرقي الطويل ·

ونحب الآن أن نمضي مع حضارة مصر الأصيلة ، حضارتها قبل الرومان واليونان ، لنرى أين تضعها هذه الحضارة ، والى أي الجانبين تميل بها :

واذا أنت تأملت آثار مصر القديمة لاحظت انها تبعد في روحها ودلالتها عن المتعارف عليه من طبائع الشرق القديم المعروف ·

فان مجتمع الشرق قام على أساس ابعاد المرأة عن الحياة العامة ، واعتبارها جزءا من البيت لا جزءا من الحياة ، وقام على أساس السماح للرجل بالاستكثار من النساء كما يستكثر الناس من المتاع ، وفي مصر القديمة لم يفعل هذا الا كبار الاغنياء ، وهم يفعلونه في كل مكان وزمان ·

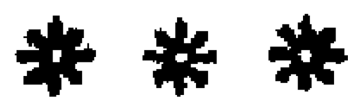
ونحن لا ننكر ذلك لمجرد أنه حقيقة من حقائق شتى ستنتهي بنا الى تحديد طابع الحضارة المصرية الذي سيعين لنا مكانها بين حضارات البشر . بل لأنه ناحية هامة من نواحي امتياز هذه الحضارة التي جعلتها أساسا لأعرق وأخلد ما عرف من حضارات ·

ذلك أن المجتمع الانساني لا يستقيم سليما صحيح التكوين الا اذا قام على أسس انسانية سليمة ، والأسس الانسانية السليمة لا تكتمل للمجتمع الا اذا اخذت المرأة مكانها الطبيعي فيه ، وساهمت في جهد المجتمع كله على أساس الحرية والانسانية والمساواة التي لا يقوم مجتمع بغيرها ، فلم تعرف الحضارات البشرية مجتمعا سليما ثابت الأركان قام على الحجر على النساء أو امتهانهن أو ابعادهن عن ميدان العمل والكفاح ، ولم تعرف مجتمعا سليما لا تتمتع المرأة فيه بالسيادة التي تمكنها من القيام بواجبها الطبيعي كأم وسيدة بيت أو كمكافحة في سبيل العيش ·

وقد انهارت معظم المجتمعات الشرقية بسبب ظلمها للمرأة وحرمانها اياها من مكانها وحقها الطبيعيين ، وهذه حقيقة لم يتنبه لها معظم من يدرسون تواريخ هذه الدول الشرقية من المشارقة ، ولكنها معروفة للدراسين من أهل الغرب · لأن مجتمعهم يقوم على المرأة والرجل مجتمعين ، ومن ثم فهم يعرفون أهمية المرأة في المجتمع

الانســـانى ، ويشـــيرون الى ذلك ويقررون انه أساس تقدم مجتمعهم على غيره من المجتمعـات · وهذه الحقيقة ـ على ما يبدو من بســاطتها ـ تفرق بين مجتمع ومجتمع ، وحضـــارة وحضـــارة ، بل هى الحد الفاصـــل بين الحضـــارات التى اينعت وعاشـــت ، والحضارات التى ذبلت وماتت ، والأمر هنا ليس أمر مناقشـــة وحجج بل أمر واقــع واحصـــاءات ، فأمامك حضــارات التاريخ فانظر فيها كيف شــئت لتتبين ذلك ، ومنطق الواقع ـ آخر الأمر ـ أحق من كل كلام ·

والحضـــارة المصرية القديمة من الطراز الذى أعطى المرأة حقها ، واعــترف بهـــا ، ومنحهـــا حقها كاملا فى البيت وفى ميدان العمــل والحياة · بل ان عينك لا تقــع على رســم مصـــرى قديم الا وجدت المرأة فيه الى جـــانب الرجل ، ورأيتها رافعة الرأس تســير معه وتعمل معه وتحتمل من الحياة نصيبها الذى يقابل ما تتمتع به من حقوق ، وأنت تجد المرأة فى مناكب الحياة المصرية كلها · وأنت تجد فى مصر القديمة عددا من الأرباب فى صور نساء ، وتجد ملكات عظيمات يضاهين الملوك عظمة وسلطانا ، وتجد عصورهن مشرقة ، مما يدل على احترام رعاياهن لهن ، وانتظامهم فى طاعتهن ، وأنت تجد الأدب المصرى القديم يضع المرأة فى موضع التكريم والاعزاز ·



وهذا لا يتعارض فى شىء مع ما يقوله الـــكثيرون عندنا من أن مكان المرأة فى البيت ، وأن واجبها الأول هو خدمة الزوج ورعاية الأولاد والمشاركة فى تربيتهم · فهذا كله طبيعى يقول به الاسلام ، لأن الاسلام دين واقع ومنطق حياة · والمرأة العاقلة بطبعها تضع بيتها وزوجها وأولادها فوق كل اعتبار ، ولكنها تفعل ذلك فى اطار الاحترام الكامل ، فهى ينبغى أن تكون ربة البيت فعلا لا مجرد كلام ، وليس للرجل أن يهينها أو يعاملها على أنها واحدة من الأولاد : يأمرها ولابد أن تطيع ، وليس لها أن تناقش كما يظن بعض الناس عندنا · والمرأة اليابانية من أطوع النساء لزوجها وأكثرهن اخلاصا لأولادها ، ولكنها فى البيت والحياة العامة محترمة جدا ، وهى تعمل فى المكتب والمصنع ، ولكنها اذا وضعت أعطوها اجازة بمرتب لمدة سنتين ، لأنها فى خلال هذه المدة تقوم للمجتمع بواجب أهم من واجبها فى المكتب والمصـــنع : انها تربى يابانيين صـــالحين ، والياباني الصالح رأس مال قومى ··

والقرآن الكريم يقول : (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) (النســـاء ٣٤) فهنا شرط وجواب شرط ، ولا يستقيم الشرط بدون جوابه : فالرجال قوامون

على النساء وهذا جواب الشرط ، أما الشرط فهو أن يكون الرجل افضل من المرأة عقلا وعلما وفهما وقدرة ، وأن يكون هو المنفق على المرأة من ماله ، فاذا كان افضل منها فعلا وكان ينفق عليها حق الانفاق جاز له حق القوامة والا فلا ، فلا يكون الرجل أحمق جاهلا عاطلا ثم يقول انني القيم على امرأتي . هنا نقول له انك تخالف روح النص القرآني . أضف الى ذلك أن أى امرأة طبيعية المزاج تحب أن يكون لها زوج فاضل محترم يملأ عينها لتطيعه وتسند حياتها اليه وتستظل بظله ، فهذه هى طبيعة المرأة ، فنجيء نحن ونبدل الشيء الطبيعي بالقوة والاكراه والغلظة ونحجر على النساء ظلما وتعسفا ، وننسى أن المرأة بطبعها مخلوق عفيف لا يميل الى التبذل أو امتهان نفسه ، فاذا رأيت امرأة تبتذل نفسها أو تباع فى سوق الرقيق ، فاعلم أن السبب فى ذلك هو الرجل . ولم يكن الحجاب قط دليلا على عفة المرأة وفضلها ، فان العفة تنبع من داخل المرأة لا من حجابها ، وانما أمر الله بالحجاب صيانة للمرأة من عدوان الرجل عليها ، فالحجاب ليس فيه سوء ظن بالمرأة ، وانما فيه دليل على أن العدوان على المحارم طبع مركب فى الرجل . ومن هنا فاننا نقول : اذا أردت أن تعرف مستوى ارتقاء شعب من الشعوب فانظر مكانة المرأة فيه ، فاذا كانت محترمة حرة موقرة فهو مجتمع صالح . واذا كانت ممتهنة يسيء الناس الظن بها ، فهو مجتمع غير فاضل ، والمرأة الايرلاندية مشهورة بأنها من أطوع النساء لأزواجهن وأحسنهن تربية لأولادهن ، وهن مع ذلك من اقدر نساء الدنيا على العمل وأمهرهن فيه ، واذهب الى دبلن أو بلفست وانظر بنفسك لترى صحة ما أقول .

وهكذا كانت المرأة فى مصر القديمة ، كانت سيدة بيت ، وأم أولاد ، وعاملة حقل ومشاركة بنصيبها الكامل فى الحياة ، ومن أغرب الظواهر أن مصر القديمة لم تعرف البغاء أو تجارة النساء ولا أسواق الرقيق . وعندما فتح العرب مصر لم يتخذوا من المصريات جوارى قط . وظاهرة دخول الشعوب فى ولاء العرب الفاتحين عرفتها كل بلاد الاسلام الا مصر . فليس هناك موال مصريون . والبيت المصرى حافظ على وحدته واحترامه وسلامته طوال عصور المحن والمظالم ، وهذا تقليد ورثناه عن أجدادنا المصريين القدماء وزاده الاسلام قوة ، وهو يصدق اليوم كما صدق بالأمس .. ولازال المجتمع المصرى من أسلم المجتمعات وأوفرها فضيلة ، فيما يتعلق بخلق النساء وحسن تصرفهن وصيانتهن لأنفسهن ، والذين يزعمون انهم يصونون المرأة نقول لهم : صونوا أنتم انفسكم ودعوا المرأة المصرية ، فهي تعرف كيف تصون نفسها ، واذكروا هذين البيتين البليغين :

عفوا تعف نساؤكم عن محرم
وتجنبوا مالا يليق بمسلم

ان الزنا دين ، اذا اقرضته
كان الوفا من اهل بيتك فاعلم

وحضارة مصر مشتركة فى هذه الناحية الأساسية مع حضـــارتنا الراهنة ، وانا اقول « حضارتنا » لانك سترى مانسميه اليوم بحضـــارة الغرب ان هو الا الحضـــارة المصـــرية القديمة متطورة فى اتجاه واحد مســــتقيم ٠٠

والحضارة المصرية القديمة قامت على الأسس الثلاثة الصـــحيحة التى بدونها لا تستقيم حضـــارة تكتب لها الحياة ، وهى العلم والفن والعمل ٠

فأما العلم فأيسر تأمل فيما بين أيدينا من آثار هذه الحضـــارة يتحدث عن العلم القائم على الحساب والدرس الطويل ٠ هذه الأهرامات والمنشآت ، كيف تقوم دون هندسة ؟ وهذه الرسوم ، كيف تتم دون آلات دقيقة ؟ وهذه الأدوات البديعة التى تتراوح بين آنية البيت والســـفين الضخم ، كيف تصنع ـ وبهذه الكثرة ـ الا عن علم بالأخشاب والمعادن وغير المعادن واتقان للحساب الذى لا يستغنى عنه فى حقل هذه الصناعات؟ وهذا التحنيط وما يحيط به من الطب المصرى القديم ، كيف يتم بغير تشريح وادراك كامل لما ينبغى أن يعرف من حقائق عن بدن الانسان ؟ بل ان شيئا من ذلك لا يتم بغير معرفة بالكيمياء والنبات وما الى ذلك ٠ وهذا كله فى مجموعه « علم دقيق » ٠٠ «Exact Science» لم تعرفه حضارات كثيرة ، فلم يتقدم سيرها الا قليلا ، وتكنولوجيا لم تعرفها الا امم قليلة ٠

والنصوص المصرية القديمة تنم عن ترتيب ذهنى منطقى دقيق ، يدل على أن العقلية المصـــرية القـــديمة كانت علمية ولم تكن غيبية ، وهى قد بدأت بالغيب الاكبر ـ ماوراء الموت ـ فحلته حـــلا قبله منطقها ، ولم تجعله غيبا محجبـــا بل مصـــيرا واضحا معروف البداية والنهاية ، وقد اعد المصـــرى القديم لهذه النهاية ما هى بحـــاجة اليه ، فقد حسب أن الميت يعود الى الحياة بعد فترة طويلة او قصـــيرة فى العالم الآخر ٠

فالمصـــرى القديم كان يعيش على هدى من علم قليل او كثير ، وقلته او كثرته لا تعنى شـــيئا فى هذا الحســـاب ، لأن المهم انه كان يؤمن بما يعلم ويعيش بمقتضاه ٠

وهنا ايضا تشترك الحضارة المصرية مع الحضارة الراهنة ، تلك التى نســـميها الحضارة الغربية ، التى نحســـب فى بعض الأحيان أنها غريبة عنا ، وما هى الا غرس يدنا وامتداد لهذه الحضـــارة الباهرة التى اقامها اجدادنا على ضفاف النيل ٠

ولابد هنا من وقفة طويلة بعض الشىء تنير جوانب هذه الناحية ، وما اظن ان احدا هنى بأن يســـتقصى أمرها ويأتينا بالقول الفصـــل فى أمرها ٠

ذلك أن الذين يقومون على تكوين عقولنا حرصوا منذ زمن بعيد على أن يقرروا في أذهاننا بضع مسائل أضرت بنا أشد الاضرار ، واعطتنا فكرة سيئة عن طبيعة حضارتنا ، وعن علاقتنا الذهنية بما حولنا شرقا وغربا ٠

حرص أولئك الناس على أن يقرروا في أذهاننا المسائل الآتية :

أولا : أن هناك حضارة شرقية وأخرى غربية ، وأن هاتين الحضارتين تتعارضان ولا تتلاقيان ٠

ثانيا : اننا ـ نحن المصريين ـ ننتمي الى الحضارة الشرقية ، وحدها ، ولا صلة لنا على الاطلاق بتلك الحضارة الغربية ٠

ثالثا : أن الحضارة الشرقية ، ويقصدون بها الحضارة العربية على وجه التحديد ، لم تأخذ شيئا عن غيرها ، وانما هي نبتت من تلقاء نفسها ولا فضل لحضارة أخرى عليها ، ولا يدانيها شيء من أعمال البشر ٠

رابعا : أن هذه الحضارة العربية هي أصل كل حضارة أخرى ، وأن العالم لم يضف اليها شيئا الى الآن ، بل انه افسد بعض نواحيها ٠

خامسا : اننا اذا كنا نريد أن نعيش ، فواجبنا الأول هو مطاردة كل أثر من آثار الحضارة الحديثة من بلادنا ، وتنقية « حضارتنا » العربية والعودة بها الى جوهرها السليم الصافي الذي كانت عليه ٠

وهذه المسائل كلها ليست حقائق ، وانما هي أوهام أو دعايات صدرت عن عقول لا تفهم طبيعتها المصرية حق الفهم ، وعن قلوب لا تعرف كنه الحضارة العربية في ذاتها ، ولا تستطيع أن تدرك الناحية الانسانية في الحضارات ٠

وسأجتهد أن أعرض لكل من هذه الدعاوى في السطور التالية ، لأن ذلك يعيننا على تحديد طبيعة حضارتنا المصرية أولا ٠ ثم تحديد علاقتنا بالغرب وبالحضارة الراهنة ثانيا ، وهو موضوع على أكثر جانب من الأهمية بالنسبة لمن يطلب تحديد رسالة هذا البلد على مدار الزمن الطويل ٠

* * *

فأما عن المسألة الأولى ، فأقرب الآراء في أمرها الى الصحة هو أن تاريخ البشر لا يعرف هذا التفريق الحاسم الفاصل بين

الحضـــارات ٠ لأن الحضارة معناها كل جهد يبذله الانســان لتحســين ظروف معاشـــه على الأرض ، ســـواء أكان ذلك التحسين معنويا أم ماديا : فالانســـان الذى اكتشـــف الزراعة ـ أى تنبه الى أنه يستطيع أن يزرع نباتات يستفيد منها ـ خطا بذلك الاكتشاف خطوة حضارية مادية واسعة الى الأمام ٠ والانسان الذى تفطن الى أن يتفق مع جاره على أن يعيشا فى سلام جنبا الى جنب ، هو أيضا خطا بذلك التفطن خطوة حضارية معنوية واسعة الى الأمام ٠٠ وهكذا ٠

فالحضارة البشرية ـ على هذا ـ تبدأ منذ اللحظة الاولى لوجود الانسان على هذا الكوكب : تبدأ منذ اهتدى الانسان الى تهذيب قطعة من الحجر ليستعملها ســلاحا ، وتتصل الى يوم عرف كيف يفجر الذرة ، وستتصل الى يوم يبعثون ٠

وقد تعودنا نحن أن نقول « حضارات » بالجمع ، فهناك حضارة العصر الحجرى القديم ، وحضارة العصر الحجرى الحديث ، وحضارة عصر البرونز ، ثم حضارات العصور التاريخية ، ونحن نطلق عليها أسماء الشعوب التى استحدثتها على سبيل التقسيم والتبويب لا على سبيل الفصل والتمييز ، فهناك حضارة مصر القديمة ، وحضارة اليونان ، وحضارة الرومان وما الى ذلك حتى حضارتنا الراهنة ٠ والواقع أن هذه كلها حضارة واحدة وسلسلة متصلة مترابطة لا تنفصل حلقة من حلقاتها عن الأخرى ، وما من حضارة الا أخذت عن التى قبلها أو التى عاصرتها وصبت فيما تلاها وأثرت فيما جاورها أيضا ٠٠ ولا يعرف التاريخ حضارة كانت وحدها وتلاشت دون أن تصب فى التيار العام الا مرة واحدة ، وفى هذه أيضا شك ، وهى حضارة الأزتيك التى قامت فى المكسيك ٠

ومع ذلك فان المكسيكيين والبيروانيين يبذلون جهودا عظيمة للكشف عن طبائع حضـــارات الأزتيك والأنكا واحياء ما اندثر من مظاهر هاتين الحضارتين ، وأثبتوا بالفعل أنهما لاتزالان حيتين فى كيان أهل بلادهما ، وفى تيار الحضارة الانسانية جملة ٠

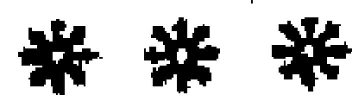
فحضارة مصر القديمة قامت على أساس من تجارب البشر فى عصور ما قبل التاريخ ، وهى قد أفادت على طول تاريخها من كل ما عاصرها من الحضـــارات : أخـــذت عن الليبيين والنوبيين والعـــبرانيين والحيثيين والميسنيين ، بل اتصلت بها تيارات مقبلة من بعيد ، كهذه العجلات الحربية التى حملها الينا الهيكسوس ، وهم لم يخترعوها ، وانما أتوا بها من أمم قلب آسيا ، التى تحركت من بلادها فدفعت ما يليها من الشعوب غربا ، وتدافعت الأمم غربا فغربا حتى بلغت الموجة مداها فى بلادنا ، فوصلتنا ـ عن هذا الطريق الطويل ـ العجلة الحربية التى غيرت مجـــرى تاريخ مصر ٠

والحضارة التى نسميها عربية ونحاول أن نفردها عن غيرها ليست بعربية خالصة ولا بشرقية خالصة ، وانما هى أخذت من كل ناحية وأفادت من اليونان والرومان والصقالبة وشعوب الشمال ·· وهى لم تفعل ذلك عن فقر فى طبعها ولا هو يضيرها أن نقول انها فعلته ، بل تلك هى طبيعة الحضارات وهذه سيرتها ، ولا يمكن أن تكون الا كذلك ·

والحضارة التى نسميها غربية ، ونحاول أن نقول انها شيء قائم بذاته ، ليست غربية خالصة أيضا ، فقد أخذت عن الشرق كثيرا واعترفت هى بذلك الاقتباس ، لا عن فقر فى طبيعتها ، ولا عن ضعف فى بنيتها ، بل لأن هذه هى طبيعة الحضارات على ما قلناه ·

واذن فليست هناك حضارة شرقية على حدة وأخرى غربية على حدة ، بل الشرقية شرقية وغربية ، والغربية غربية وشرقية ·

ولما كانت الحضارات ثمرات تجارب الانسان فهى تحمل صورة نفسه وتجمع بين الخير والشر ، فلم يعرف التاريخ حضارة يستطيع أن يصفها بأنها خير خالص ، ولا حضارة يعتبرها شرا خالصا ، وانما الحضارات كلها مزاج من هذا وذاك · ولا معنى والحالة هذه لأن نصف حضارة من الحضارات بأنها شريرة أو خادعة أو زائفة ، لأن ذلك غير معقول ، والمعقول أن جوانب الخير فى كل عمران انسانى أغلب من جانب الشر ، الا فى أعصر الانهيار والانحلال ·



وأما عن المسألة الثانية ، وهى أننا ــ نحن المصريين ــ لا ننتمى الا الى الحضارة الشرقية الخالصة ، ولا صلة لنا بالحضارة الغربية الراهنة ، فقول خاطىء من أساسه ، وهو يتضمن انحرافا مقصودا بطبيعة حضارتنا عن مجراها ، وفيه توجيه غير نافع أيضا لحضارتنا ·

ذلك أن حضارتنا المصرية ولدت ونمت وازدهرت قبل أن تزدهر واحدة من حضارات الشرق التى اتصلت بنا فيما بعد ، ولقد قامت هذه الحضارة ــ على ما قلناه ــ على أساسين ثابتين : أولهما افريقى ، والثانى بحرى أو متوسطى ، نسبة الى البحر المتوسط · ولقد أخذ التيار البحرى من حضارتنا كثيرا عن أهل جزائر البحر المتوسط ، وتمثله فى كيانه ، وامتزج هو بعد ذلك بالتيار الافريقى ، ومن هذين التيارين تكون تياره القوى الأصيل ، ثم أخذ الجانب البحرى يقوى ويشتد ، ومازالت مصر البحرية تشتد حتى جذبت مصر كلها وأدخلتها نطاق البحر المتوسط ·

ولقد انصبت في تيار حضارتنا – على الزمن الطويل – روافد آسيوية بعضها بحرى اقبل من الشام وارض الحيثيين في جنوبي آسيا الصغرى ، وبعضها قارى اقبل من جزيرة العرب وأرض الرافدين وما يليهما من بلاد القلب الآسيوى ، ولكن هذه الروافد لم تلبث أن ذابت واختفت في غمار التيار المصرى العام الذى استبحر شيئا فشيئا ، حتى اذا كانت أيام الأسرة الحادية والعشرين كانت مصر قد أصبحت – كما قلنا – دولة متوسطية خالصة ، عاصمتها في الوجه البحرى ، وصلاتها ببلاد البحر وجزائره اكثر من صلاتها بالنوبة وما يليها وبلاد الليبيين في الغرب ٠

وكانت الحضارة المصرية قد بلغت اذ ذاك مداها ، واستهلك كفاح الزمن الطويل أجيال مصر القديمة بعد أن صمدت للزمان آلافا من السنين متوالية ٠

وكانت امم شرقى البحر المتوسط البحرية قد اشتد عودها ، وقامت في بلاد اليونان وفي كريت وآسيا الصغرى امم وليدة انتقل اليها جوهر الحضارة المصرية ورواؤها ، فاضافت اليه من عندها وانشأت تبنى عليه لبنة فلبنة ما عرف فيما بعد بحضارة اليونان ٠

وكان ضعف مصر – على ايام الأسرة السادسة والعشرين وما تلاها – شيئا عاديا عرض لها قبل ذلك مرارا ، وعرض لغيرها من امم الأرض اجمعين ، والتاريخ المصرى القديم ليس الا ارتفاعات وانخفاضات شانه في ذلك شان غيره من تواريخ الأمم العريقة التى تطاول الزمن السرمدى ٠

ولقد كانت مصر قمينة بأن تنهض من هذه الكبوة وتعود سيرتها الأولى لو لم ترزأ بنكبة الغزو الفارسي المخرب سنة ٥٢٥ قبل الميلاد م وهى نكبة لم تتكرر في تاريخنا بعد ذلك الا مرتين ، احداهما سنة ٣٠ قبل الميلاد عندما غلب الرومان على مصر وبدءوا ثلاثة قرون من التاريخ الدامس ، وثانيتهما كانت سنة ١٥١٧ عندما دخل العثمانيون هذه البلاد ٠

ولقد كسر هذا الغزو الفارسي شوكة مصر كسرا لم تفلح في علاجه الا بعد قرون ، لأنه اتاها في أعقاب موجات من الغزو الليبي والنوبي ، وبعد منافسات داخلية محزنة أصابها من ورائها بلاء شديد ، ولأنه كان غزوا دمويا مخربا عنيفا قاسيا ، حمل الى هذا البلد الطيب – مصر – مساوىء الحكم الآسيوى القديم كلها ، فكان مثل جراد انتشر ارجالا على ارض مخضرة فلم يبق على شىء ٠

وكان من اثر هذه الغارة المخربة أن مصر لم تستطع أن تغالب الاغريق الناهضين على تلك الأيام وعجزت حتى عن المغالبة ، وشف أولئك عليها بعض الشفوف ، وبدا وكأن مصر خرجت من ميدان الأمم الحاملة لحضارة البشر ·

بيد أن مصر لم تلبث أن نهضت من جديد ، وبأسرع مما كان يتوقع ، فلقد دخل الاسكندر مصر غازيا ، وأخرج الفرس منها ، وأعادها الى عالم البحر المتوسط ، فلم تكد تعود وينقطع عنها ذلك البلاء الأسيوى حتى نهضت من جديد · وعلى أيام البطالمة تألقت حضارة مصر مرة أخرى بكامل لألائها ، وعاد زمام العمران الانسانى الى يد بلادنا ، وانتشر النور من الاسكندرية وغيرها من مراكز الحضارة المصرية ·

ومعنى ذلك أن حضارتنا كانت — الى الغزو الرومانى سنة ٣٠ قبل الميلاد — بحرية متوسطية ·

ثم اتصلت الحضارة المصرية بعد ذلك على أيام الرومان خافتة أول الأمر بسبب ما عرف عن الرومان من شدة وعنف ، ولكنها لم تلبث أن استقامت من جديد ، وأصبح بلدنا ، فى العصور الرومانية المتأخرة ، مركز الحضارة المتوسطية ، ذلك أن المسيحية التى ولدت فى فلسطين لم تلبث أن وجدت التربة الصالحة فى وادى النيل ، وعلى بلدنا وفدت السيدة العذراء مريم مع ابنها المسيح هاربة من ظلم هيرود ، ثم أقبل بعض الحواريين الى بلادنا فوجدوا القلوب ممهدة لتلقى تلك الرسالة السماوية ، فكثر المسيحيون فى مصر ، وأقبل الى هذا البلد الحوارى مرقص ، فأنشأ الكنيسة المرقصية فى الاسكندرية وهى التى انتقلت اليها زعامة المسيحية كلها بعد قليل ، وفى مصر كتب مرقص انجيله المعروف ، وهو أبلغ الأناجيل أسلوبا وأوفرها حكمة ، وربما كان ذلك أثرا من آثار مصر عند ذلك الحوارى الجليل الذى مات فى بلادنا ودفن فيها ، ثم سرق أهل البندقية رفاته وفروا به الى بلادهم حيث أنشئوا باسمه كنيستهم الكبرى « سان ماركو » ، أى القديس مرقص ·

وقد نهضت كنيسة الاسكندرية خلال قرنين متواليين (هما القرنان الرابع والخامس الميلاديان) تنافح عن العقيدة القويمة ، وناهضت كنيستى القسطنطينية وروما زمانا طويلا ، وظهر فيها أحبار أجلاء بهروا الدنيا بعلمهم وصلابتهم فى الحق ، من أمثال كيرلس الاسكندرى وديوسقوروس ويوتيخيوس وانطونيوس المصرى والأنبا بولا · والبابا اسكندر والأنبا أثناسيوس · هؤلاء رجال لهم فى بناء الحضارة العالمية نصيب كبير لا يتسع لتفصيله هذا الكتاب ·

وفي هذا العصر عادت مصر بكليتها الى البحر المتوسط وقادت حضارته ، واحتلت مكانها بين بناة عمرانه ، وابتكرت الرهبانية الديرية ، واطلعت رجالات يعدهم الغرب اليوم من بناة حضارته ، من امثال القديس انطونيوس وباخوميوس والأنبا بولا كما قلنا ، وانجبت من المفكرين الذين يذكرهم الفكر الأوربي بالاجلال نفرا غفيرا من أمثال أريوس ٠

وقد ظلت مصر تعيش في عالم البحر المتوسط حتى الفتح الاسلامي ، وورثت القسطنطينية والكنيسة الرومانية ثمرات كفاحها الديني الطويل ، كما ورث اليونان جانبا عظيما من تراث مصر القديمة الفني العلمي ٠٠ وهذان العنصران اللذان خلفتهما مصر للاغريق اولا ، ثم للعالم المسيحي الوسيط بعد ذلك ، يعتبران من أمكن الأسس التي قامت عليها حضارة الغرب الراهنة ، التي يقال لنا انها غريبة عنا ولا صلة لنا بها ، وماهي في الواقع الا بناء على أساس وضعناه ، و اكمال لصرح ثبتنا قوائمه على طول القرون ٠

ثم كانت الحضارة الاسلامية ، واسهمنا فيها بالنصيب الذي هيأته لنا ملكاتنا وتجاربنا في الحضارات ، وازدهرت هذه الحضارة في بلاد المشرقين الأوسط والأدنى ، وامتدت على ضفاف البحر المتوسط حتى حدود فرنسا الجنوبية ، وشملت حوض هذا البحر كله وجزائره ونواحي من ايطاليا والبلقان ٠

وبلغت هذه الحضارة الاسلامية اوجها ابتداء من القرن العاشر الميلادي ، واجتمع لها من الجديد مما صدر عن عبقريتها الخاصة ، ما هو جدير بأن ينصب في نهر الحضارة البشرية العام ، وبدأ ذلك فعلا منذ القرن العاشر الميلادي ، فاخذت روائع الفكر الاسلامي تترجم الى اللاتينية والعبرية منذ القرن الحادي عشر الميلادي ، وتنبه الناس في العالم اجمع الى قيمة هذا التراث الحضاري العظيم ، فاقبلوا على عالم الاسلام يدرسون ويقتبسون وينقلون ، فما انتهى القرن الثالث عشر الميلادي حتى كان خير ما في الحضارة الاسلامية قد ترجم الى غير العربية من اللغات ، واصبح ملكا مشاعا للبشر اجمعين ٠ هذا على حين كان أمر المسلمين انفسهم قد بدأ يضمحل ، وانتهى عصر الابداع في تاريخهم الفكري ، ولم يعد لديهم بعد ذلك الا تكرار لما فات ، او تقليد لما أبدعه الأسلاف ، الا فيما ندر ٠

ومن الغريب ــ في قصص انتقال ثمرات الحضارة من شعب الى شعب وتوارث الامم امجاد بعضها البعض ــ أن الامم بطبعها تعرف الجيد فتنقله ، وتدع الرديء او الخاص بقوم دون قوم فلا تقبل عليه ، ومن ثم فانك تجد ما تنقله الأمم بعضها عن بعض هو النافع ، وهو الذي يلائم البشر اجمعين ٠ فقد اخذت اليونان مثلا عن مصر القديمة المثالة والتصوير والطب والصناعة الدقيقة ، وتركت نظم الحكم وطقوس الدين ،

لان هذه الأخيرة لم تكن تستحق أن تتوارث ، ثم انها كانت مصرية خالصة تلائم مصر وحدها ولا تنفع من عداها · فاما الثالثة والتصوير والطب والصناعة الدقيقة ، فهي خير ما يصدر عن العبقرية المصرية ، وهي تراث انسانى خالد تعاقبت عليه الأمم ، وهى فى ازدهار ونمو حتى يومنا هذا ·

وكذلك يقال فى الحضـــارة الاسـلامية ، فان فيها ماهو عالمى ينفع البشر اجمعين ، وفيها ماهو خاص بالعرب والمســلمين دون غيرهم · فاما العالمى الذى ينفع البشـــر أجمعين فالطب والرياضـــيات والنبات والفلســـفة والتصوف والأدب الشـــعبى ، وأريد بالادب الشعبى ذلك الانتاج الســـاذج البســـيط الذى صدر عن جماهير مملكة الاسلام دون تكلف ، فخرج طبيعيا انسانيا يلائم مزاج الشـــعوب عامة ، كالقصص البسيط الذى يتمثل لنا فى الف ليلة وليلة وما جرى مجراها ، وكالشعر الشعبى الذى يمثله الزجل والموشحة ·

فاما ماعدا ذلك فقد يكون عظيما فى ذاته ، ولكنه ليس انســـانيا عاما فى جوهره ، وهو قد أعجب العرب لأنهم عرب ، ومن أمثلة ذلك شعر الفطاحل ممن يتعجب الناس عندنا من انصراف الدنيا عن أدبهم على مايحدثونه فى العالم العـــربى من دوى ، كالمتنبى والبحترى وأبى تمام مثلا ، وهؤلاء وانداده لا يســـاوون فى ميـــدان الحضـــارة العالمية شـــاعرا كعمر الخيام الذى جمع أهل الارض جميعا على رباعياته ، او الفردوسى الذى تغنى ببطولة البشـــر فى قالب من بطولة الفرس ، كما تغنى قبله هوميروس ببطولة بنى آدم فى أعمال أبطال الالياذة ·

وقد يحســـب البعض أن العـــالم لم يقبل على المتنبى والحريرى مثلا لأنه لم يعرفهما ، لكن الواقع انه عرفهمـــا وبذل جهدا عظيمـــا فى تفهمهما ، ولكنه انصرف عنهما آخر الأمر ، لأنهما انما يمثلان ذوقا عربيا فى صميمه ولبابه وشكله ، وعبقرية خاصة بأمة العرب وحدها ·

ولعل من يسأل : وما القول اذن فى ابن خلدون ، وهو امام من أئمة الفكر البشـــرى ، وما له لم يترجم الى اللاتينية والعـــبرية كغيره ، وما له لم يأخذ مكانه من الفكر العالمى كله ، والجواب عن ذلك أن ابن خلدون ظهر بعد انقضاء عصر انتقال الفكر الاسلامى الى الفكر العالمى ، فقد ظهر فى القرن الرابع عشر الميلادى ، فظل مجهولا من الفكر العالمى حتى القرن التاسع عشر ، واكتشفوه قبل أن نكتشفه نحن ! وهم الذين قدروه ووضعوه مكانه بين فلاسفة التاريخ ، ونحن اليوم نتابعهم فى ذلك ونفاخرهم برجل هم كانوا أول من نبهنا الى قدره ، وهذا من أغـــربه ما يروى فى مثل هذا الباب ·

وهذه الحقيقة الأخيرة التي ذكرناها عن ابن خلدون تنطبق على غيره ممن يعتز بهم تراث الفكر الاسلامي اليوم ، فلو ذكرت ابن سينا والفارابي وابن رشد وابن طفيل لواحد من المثقفين المسلمين في القرن الخامس عشر الميلادي مثلا لاستعاذ بالله ، وربما تلطف فذكر كلا منهم بشيء غير الفلسفة · فابن سينا هو صاحب الأرجوزات في الطب وابن رشد هو صاحب « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » ، وابن طفيل هو صاحب « حي بن يقظان » ، فأما آراؤهم ومذاهبهم في الفلسفة ، وهي التي تعطيهم قيمتهم الحقيقية ، فقل من كان يذكرها بين ناس ذلك الزمان من العرب ·

ولو أنك ذكرت أسماء أبي علي بن سينا أو أبي نصر الفارابي وأبي زكريا الرازي والحسن بن الهيثم وعلي بن نفيس ومسلمة المجريطي وابراهيم بن أزراقيل المعروف بالزرقالي ، وجابر بن افلح وابن السمح وأبي القاسم الزهراوي وابن وافد وابن العوام والغافقي وابن البيطار ومن اليهم ، وهم من أعلام الطب والرياضيات والفلك والنبات في تاريخ العلوم عند البشر ، لو انك ذكرت أولئك في نفس ذلك القرن الخامس عشر لوجدتهم مجهولين في عالمهم الاسلامي الذي أطلعهم ، وهم أشهر من نيران على أعلام خارج حدود ذلك العالم ، ومن عجب أيضا أننا نفاخر الدنيا بهم اليوم ، كأن الدنيا تجهلهم وكأنما نحن أصحاب الفضل في كشفهم ، ومانحن في ذلك الا متابعين لما قاله أهل الغرب عن أجدادنا الأعلام !

السبب في ذلك راجع الى أن الأوروبيين أنفسهم يعتبرون الحضارة تيارا انسانيا عاما صبت وتصب فيه جهود البشر أجمعين ، ولهذا فهم يدرسون تراث غيرهم من السابقين عليهم ومعاصريهم وفي جملتهم العرب · لهذا درسوهم واستخلصوا ثمار جهودهم ، في حين أن موقفنا من تراثنا يشبه أحيانا موقف البخيل الذي يخزن ماله دون أن يستثمره ·

وخلاصة هذا الكلام أن الجزء العالمي الهام من الحضارة الاسلامية ، قد انصب منذ زمن طويل في نهر المعرفة البشرية الخالد ، وأصبح جزءا من مائة ، وارتوت به أرض البشر ، وأطلعت منه ثمارا مما نراه اليوم ، فالرياضيات التي تقود الحضارة العالمية اليوم تحمل في أطوائها آثار ثابت بن قرة ، وابن السمح ، ومسلمة المجريطي ، والكرماني ، والبيروني وكثيرين غيرهم ، وهي تحمل من بعيد تراث أجدادنا الأوائل من أهل مصر القديمة ، أي أن لنا رافدين في نهر الحضارة الراهنة : رافدا مصريا ورافدا اسلاميا ، ولم يسهم الانجليز أو الفرنسيون فيه بأكثر من ذلك بكثير ·

فهذه الحضارة الراهنة حضارتنا أيضا ، وهي ليست من ابتداع الغرب ، بل ثمرة تجارب البشر على الزمن الطويل ، وهي ليست أوربية أو غربية ، وانما هي انسانية ، وحقنا فيها لا يقل عن حق غيرنا ، وكل ما في الأمر أنها أخذت في أيامنا ثوب الغرب كما لبست ثوب مصر

القديمة أيام مصر القديمة ، وكما كانت اغريقية أيام الاغريق ، ورومانية أيام الرومان ، واسلامية أيام العصور الزاهرة من تاريخنا ٠

ومعنى ذلك أن هذه الحضارة التى تسمى اليوم غربية ليست غربية الا بثيابها ، وأما صميمها فانسانى ، ونحن ـ كمصريين ـ اصحاب حق فيها كغيرنا ممن ينسبونها الى انفســـهم ، بل ان حقنا فيها أكبر ، فقد ساهمنا فيها عن طريقين ، ولم يسهم غيرنا فيها الا عن طريق واحد ، ونحن وضـــعنا الأسس وجزءاً كبيراً من البنيان ، ثم جاء غيرنا فأعلى وزاد ٠ وذلك كله يرجع الى مكاننا فى البحر المتوسط ونصيبنا فى بناء حضارته وقد ســـماه الرومان « بحرنا » (مارى نوستروم) ونحن أولى منهم بذلك ٠

وأولئك الذين يزعمون لنا أن لنا حضارة أخرى تختلف عن هذه ـ وهى التى يسمونها شرقية ـ مخطئون ، لأن مصر التى ساهمت فى بناء الحضارة الانسانية بهذا القدر العظيم لا تفرق بين شـــرق وغرب : الكل أبناؤها ، وكل ما ابدعوه انما هو بناء على ما أسسه أهلها ٠

ولذا كنا نأخذ جانب الشرق اليوم ، فلأننا منذ بزوغ فجر الاسلام دخلنا فى رحابه واستعربنا وساهمنا فى تاريخ الاسلام وحضارته بأوفر نصيب ، وأصبحنا ـ منذ زمن طويل ـ جزءاً من الامة العربية المجيدة ، وتقاسمنا مع اخواننا العرب حلو الحياة ومرها ، وقدنا صراع العرب والمسلمين ضد الصليبيين والمغول ، وأصبحنا نعد انفسنا مشارقة كسائر اخواننا العرب ، تجمعنا معهم أمجاد الماضى وصراع الحاضر وآمال المستقبل ٠ ثم ان التقسيم الى شرق وغرب أمر آن أن نتخلى عنه ، لأنه لا معنى له جغرافيا ولا حضاريا ، فكل غرب بالنسبة لبلاد انما هو شرق بالنسبة لبلاد أخرى ، ثم ان شجرة الحضارة انسانية عامة ، لا هى شرقية ولا هى غربية ٠

ورسالة مصر الحقيقية ـ اذن ـ ليست رسالة الشرق أو رســـالة الغرب ، بل رسالة الانسانية كلها ، وهى اليوم تعمل جهد طاقتها ، فتأخذ من الغرب قدر حاجتها وتعطى الشرق أقصى ما تستطيع ، وهى لا تعطى لهدف أو غاية ، بل لأن هذه هى طبيعة رسالتها فى هذا الوجود ، بل هى فى الغالب تعطى دون أن تدرى ، كما تطلع الشجرة الثمر الشهى ، لأن الأثمار وظيفتها فى الحياة ٠

وقولنا اننا شرقيون انما هو موقف سياسى ســـاقتنا اليه ظروف التاريخ ووضـــعتنا فيه أحوال الســـياسة العـــالمية الراهنـــة ، فنحن شرقيون لأننا جزء من أمة العرب ، وأمة العرب شرقية فى أصـــولها ، ونحن شـــرقيون لأن غالبية أمم الشـــرق فى مثل ظروفنا : تخلصـــت

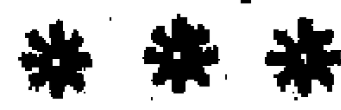
من لعنة الاستعمار السياسى العسكرى الصريح وبدأت معركتها من الاستعمار الجديد ـ النيوكولونياليزم ـ وهو استعمار مقنع يتلخص فى استغلال أوضاع بلاد الشرق التى اخر الاستعمار نموها العلمى والاقتصادى ، وارغامها على السير فى ركابه ، واطلاق يده فى خيرات بلادها ومنابع ثروتها ، واستنزاف أموالها أولا بأول حتى لا تتخلص من ربقة الفقر ابدا ، ومع الفقر تأتى لعناته : الجهل والمرض والضعف السياسى والعسكرى ·

وهذه كلها لعنات يريدها لنا الغرب ليظل سيد الأرض وماعليها ومن عليها ، ولا تصدق غربيا يزعم لك انه يريد خدمة الشرق حتى ولو كان اسم ذلك الرجل البرت شفايتسر ، الذى يقال انه انفق حياته فى خدمة الافريقيين، وما فعل فى الحقيقة الا خدمة بنى قومه بادخال من استطاع من أهل افريقيا فى تبعية الغرب دينيا وحضاريا · والبرت شفايتسر كان طبيبا ، ولكنه كان قبل كل شىء مبشرا دينيا ورجل استعمار غربى ، وليس له أى نصيب فى تحرير شعوب افريقيا ·

وأسوأ ما يفعله أولئك الرجال هو التبشير بمذاهبهم المسيحية ، لأن المبشر يسعى الى خلق اقلية مسيحية وسط اكثرية غير مسيحية ، وهو اذ يفعل ذلك يفصلها عن قومها ويجعلها اقلية ·وهم لم يكونوا قبل ذلك اقلية، انما كانوا جزءا من شعوبهم أو قبائلهم · والأقليات فى اى بلد من بلاد الدنيا فى وضع غير سعيد ، اللهم الا اذا كانت اقليات أصيلة مثل اقباط مصر الذين احتفظوا بعقيدتهم ، فى حين انتقلت الأكثرية الى الاسلام ، فنحن هنا لسنا امام اقلية ، بل امام مصريين كغيرهم ، وهم أهل بلد ومواطنون لم يفصلهم أحد عن جذورهم ، ولكن تأمل التعاسة التى الحقها التبشير بشعب الزولو الذى أصبح اليوم مفروضا عليه أن يكون اقلية فى بلاده التى تنتمى الى الغرب لا الى أوطانها ، وانظر ما يفعله المبشرون بالنيوير فى السودان الجنوبى ، وما يزرعه المبشرون فى قلوبهم من العداوة لبقية أهل السودان ، أو انظر الى الابيو فى نيجيريا ، فهم تعساء بما زرعه المبشرون فى قلوبهم · وهذا كله من فعل المبشرين · وهذا لا ينطبق على الاسلام ، فان الاسلام لا يعرف التبشير ، ولم يكن للمسلمين ابدا تنظيم دعاية ، وانما هم المسلمون يدخلون البلد ويمارسون ديانتهم فيعجب بها من يريد الله هدايته من الناس ، فيدخل فى دينهم دخولا طبيعيا دون أن تكون وراء ذلك غايات مرسومة أو سياسات مدبرة ، واهتمام المسلمين اليوم بالدعاية لا يقصد من ورائه خلق اقليات سياسية ، بل تنظيم دخول الناس فى الاسلام ، حتى لا يدخلوه على يد مشعبذ أو جاهل لأننا نقول ان الاسلام هو دين الفطرة ، وان الهدى هدى الله · ومن أسوأ ما يفعله الأمريكيون فى اندونيسيا اليوم هو التبشير هناك بالمسيحية ، فهم اذ ينقلون مسلما الى المسيحية يفصلونه عن قومه وحضارته ويجعلونه اجنبيا فى بلده · ومع الزمن ستكون هناك اقلية مسيحية فى اندونيسيا ، وستعانى

ما تعانيه الأقليات من غربة فى وطنها وتبعية لغير وطنها ، وهذا خطر انتبه اليه حكومة أندونيسيا ، لا بدافع الدين بل بدافع الحرص على مستقبل أندونيسيا ، وأحب أن أؤكد أن كل مبشر جاسوس لقومه ودسيس سياسى فى النهاية حتى لو كان اسمه الأخت تيريسا التى تنفق عمرها فى خدمة المساكين من الهنود وادخالهم فى المسيحية فى بومباى ، وربما كانت نيتها هى سليمة ، ولكن الفاتيكان وهو دولة خطـــيرة ، لا يرى هذا الرأى ، والأخت تيريسا ربما لا تشعر بذلك ، ولكن رجال الفاتيكان قطعا يعرفونه ويحـــاولون جنى ثمرات جهودها ، وهذا هو البابا يوحنا بولس الثانى يفرض زيارته على الهند فرضا ، وهو يعرف أن الناس يستقبلونه كارهين ، ولكنه يصر على الذهاب .

وقد آن أن نفرغ من حكاية الدعوة الى الأديان على أساس التفاضل ونحن المسلمين يقول قرآننا : (ن عليك الا البلاغ) أى تعريف الناس بديننا ، أما الهدى فمن الله ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، وهذه حكمة وضعها بارىء الكون ، فلماذا نريد نحن أن نخالف حكمة الله ونجعل الناس أمة واحدة بالعنف أو الحيلة أو الدعاية أو التستر وراء المستشفيات أو مراكز العلاج . وبرنارد شو وكان من اكثر الناس صراحة قال : ان الانجليز يستعملون الدين أداة استعمار : يرسلون القس ليدعو بالمسيحية بين البدائيين فيقتلونه فيكون هذا ذريعة لغزو البلاد واحتلالها . وتأمل والله الحصاد المر الذى يعانيه اهل لبنان نتيجة لبذور جماعات التبشير ما بين فرنسية وامريكية .



وانه لمن مفاخرنا ومفاخر اخواننا العـــرب اننا كنا من أوائل من تصدى للاستعمار الأول وتنبه للاستعمار الثانى وخضنا المعركة معهما ، مما زاد فى نقمة الغرب علينا ، وهى نقمة تكلفنا غاليا ولكنها لا تخيفنا ، فهى ليست الأولى ولن تكون الأخيرة ، ونحن — كما قلنا — بنو الدنيا من ألوف السنين ، نخوض معارك الحياة غير هيابين لا تروعنا هزيمة ولا يخيفنا عدوان ، لأننا نؤمن بأنفسنا وببلادنا ، والنصـــر لنا — باذن الله — طال الزمن أو قصر .

وبعد هذا كله ، فقصارى القول فى أمر وضع مصر الحقيقى بين العالمين ، انها اشبه بالشجرة المباركة التى ذكرها الله — سبحانه وتعالى — فى سورة النور : فهى لا شرقية ولا غربية .

ولعل هناك من يسأل : افنأخذ الحضارة الراهنة على علاتها ، ونعمل على نشرها لأنها حضارتنا ؟

والجواب عن ذلك ، أن لحضـــارات البشـــر جوهرا ومظهرا ، فالحضارة الاسلامية مثلا جوهرها التوحيد والعدالة والمساواة وكرامة الانسان واجلال العلم واتصال المخلوق بالخالق - وهو المثل الاعلى - دون وسيط ، وأما مظهرها فالملابس والمساجد والعادات والتقاليد . فأنت تستطيع أن تكون مسلما دون أن تلبس العمامة ، وتستطيع أن تصلى دون مسجد ، وتستطيع أن تكون مسلما دون ان تعرف العربية ، وأنت قد تلبس العمامة الضخمة وتصلى فى مسجد يرفع سقفه الف عمود ولا تكون بعد ذلك مسلما صادقا .

العبرة فى هذه الناحية بالجوهر ، وما يعنينا فى الحضارة الراهنة هو جوهرها ، وهو انسانى سليم عملى تقدمى لأنه علمى ، شاركت فيه أمم الشرق كلها بنصـيب ، اما ما اضـــافته اليها بعض امم الغرب من أساليب الاستعمار ، وما أضافته أمم غربية اخرى من ولع بالاستمتاع بالحياة ، وانانية وجشع شديدين ، وجنون السيادة ، وما اضافه الأمريكيون من تفنن فى اساليب جمع المال واستعماله اداة للسيطرة على الأمم ، فهذه كلها اعراض تصور الجوانب الضعيفة من نفوس تلك الأمم ، ومن الخطأ ان نعتبرها هى لباب الحضـــارة الغربية ، وأن نعتبر المظهر جوهرا . وأولئك الذين يصيحون فينا : ان حضارة الغرب رقص ومخاصرة ومعاقرة بنت الحان ، انما هم مخدوعون أو خادعون ، لأن هذه كلها اعراض بعيدة عن الجوهر ، واذا صدق هذا على تلك الحضـــارة ، فهو يصدق على حضارتنا ايضا ، فقد كان فيها ايضا رقص ومعاقرة بنت الحان .

هؤلاء جميعا ينبغى أن يعلموا أن الحضارات من صنع البشر ، وأن البشر ليسوا ملائكة ، وليسوا شياطين ، وانما ركب الله فى طباعهم الخير والشر بحسبان قدره علمه الواسع ، وهو قد أودع فى الانسان شيئا من الشر لأن الانسان يحتاج فى كفاحه الى نصيب من الشر يتقى به الأذى ، وسبحان من خلق هذا الكون وبرأ الانسان ليعيش فيه بالخير والشـــر معـــا .

وأولئك الذين يدرسون الحضارات ينبغى الا يغفلوا عن ذلك أبدا ، وينبغى ان يعلموا ان كل ما صدر عن الانسان لابد أن يكون فيه من هذا وذاك ، والعبرة بعد ذلك بالاختيار والانتقاء ، ونحن لا ندع زراعة الأرض ، لأن زارعها يتعرض لبعض الأمراض ، بل نزرع ونتوقى .

واختم كلامى عن هذه المسألة بخلاصة هذه السطور السالفة كلها ، وهى اننا نحن المصريين ننتمى الى الانسانية جمعاء ، وهى تضم الشرق والغرب ، وحضارتنا هى الحضارة الراهنة التى تسمى غربية لأنها تضم خلاصة تجارب الأمم كلها ، بما فيها امم الشرق .

* * *

واما المسالة الثالثة ، وهي القول بأن « الحضارة الشـرقية ـ والمقصـود بها الحضـارة العربية على وجه التحديد ـ لم تاخذ شيئا عن غيرها ، وانما هي نبتت من تلقاء نفسـها ولا فضـل لأحد عليها ، وانها فريدة في بابها لا تشبهها ولا تدانيها حضـارة أخرى » ، فتحتاج الى شيء من تامـل واسـتدراك • وقد ناقشـت بعض نواحي هذه المسالة فيما سـلف ، واثبت ان الحضـارة العربية ، كأي حضـارة اخرى ، لا يمكن ان تطفر من تلقاء نفسـها ، كأنها شـهاب هبط على الأرض من كوكب بعيد •

وهذا القول غير جائز في طبائع الأشـياء جملة وتفصـيلا ، لأن الحضـارة هي تجارب البشـر وأجيالهم ، يتوارثونها جيلا بعد جيل ، وقد اقام العرب مملكتهم في عالم متحضـر كان يتالف من شـعوب سـاهمت في بناء صـرح الحضـارة الانسـانية ، فورثوا ذلك واقاموا عليه ، ونفخوا في كيان هذه الأمم نفسـها روحا جـديدا جـددد من نشـاطها ووهبها مثلا عليا جديدة لتسمى اليها ، ومن ذلك كله تكونت ذخيرة الحضارة الاسلامية : فهي مدينة لغيرها ، وغيرها مدين لها •

ونحن اذا قلنا انها قائمة بذاتها لم تاخذ عن غيرها شـيئا فنحن نظلمها ولا ننصـفها ، لأن الانسـان انسـان بقدر ما ياخذ من الناس ويعطيهم ، واما المتابد في الفقر لا ياخذ ولا يعطي فلا فضل له على احد ، وليس هو بالرجـل الذي ينفع الناس او الذي يعـولون عليه ، وكذلك الامم ، لا تمتدحها بقولك انها لم تاخذ من الناس شـيئا ، وان الناس يعيشون على فتات موائدها •

وانما القول الصـحيح أن هذه الحضـارة العربية ـ كغيرها من حضـارات البشـر سواء بسواء ـ اخذت واعطت ، وورثت وورثت ، فيها ما ينفع البشـر اجمعين ، وفيها ما يقتصـر نفعه على العـرب وحدهم ـ كأدب المقامة مثلا ـ وفيها ما يضر ، كما ان فيها ما ينفع •

واما القول بان شيئا من اعمال البشر لا يدانيها ، ففيه من الناحية الانسانية استعلاء على البشر مرذول ، وعصبية كثيبة حقيقة بأن تثير العداوات ، وليس من خصال الانسان المهذب أن يتمسك بما يثير العداوات •• ثم ان هناك كثيرا جدا من اعمال البشـر يدانيها ، ومهما يبلغ من تقديرنا لأنفسنا ، فلا ينبغي أن يصل هذا التقدير الى حدود الأنانية او التصور الصبياني للأمور •

وأولئك الذين يتسامون بالحضارة الشرقية الى هذا الأوج المفتعل ، انما يعتمدون على قضية غير سـليمة ، هي اننا روحانيون والآخـرين ماديون ، وأن حضارتنا حضارة الروح وحضارة الآخرين حضارة المادة •

وابسط علم « بما جرى فى التاريخ » — على حد تعبير جوردون تشايلد — يدلنا على أن حضارات البشر اجمعين تكونت من عناصر روحية وعقلية واخرى مادية ، وأن عناية أجدادنا بالمادة لم تقل عن عنايتهم بالروح ، وانهم حرصوا على الطعام الذى يؤكل بقدر حرصهم على الكتاب الذى يقرأ ، وأن الرجل منا ليس بدعا فى تكوينه . وأن فينا من تستغرقه أمور الروح وفينا من تستهلكه شئون المادة . وانَّنا اذا فاخرنا غيرنا بالحسن البصرى ، وابراهيم بن المبارك ، وعمر بن الفارض ، وذى النون المصرى ، ومحيى الدين بن عربى ، لفاخرنا غيرنا بالقديسين أمبروزيو ، وفرنسيسكو الأسيسى ، وتوما الأكوينى ، والقديسة تريسا دخيسوس ، ويوحنا الصليبى . واذا فاخرناهم بابن سينا ، وابن رشد واضرابهما ، لفاخرونا بديكارت وكانت ومن اليهما .

وشعوبنا — كبشر — فيها هواتف الروح ونوازع المادة .

وانما البشر جميعا — شرقيين وغربيين — تغلب عليهم اليوم نوازع المادة ، لا عن انحطاط فى طبع البشر أو عن غلبة العناصر الغربية « المادية » فيما يزعمون ، بل لأن تطور الأحوال على ظهر كوكبنا ينحو بنا جميعا نحو هذا الاتجاه .

ذلك ان البشر تضاعفوا بنسبة لم تكن متوقعة فقلت فرص الرزق أمام الناس ، فبينما كانت الارض براحا امام الزارع.فيما مضى يستطيع أن يزرع منها قدر طاقته ، وحسبه أن يطلق فيها بعض الدواجن والماشية ليعيش فى سعة ، اصبح المقدور له اليوم من ذلك كله شيئا يسيرا ، لابد أن يجتهد فى استغلاله الى اقصى حد ، ولابد ان يعمل من البكور الى الغروب حتى يطمئن على رزقه ورزق عياله ، وينبغى أن يحسب حساب كل بيضة أو حفنة من دقيق أو اثارة من لبن ، حتى يستطيع أن يعيش .

وبينما كان الأوساط فى المدن فى الماضى قليلين والخير من حولهم كثيرا ، مما يسمح لهم بالتأمل والاستمتاع بندوات الأدب وسهرات المنادمة ، اصبح عددهم اليوم ضخما والاسعار من حولهم غالية ، ولابد لهم من النضال طول اليوم حتى يحصلوا رزقهم ، فلا يتسع وقتهم لأدب أو مطارحات شعرية أو منادمات ، ولا تأذن لهم الظروف بالمكارم وألوان التوسعة التى كانت شائعة بينهم فى الماضى ، وهذا أمر يشاهده كل منا فى نفسه .

والأمر بالنسبة الى الجماعات شبيه بذلك ، فلم يتغير البشر ولم يفسد طبعهم ، وانما تغيرت الظروف من حولهم ، ومع تغير الظروف تغيرت الاهتمامات .

ثم ان العلم والصناعة غيرا وجه الحياة ، فكثرت المخترعات والمبتكرات وجدت أجهزة وأدوات لم يعرفها الناس فى الماضى ، وانتشر العلم بين الناس وتفتحت ابواب المدارس والجامعات للناس اجمعين ، فطمح الجميع الى المراكز العالية والعيش الرخى وطلبوا أدوات الحضارة الراهنة من سيارة وثلاجة ومذياع وتلفاز واشياء اخرى كثيرة ، فتزايد الطلب عليها واشتد اجتهاد الناس فى الحصول على المال لشراء هذه الأدوات ، فاتجهت الحياة كلها وجهة مادية غالبة ‥ فاين هذا من الحياة البسيطة فيما مضى ، عندما كان الطعام يطبخ على موقد حطب ، والماء يوضع فى قلة ، والطعام يؤكل على خوان خفيض (طبلية) ، فكان المال اليسير يغطى مطالب الحياة ؟

هذا ما يجعل بعض الناس ينظرون الى الماضى فى حسرة ، حاسبين ان زمان الخير والفضيلة قد ولى ، وما ولى قط ولكن الدنيا تغيرت وتقدمت واخذت وجهة أخرى ٠

ثم ان الانسان مضطر الى مسايرة ذلك التطور والقيام بكل تكاليفه ، لا لأن قانونا يقسره على ذلك ، بل لأنه لا يستطيع الا المضى فى ذلك الطريق ٠ فهب ان رجلا منا أراد ان يستغنى عما استحدثته الحضارة من وسائل أعداد الطعام وأراد أن يعود الى تهيئة طعامه فى القدر يضعها فوق موقد الخشب ، فاين له الخشب ؟ واين له الخادم التى تقوم على نظام الموقد ؟ واين له البيت الذى يستطيع أن يسود حيطانه بالدخان كيف شاء ؟

وهذا مثل تستطيع أن تقيس عليه ٠

فنحن نعيش فى عالم قد تغيرت ظروفه ، وتغير سلوك الانسان فى هذه الظروف ٠ وليس معنى ذلك حتما ان طبع الانسان قد فسد ، أو اننا نعيش فى عصر مادى يوجه أموره نوع من البشر تغلب عليهم نوازع المسادة ٠

فلا محل للابتئاس ، ولا موضع للتشاؤم ٠

وليس من صالحنا ابدا ان نتخذ من ظواهر الامور حججا نستند اليها فى القول بعصبية لا معنى لها ، وترديد انشودة تضر ولا تنفع : انشود الشرق الروحى والغرب المادى ٠

لأننا اذا اردنا ان نقدم لأنفسنا ولأولادنا فلسفة صالحة تنفعنا وتنفعهم فينبغى أن تكون هذه الفلسفة صحيحة لا زائفة ، وهى لا تكون صحيحة الا اذا قامت على مقدمات سليمة تطابق الواقع ،

والا كفر بها من انار الله بصيرته من الابناء ، وعاش أسير أوهامها من ختم الله على قلبه ، فلم ينتفع بها هذا ولا ذاك .

* * *

وانتقل بعد ذلك الى القضية الرابعة التى تقول بأن « هذه الحضارة العربية هى اصل كل حضارة اخرى ، وأن العالم لم يضف اليها شيئا الى الآن ، بل انه افسد بعض نواحيها » .

فاما انها اصل لكل حضارة ، فقد عرضنا لذلك فيما سلف بما فيه كفاية ، واما أن العالم لم يضف اليها شيئا الى الآن ، فزعم استحدثه نفر ممن يحسبون أن المبالغات تزيد الحق بيانا والحجج قوة ، غير عالمين أن ذلك الأسلوب يضعف القضايا ويلقى فى النفوس شكا فى قيمتها .

وهم يحسبون أن الايمان بحضارتنا وحقوقنا لا يستقر الا اذا شددناه بأمثال هذه الأقوال ، وهو امر لا تحمد مغبته ، لأن سامع هذا الكلام لا يلبث أن يرى من واقع الأمور ما ينقضه ، فيعسر بعد ذلك حمله على الايمان بشىء . وهو فى ذاته أمر خطر ، لأن الشعوب اذا فقدت الثقة فيما يلقى اليها من القضايا ، دخل نفوسها الشك فى كل شىء ، وأصبح من العسير ردها الى الايمان بالمبادىء السليمة والكرامة الانسانية ، وهو أمر لا يستقيم معه أمر جماعة انسانية .

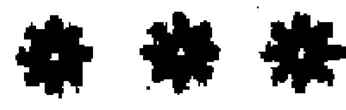
ولقد فسد أمر مصر القديمة عندما فقد الصفوة من أهلها الايمان فى كهانها ، بسبب اسراف أولئك الكهان فى عصور الاضمحلال فى الدعوة لآلهتهم . وحدث مثل هذا للاغريق بعد القرن الخامس قبل الميلاد ، عندما أوغل الشك فى قلوب الناس من ناحية السياسة ورجالها ، بسبب اسراف هؤلاء فى الوعود والتهاويل . وهذا أيضا هو الذى اجتاح أوربا خلال القرن السابع عشر نتيجة لاسراف رجال الدين فى الحديث عن القديسين والأحبار والبابوية ، وقد سخر فولتير من تلك الروح فى قصته اللطيفة « كانديد » .

وليس أسلم فى مثل هذه القضايا من ان نقرر الواقع ، فان الواقع أقوى الحجج .

ونحن اذا ذهبنا نقول ان العالم لم يستحدث بعدنا شيئا ، وان الطائرة اشار الى فكرتها ابن فلان ، والقاطرة ذكرها ابو علان ، والنظرية الذرية نجدها بحروفها عند الفلانى ، لم يلبث الناس أن يتخذوا من تلك المذهب منا مادة فكاهة . وخير من ذلك أن نصل بالأمور الى مداها المعقول ، وندعها هى تدعو لنفسها بنفسها .

ومن مخاطر الدعوات أن يلجأ اصحابها الى ما يلجأ اليه محدث النعمة الذي يملك القليل ، فلا يكف عن الحديث عنه ، فيركبه الناس بالسخرية ، أو المفتون بأبيه أو جده ، فلايزال يتحدث عنه حتى يسأم الناس حديثه ، أو الشكاك في أصالة نفسه ، فلايزال يلتمس لنفسه الأحساب ينمقها ويزوقها ، على مثال شجرات الأنساب التي كانت تباع وتشترى • أما صاحب النسب الصريح فقلما يتحدث عنه ، وهو اذا ذكره لم يحاول انكار ما عسى أن يؤخذ على بعض اجداده ، ثقة منه في نفسه وفيهم •

ونحن لا يصدقنا أحد اذا قلنا ان أحدا لم يضف الى ما وصل اليه أجدادنا شيئا ، لأن الناس كلهم يرون أن البشر أضافوا بعدنا كثيرا ، وها نحن نأخذ عنهم العلم ومذاهب الفكر ، ثم ان الناس يرون أن الذين أتوا من بعدنا لم يفسدوا شيئا من نواحي حضارتنا الماضية ، وانما هي بلغت الحد الذي قدر لها أن تبلغه ، ثم كلت قواها ، شأنها في ذلك شأن غيرها من حضارات البشر ، وتلك سنة البشر مع العمران منذ بدء الخليقة ، فلا يقلل من شأننا أننا وقفنا عند حد بعينه ، وليس لغيرنا أن يفخر علينا بأنه سار من حيث وقفنا •



والمسألة الخامسة التي أعرض لها هنا ــ وهي آخر ما أمر به في سياق تحديد علاقتنا بحضارة الغرب ــ هي قولهم اننا اذا كنا نريد أن نعيش ، فواجبنا الأول هو القضاء على كل اثر من آثار الحضارة الحديثة في بلادنا ، وتنقية حضارتنا العربية والعودة بها الى جوهرها السليم الصافي الذي كانت عليه •

وهذا الزعم نادت به جماعات من السلفيين الذين أحسوا في انفسهم العجز عن مواجهة الحاضر ، فهرولوا الى الماضي ليدفنوا رؤوسهم فيه •

وغالب أولئك من طلاب المجد عن طريق جهاد الكلام وشقشقة اللسان ، أو طلاب السلطان عن طريق تضليل الناس وخلق الأوهام في أذهانهم والتصدي لمحاربتها بعد ذلك •

وهؤلاء جميعا انما يستغلون ناحية العاطفة عند الناس ، وهم يحسبون أنهم يفعلون خيرا عندما يثيرون في قلوب الناس كوامن الحسرات على ما فات ، ثم ايهامهم بأن العودة الى الماضي ممكنة ، وأن السبيل الى ذلك هو اسلام القياد لهم ، وهم يعرفون كيف يقودون أهل القرن العشرين الى عز القرن العاشر •

وقد جنى علينا أولئك الناس جنايات شديدة ، وسيطروا على عقول نفر من الشبان وزعموا لهم أنهم يقودونهم الى المجد ، فلم يقودوهم إلا الى العطب . وقادهم الى المجد الصحيح بعد ذلك رجال صدقوا فى كلامهم وأخلصوا فى جهادهم ، ونقلوا أمم العروبة والاسلام من عالم الأوهام والتضليل وجهاد الكلام الى عالم الحقائق والواقع ، وعلموها ما هو الجهاد الصحيح وما هو العمل المثمر ، فلم تلبث الآمال أن بدأت تتحقق ، ولم يلبث وضعنا العام أن صح ، وأخرجنا المستعمرين من بلادنا وانتهجنا سياسة الانتاج والتعمير والانشاء ، وهى وحدها كفيلة بتحقيق الآمال ، ووصل ما انقطع من تاريخنا الطويل .

وقد وقفت هنا هذه الوقفة الطويلة ، لكى أعبر بالقارىء المصرى فجوة أوجدها نفر ممن لا يتمثلون فى أذهانهم شخصية بلدنا على وجهها الصحيح ، ولا يتصورون - لذلك - اتجاه هذا التاريخ فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل ، ويحسبون أن لا صلة لنا بهذا الغرب ، بل يرون أننا لابد أن نعادى حضارته ونحاربها ، لأنها غريبة عنا منافية لطبيعتنا .

وقد بينت الآن - بالقدر الذى سمح به هذا الحيز - أن هذه الحضارة الغربية انما هى حضارتنا نحن ، وأن أبوتنا لها تفرض علينا اتصالنا بها والاسهام فيها .

بقى أن أضيف بضعة سطور عن حضارة البحر المتوسط ، التى هى أساس حضارة الغرب اليوم :

ذكرت كيف وضعت أسس حضارة البحر المتوسط ، وكيف رسمت لها من بعيد خطوطها الرئيسية . وحضارة البحر المتوسط هذه هى الحضارة الراهنة محسنة مزيدة ، فقد انتقلت من المصريين الى الاغريق ثم الى الرومان ، ثم احتفظت الكنيسة الكاثوليكية بلبابها عندما غزا الجرمان أراضى الدولة الرومانية ، فلما استقرت ممالكهم أخذوا هذه الحضارة عن طريق رجال الكنيسة وأحبارها ، وأضافوا اليها القليل الذى كان لديهم ، ومن هذا وذاك كانت نهضتهم الكبرى التى تسمى بالـ « رينيسانس » - أى الميلاد مرة أخرى - وقد كان الناس يقولون انها بدأت خلال القرن الخامس عشر الميلادى ، ولكن المؤرخين أثبتوا أنها بدأت فى القرن العاشر الميلادى . وقد بعثت هذه النهضة الغرب بعثا جديدا ، ووصلت ما كان قد انقطع من سير الحضارات القديمة . ومضى الناس يبحثون عن تراث الفكر اليونانى القديم فوجدوا جانبا كبيرا منه فى صورته العربية . واستفاقت العقول ونشطت من عقالها ، واتجه الناس الى العلم اتجاها شديدا ، وفتنتهم فلسفة الاغريق وعلومهم وطبهم فتنة بالغة ، فتحدثوا عما سموه بالمعجزة الاغريقية le miracle grec وفى أثناء بحثهم تبينوا أن المعجزة الاغريقية ترتكز على أساس من

حضـــارة مصـــر القديمة فتحدثوا عما ســموه بالمعجزة المصـــرية le miracle egyptien · وقد بســـط الكلام فى ذلك جـــاك بيرين Jacques Pirenne فى كتابه المعـــروف « التيـــارات الـــكبرى للتاريخ العالمى » Les grands courants de l'histoire universelle وفى هذا الـــكتاب ــ الذى يقرأ الآن فى كل لغة كبرى ــ من الحـــديث عن فضل مصـــر على حضـــارة العالم ما يرفع هامة كل مصرى ، وقد اختص حضـــارة مصر بكتاب آخر من ثلاثة اجزاء يسمى Histoire de la Civilisation Egyptienne اتمنى أن يجد من يترجمه الى العربية ليعمق احساس المصرى ببلاده وبقدرها فى التاريخ ·

وإذن فهذه الحضارة الأوربية التى نراها اليوم انما هى حضارة البحر المتوسط ، التى وضعنا نحن اسسها فى الأعصر القديمة ، واسهمنا فيها فى الأعصر الوسطى بما قمنا به فى ظل الاسلام ، فكيف يقال لنا انها حضارة غريبة عنا وأننا غرباء عنها ، وانها تتعارض مع طبائعنا وجوهر تمدننا ؟ ·

ولقد رأيت مرة رجلا يتهكم على صاحب له لأنه يأكل على خوان بالملعقة والشـــوكة والسكين ، ويقول له ان هذه فرنجة لا معنى لها ، وان الخير فى العودة الى « البلدى » والأكل بالاصـــابع على الطبلية ، فهذه طريقة الأجداد وهى مبروكة ، و « من فات قديمه تاه » ، فقلت له : اخطأت يا هذا مرة بعد مرة ، فان اجدادنا الفراعنة كانوا يأكلون على الخوان ويســتعملون الملعقة والســـكين ، اما الأكل بالأيدى على الأرض فقد ارتقوا عنه ، فطريقة الأجـــداد اذن هى تلك التى تعتبرها أوربية وتنهى صـــاحبك عنها ، ثم ان الأكل بالأيدى قذارة ومضـــرة بالصـــحة ، والأكل على الأرض يجعل المعدة فى وضع غير مريح ، فهو ضـــرر خالص ، وهو من اكبر اســـباب تدلى الكروش والافراط فى السمنة وترهل الجسم ، وكلها مقاتل ، فكيف تنصح صاحبك بها ؟

وكيف تقف حدود رســالتنا عند ابواب هذه الحضـــارة ؟ كيف لا نعتبر انفســـنا من بناتها ومن المســـئولين عن مصـــايرها ؟ وكيف لا نقوم بنصيبنا فى قيادتها ؟

أن مصر التى انشأت هذه الحضارة ، واســـهمت فى حضـــارة الشـــرق بأوفر نصيب ، وجاهدت فى سبيل حضـــارة افريقية ، لا يمكن أن تقصـــر رســـالتها على جانب دون جانب من هذه العوالم ، وموقعها نفســـه يملى عليها ذلك ، فهى ميزان هذا العالم القديم ونقطة ارتكازه وملتقى قاراته الثلاث ، وواجبها حيالها كلها واحد : واجب الاب نحو الأبناء ، ورسالتها فيها كلها واحدة : سلام وعرفان ·

وكلما تقدم الزمن ضاقت رقعة الأرض بالبشر ، وزاد صراع الأمم على الوطن ، وانتاب الناس جشـــع بغيض جعلهم يشرهون الى أرض الآخرين ، وأصبحنا نرى الآن صـــورا من العدوان على أوطان الناس لا توصف الا بأنها جرائم ، وأكبر مثل لذلك عدوان الصهيونية العالمية على أرض فلسطين ، تؤيدها قوات الاستعمار التى لا تتخلى أبدا عن طبعها البغيض فى سرقة أوطان الآخرين ، أو امتصاص خيرات بلادهم وتحويلهم الى أجانب فى بلادهم ، أو طبقات دنيا فى أراضـــيهم ، كما ترى فى جنوبى افريقية ، حيث تصر فئة ضئيلة من الأجانب على سيادة البلاد وحكمها بالقوة ، واعتبار المواطنين الأفريقيين الأصليين طبقة دنيا من أهل البلاد ، لا حق لهم فى أكثر من العيش الكفاف ، كأنهم عبيد أو رقيق أو أدنى مقـــاما ٠٠ !!

أما الصهيونيون ــ وهم فئة باغية من يهود العالم جمعت مالا عريضا ووصلت الى سلطان كبير فى الكثير من بلاد الغرب ، وأرادت أن تستغل المال والسلطان فى الحصول على وطن ، وما هم بحاجة الى وطن ، فان بلاد الدنيا كلها لهم أوطان ، ولكن المال والسلطان أحيانا يقتلان الضمير ويعميان البصر ــ فاستعانوا بانجلترا أولا ، ثم ببعض بلاد أوربا ثانيا ، ثم بأمريكا أخيرا ، فى اغتصاب أرض فلسطين وتشريد أهلها ، واحلال يهود يأتون بهم من نواحى الأرض محلهم ٠

وتحت بصـــر الدنيا كلها شرعوا فى جريمتهم ، فاحتلوا الأرض بالسلاح والغدر والخديعة ، وانشأوا ما سموه باسرائيل ، وحسبوا أن الجريمة تنفع ، وأن العدوان يعطى حقا ، وأن السارق يصبح صـــاحب البيت ، ولكن هيهات ! فمادامت أمة العرب واعية لحقهـــا ، متمســـكة بأوطانها ، مضحية فى سبيلها بالروح ، ففلســـطين عائدة لأهلها وأهلها عائدون اليها مهما طال الزمن ، ومهما فعل الصهيونيون وأحلافهم ، فان الباطل لا يصبح حقا أبدا ، والعدوان لا ينشىء وطنا ، و « يحق الله الحق ويمحق الباطل » ٠

وهذا الكلام لا يتناقض مع ما تراه من صلح مصر مع اسرائيل فهو صلح وقعناه بعد حرب منتصرة ، وهو صلح يحمى حدودنا فى الشرق ولكنه لا يبرر احتلال الصهيونية لأرض فلسطين ٠

هذا استطراد لابد منه فى هذا الموضع ، لأن مأساة فلسطين مثال رهيب وعبرة كبرى ، وهى درس لكل عربى وكل مصرى ، يبصره بما يمكن أن يحيق به اذا هو أهمل فى حق وطنه ، وتهاون فى واجبه حياله ٠

ولكن انتفاعنا بموقع بلادنا الجغرافى ليس بالأمـــر الهين ٠ فهو ككل شىء قيم فى هذا الوجود ــ له ثمن لابد وان كاملا قبل أن نجنى ثماره ، وهذا الثمن هو الدفاع عنه وذياد الطامعين فيه عن حياضه ، واذ

ذلك أن حكام مصـــر الاســـلامية ـ من الفتح العربى الى أوائل القرن التاســـع عشـر ـ كانوا آسيويين · بعضهم أتى من آسيا واستقر فى بلادنا حاكما ، والبعض الآخر ولد فيها وظل محافظا على آسيويته · صحيح أن الكثيرين منهم تمصروا ، ولكن هذا التمصـــر لم يتعد بعض المظاهر ، ولم يمس الروح الا فى النادر ، لأن الأمور فى مصر وسائر العالم الاسلامى كانت من القلق بحيث لم تسمح لأولئك الحكام بأن يتشربوا روح البلد الذى استقروا فيه وقاموا على مصايره ·

وقد تعاقب حــكام العرب ـ فى عصـــر التبعية للخلافتين الأموية والعباســـية ـ فى ســـرعة حالت بينهم وبين أن يتأثروا مجرد التأثر بهذا البلد ، ثم بدأت الدول المستقلة ، ومعظمها قصير العمر قليل القوة بحيث لا نستطيع أن ننتظر منه شيئا ، ولم ينفسح الأجل الا لواحدة منها ، هى الفاطمية ، قد حكمت مصر ٢٠٢ سنة تقاسمها فيها فيما بينهم احد عشر خليفة ، لم تستقر الأحوال الا للثلاثة الاول منهم ، وهم المعز والعزيز والحاكم ، ثم بدأ القلق والخوف والاضطراب الذى لم يســـمح لخلفاء الفاطميين بالتأثر بطبيعة بلادنا ·

ومثل هذا يقال عن الايوبيين : فقد شغلتهم أمور الحرب الصليبية والأخطار المتوالية عن النظر فى أمور مصر بعيون مصـــرية · وكذلك المماليك : لا نستطيع أن نعتبر حكمهم عصرا واحدا او عصرين ، وانما هو عصور متلاحقة قام على توجيه سياسة مصر خلال كل منها سلطان لا يختلف فى الغالب عن سابقه فى المزاج والتكوين والاتجاه ، بل فى الجنس ·· ولم يتأثر أولئك المماليك فى مجموعهم بمصر الا على نحو ضئيل جدا لا يكاد يذكر · فقد أراد لهم الحظ السيىء أن ينهجوا فى حياتهم العامة والخاصة نهجا غير سليم ولا انسانى ، وما رأيك فى ناس كانت حياتهم كلها فوق ذلك التل القاحل الذى هو جبل المقطم ؟ هناك ـ حول قلعة صلاح الدين ـ أنشئوا معسكراتهم المعروفة بالطباق وبيوتهم · وكان الماء يصل اليهم على سقاية عالية تأخذ الماء من النيل ويرفع اليها بواســـطة سواق بعضها فوق بعض لازال موضعها يعرف الى اليوم « بالســـبع سقايات » فى مدخل مصر القديمة · وكان الطعام يحمل اليهم يوميا من الوادى كأنهم جيش محاصر ! هذا والوادى من تحتهم اخضـــر زاهر ، والناس حضر فيهم أنس وبركة ، ومع ذلك فقد ظلوا حياتهم بعيدين عن الناس وظل الناس بعيدين عنهم ، لا الناس متأثرون بهم ولا هم متأثرون بالناس · والواحد منهم يؤتى به صـــبيا ، فينشـــأ كاليتيم ، يربيه مملوك عجـــوز لا يعـــرف غير العصـــا ، ويقضون حياتهم كالزنابير فى عش ، لا هى تألف ما حولها ولا ما حولها يطمئن اليها · ولهذا فقد ظلوا تاريخهم كله أغرابا عن مصر وأغرابا بعضهم عن بعض ·

ثم كان الاتراك العثمانيون ، وهم خاتمة المطـــاف • ونهاية هذا الخيط الطويل من اولئك الآسيويين • ولقد عاش ولاة الاتراك وجندهم فى مصر ما قدر الله لهم أن يعيشوا ، دون أن يقبســـوا حتى لغة البلاد ، فكيف نرجو ــ وهذا حالهم ــ ان يأخذوا عنا او يتأثروا بنا او يتعرفوا الينا ؟

وليس هنا موضع تحليل سياسات اولئك الحكام اجمعين ، ولكنه موضع الاشارة الى حقيقة واحدة هى التى تعنينا هنا : هى ان أولئك الناس جميعا اقاموا فى مصر ما اقاموا ، وعيونهم مثبتة نحو الشرق ، نحو آسيا ••

كان همهم جميعا موجها نحو جناحنا الشرقى ، وظلت اهتماماتهم آسيوية • ولقد انفق احمد بن طولون على بلد مثل طرسوس اضعاف ما أنفق على القاهرة نفسها ، واستنفد جزءا كبيرا من قواه فى التنافس مع رجل كابن رائق • وقضى الايوبيون والمماليك معظم أيامهم فى الشام ، ولقد كان ذلك ضروريا لتأمين مصر من الأخطار من هذه الناحية ، ولكنه شغلهم تماما عن الاتجاهات الأخرى التى ينبغى أن تشـــغل حاكم بلد كمصر ، يقوم وسط الدنيا : له شرق وغرب وجنوب ، كلها فى حاجة الى التفاتة وعناية ، وشماله بحر هو من بناة حضارته ، وله فى مصايره كلمة يقولها • شغلهم الاستغراق فى الناحية الآسيوية عن جبهات مصر الأخرى : الجبهة الأفريقية وهى ذات شقين : واحد فى الجنوب وواحد فى الغرب ، وشغلهم عن جبهة البحر المتوسط ، فانصرفوا عنها تماما ، وضاعت علينا بذلك ميزات ذلك الموقع الجغرافى الهام ، ولم نجن من خيراته شيئا ، بل تعرضنا بعد ذلك لعواقب اهماله ، اذ نهضت الامم على سواحل ذلك البحر ونحن فى سبات عميق ، وافقنا آخر الأمر فاذا اقوام من وراء ذلك يطرقون أبوابنا غزاة فاتحين ••

ولكن ، ما السبب فى ذلك الخط غير المصرى الذى سار فيه تاريخ مصر منذ الفتح العربى ؟

لكى اجيب عن هذا السؤال احتاج الى مجلد كامل لأشـــرح لك الانكسار العظيم الذى اصاب تاريخ امم الاسلام ، ولكنى اقول لك بضع كلمات موجزة تتناسب مع حجم هذا الكتاب وموضوعه :

فى أثناء النزاع المحـزن والحــرب الأهلية التى دارت بين على ومعاوية ، فقدت امة العرب طريقها السليم الذى رسمه لها محمد صلوات الله عليه وسار فيه الخلفاء الراشدون •

فقد بدأت الثورة على عثمان رضى الله عنه فى صورة بحث عن الحق ومحاولة لتصـــحيح ما تصور الثائرون انه انصــراف عن الطريق

الاسلامي ، والمناقشات التي دارت بين عثمان والثائرين عليه لم تكن حول الخلافة ومن يستحقها أو لا يستحقها ، وانما كانت حول تصرفاته هو : هل كانت متفقة مع ما سنه الرسول وسار عليه الشيخان أم لم تكن ، أي أن الفتنة بدأت في صورة بحث عن الطريق الاسلامي السليم ومحاولة لاقناع الخليفة بالتزامه ، وهي — من هذه الناحية — ثورة طبيعية بل واجبة ، فان من واجب الأمة أن تناقش أولى الأمر فيها في أمر سياستها ومصيرها ٠

ولكنها لم تلبث أن تحولت الى تصادم عنيف ، كما حدث في كثير من الثورات ٠ واندس في صفوفها ناس لا يطلبون الحق ، وانما هم طلاب فتنة وباحثون عن مكاسب ومغانم ، فاجتهدوا في اثارة النفوس وحولوا الحركة الى عدوان دموي على خليفة جليل ، وفي أثناء هرج الفتنة عدا عليه بعضهم فقتلوه ، دون أن يكون لهذه الجريمة أدنى داع أو أبسط مبرر ، وقد وقع الأمر بغتة والناس أبعد ما يكونون عن تصور امكان وقوعه ٠٠ وماج الناس موجا ، وتهددت جماعة الاسلام مخاطر كبرى ٠

وفي هذه الظروف تمكن نفر من عقلاء الأمة الحريصين على خيرها من مبايعة على بن أبي طالب ، فقامت خلافته وسط زوابع وزعازع ، ولكنها أنقذت جماعة الاسلام من كارثة محققة ٠

وحاول على أن يعود بالأمور الى سيرتها الراشدية السليمة ، فبدأ بعزل الولاة الذين كثرت منهم الشكوى ، وهذا حقه ، فان أبابكر وعمر كانا يعزلان ويوليان دون أن يناقشهما أحد في أسباب ذلك ، فهذا حق الخليفة ولى الأمر المؤتمن على مصالح الأمة ٠

وهنا فوجىء على بأن بني أمية — بقيادة معاوية بن أبي سفيان والى الشام — يعصون أمره ويزعمون انهم أولياء دم عثمان ، والحقيقة أن ولى دم عثمان وأهل دولة الاسلام جميعا انما هو الخليفة الشرعي ٠ واعتز معاوية بقوة الجند الذين كانوا معه ، ووجد على نفسه مضطرا لأن يفرض سلطانه بالقوة ، فانتقل الى الكوفة ، وكانت مركزا من مراكز تجمع القوى ٠ وبدأت الحرب الأهلية بين الخليفة الشرعي ووال متمرد عليه ٠

وتطورت الأمور تطورا سريعا ، من حرب تأديبية يقوم بها خليفة على وال خارج على دولة الجماعة الى صراع حول الخلافة نفسها ، وهذا هو الانكسار الخطير الذي أخرج جماعة الاسلام ودولته عن خطها الطبيعي الذي كان ينبغي أن تسير فيه ٠

بدأت الفتنة اذن بداية طبيعية ومشروعة فى صورة محاسبة الجماعة لخليفتهم على أمور لم يرضوا عنها ، ثم تحول الامر الى نزاع حول الخلافة نفسها أو حول السلطان ، وتشاء الظروف أن يستشهد على فى وسط النزاع على يد مغتال اثيم ، ويخلو الجو لمعاوية فيصبح خليفة بالغصب وقوة السلاح لا بالحق ولا بالاختيار ولا حتى بالتراضى •

وليس هنا مجال الحكم على خلافة بنى أمية وما قامت به من الاعمال وما لم تقم ، فهذا موضوع آخر ، وانما الذى يعنينا هنا أن الخلافة أصبحت ملكا دنيويا — أو عضوضا كما يقال — يفرض على الناس بالقوة ويفرض بالقهر ، ومادام يقوم على القوة فهو لا يزول بغيرها ، وهنا تبدأ قصة التطاحن الطويل حول السلطان ، وتخرج من خلافة تقوم على الحق والاختيار والرضا الى ملك يقوم على القوة والقهر ، أى أن التجربة الاسلامية المجيدة التى بدأت عندما أنشأ الرسول صلى الله عليه وسلم جماعته فى المدينة ، انتهت بكل ميزاتها وخصائصها الانسانية الاسلامية ، وأصبحت لها قواعد اخرى غير العدالة والمحبة والشورى ومكارم الأخلاق او المروءة ، قواعد أخرى هى القوة والعنف والبطش وما لابد ان يتأتى عن ذلك من ظلم وعدوان ، لان الذى يجعل السلطان غايته يستهين بكل شىء فى سبيل المحافظة عليه • وزاد الأمر بلاء أن خلفاء بنى العباس استوحوا قواعد الحكم الساسانى العقيم ، فاعتمدوا على الجند المرتزق ، وحكموا بالرهبة لا بالمحبة ، وساموا الناس بالخوف لا بالاقتناع •

وهذا لا يمنع من القول بانه كان هناك خلفاء او سلاطين من اهل العدل والخير والفضل ، ولكن العدل فى هذه الحالة كان تفضلا منهم على الناس ، لاحقا للناس عليهم كما كان الأمر أيام عمر رضى الله عنه •

ومن خصائص حكم البطش والقوة انه يسير دائما من سيىء الى أسوأ ، لانه يقوم أولا على اخراج الأمة من ميدان السياسة وحرمانها من حقها فى تسيير شئونها ، بل معاقبة من يتطلع الى المطالبة بهذا الحق ، ويعتمد ثانيا على الجندى المرتزق ، والجندى المرتزق فى العادة مغامر لا مكان للضمير فى تصرفه ، وقد انتهى الجند العباسى المرتزق الى اذلال الخلفاء انفسهم ، فأصبح بعضهم فى يد الجند أسوأ حالا من رعاياهم •

المهم لدينا أن الأمة اخرجت من ميدان السياسة وحرمت حقها من المشاركة فى تسيير شئونها ، وأصبحت الأمة عدوا للسلطان ، والسلطان عدوا للأمة ، فلا تعاون ولا ثقة بين الجانبين ، الا فيما تدعو اليه الضرورة التى لا مفر منها •

واذا كان الأمر قد وصـــل الى ذلك الحد فقد حرص الحاكم على الا يشغل رجال الأمة وشبابها فى الخدمة العسكرية ، وهكذا انتهى هذا الطريق السيىء الى حرمان شباب الأمة من شرف الانضمام الى جيوش الاسلام ، وبينما كان عمر يعاقب من يتخلف عن الالتحاق بصـــفوف المجاهدين ، أصبح الخلفاء والسلاطين يحظرون على الأمة حمل السلاح ٠

وهذا ينطبق على كل البلاد الاسلامية : هكذا كان الأمر فى دول العراق وفى الشـــام وفى مصر وفى المغرب والاندلس وفى كل نواحى دولة الاســلام - فى كل هذه البلاد أصـــبح الحكم وكأنه كرة يتبادلها ناس محترفون لهذه اللعبة السياسية الســيئة ، غالبيتهم العظمى أجانب أو يعتبرون أنفسهم أجانب أو غرباء ، يقضون عمرهم بين جندهم وحواشيهم وخدمهم ونسائهم ، ويشاورون فى أمور الدولة الخدم والرقيق ومن هم فى مستواهم ، ولا يستشيرون ـ الا فى النادر ـ أهل العلم والفضل والمروءة ، واذا فعلوا ذلك كان تفضلا منهم وشيئا نادرا يســجله المؤرخون كأنه عجيبة ٠

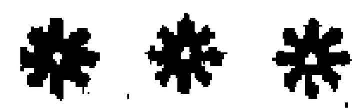
وشيئا فشيئا فقدت الأمة احساسها بأن الحكم من حقها وأنها لابد أن تشـــارك فيه ، وأصـــبح الطبيعى أن يكون الحاكم انسانا غريبا عن الناس لا يعرفهم ولا يعرفونه ، بل جاء وقت أصـــبحت فيه أســـماء حكامهم غير عربية ، من أمثال بغا ويلبغا وخمارويه وأونوجور وبيبرس وقلاوون وأنر وأرتق وسنقر وخوشقدم وقنصوه وباغيسيان وسقمان وهم الزمان ٠

وانتهى المطاف بأن صار الحكم فى يد المملوك الذى اشترى بالمال ليخدم الدولة فأصبح سيدها ، وكان ذلك الانتقال طبيعيا ، لأن صاحب السلطان ـ فى أنانيته وكلبه على الحكم ـ استعان بالمملوك على اذلال الأمة ، أى أن المملوك أصبح أداة السلطان وعماده ، وعندما تنبه المملوك الى ذلك فطن الى أن السلطان نفسه عالة عليه وزائدة لا لزوم لها ، فالغاه وحكم بنفسه مباشرة ٠

ولم يكترث أحد لذلك ، فهذا غاصب ظالم وذلك غاصب ظالم ، ثم ان الأمة عندما حرمت من حقها فى ممارسة الحكم فى بلادها فقدت نتيجة لذلك أدوات هذه الممارسة ، فأفرادها لا يتلقون أى تدريب عسكرى ولايملكون سلاحا ، وليست لديهم أى مؤسسات أو تنظيمات يصلون عن سبيلها الى هذه المشاركة ، والدول ينبغى أن تقوم على مؤسسات institutions لا على أفراد ، وقد خلت نظمنا السياسية الماضية من المؤسسات السياسية خلوا تاما ، بل لم يكن فى أى منها حتى مجلس عرش ، وأقل المؤسسات السياسية شأنا أبرك للأمة من أعاظم العباقرة ، وبدون مؤسسات لاثبات ولا تقدم ٠

ولقد كانت فى فرنسا فى عهد الملوك مؤسسة شكلية تقريبا هى مجلس الطبقات ، كانت مجرد مجلس استشارى للملوك ، ولكن الثورة الفرنسية كلها ولدت فى هذه الجمعية الوطنية • ولعلك تذكر ان الحــركة القومية المصـــرية ولدت ميلادها الحقيقى فى مجلس شورى النواب ، وهو كان مجرد مجلس اعيان ، ولكنه كان مؤســـسة على اى حــال ، ولابد من مؤسسات ونظم حتى تتحرك عجلة الاصلاح والتقدم •

كان لابد من هذا الاستطراد حتى تفهم السبب فيما وصــلنا اليه خلال العصور الوسطى ، وحتى تعرف أن امتك غير مسئولة عما يقال احيانا من ان الأجانب كانوا يحكمونها طوال العصور الوسطى ، او ان المصرى لم يساهم فى جيوش بلاده الا فى العصر الحديث • فقد فهمت الآن أن ذلك كان امرا لا ذنب لنا فيه ، وكان امرا عاما جــرى علينا وعلى غيرنا ، وفرض علينا فى ظروف سيئة استمرت بعد ذلك أحقابا •



ونعود الى ما اســـتطردنا عنه فنقول ان معظم هؤلاء الحكام ، وخاصة بعد انتهاء عصر الخلفاء العظام وتقاســم المســتبدين المحليين لنواحى دولة الاســلام وانشــائهم دولا خاصة بهم فيها ، معظم هؤلاء الحكام وجهوا ســـياستهم نحو ما يخدم اســـراتهم وحدها دون اهتمام بمصالح الأقطار التى حكموها أو بشعوبها •

وفيما يتصـــل بمصـــر مثلا ، لا يمكن القول بأن أحمد بن طولون وجه سياستها وجهة مصـــرية ، وكذلك فعل الاخشـــيد ثم الفاطميون ، بل لقد حارب الفاطميون الخلافة العباسية السنية مع أن عواطف أهل مصر جميعا كانت معها • فاذا كانت مصـــر قد حققت بعض التقدم فى عصور هؤلاء أو هؤلاء ، فان الفضل فيه يرجع الى شعب مصر نفســـه وماركبه الله فيه من صفات وخصائص •

من الخطأ ـ لهذا ـ أن يقال مثـــلا ان احمد بن طولون ارتفـــع بمصر ، لأن الصحيح هو ان مصر هى التى رفعته وجعلت منه شيئا ، ومصر كانت عظيمة قبله وظلت عظيمة بعده ، اما هو فقبل ان يدخلها لم يكن شيئا ، وكل ما وصل اليه انما هو افضال مصر وخيرها عليه •

وقد كان المعز لدين الله الفاطمى ملكا غاصبا خبيثا جماعا للأموال مزعزع السلطان مضطرب الأحوال فى المغرب ، وكانت الدنيا ضيقة به وبآبائه فى افريقية (وهى تونس) ، وفيما وصل الينا من مذكرات رجال الفاطميين وخدمهم وبعض مؤرخيهم نقرأ عبارات اليأس والضياع والعوز المالى ، وكان هو واهل بيته يتاجرون فى الأخشاب وغيرها ، وكان قائده

جوهر الصقلي مغامرا عسكريا مرتزقا يضرب شمالا ويمينا دون أن يصل الى نتيجة ، فلما دخل المعز مصر اصبح خليفة ذا شان · وهو وقائده لم يعطيا مصر شيئا ، بل مصر أعطتهما كل شيء ·

وما كان ليخطر ببال المعز أن ينشىء عاصمة كبيرة كالقاهرة ، بل هو أراد أن ينشىء معسكرا وحصنا لأسرته فى بلد تصور أنه احتله بالقوة، وقد انشأ آباؤه فى افريقيا ـ قبل مجيئهم مصر ـ مدنا هناك ولدت ميتة فيما عدا المهدية التى كانت حصنا فاطميا هائلا قائما على يد ممتدة فى البحر · وقد كان للمهدية دور طويل فى تاريخ البحر المتوسط ولكنها ماتت فى النهاية ، أما القاهرة فقد ظلت بلدا صغيرا ومعسكرا للخليفة وجنده أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان ، وقد وصف الادريسى مصر فى عصر المستنصر الفاطمى فلم يقف بالقاهرة الا وقفة قصيرة ، وانما كانت العاصمة والمدينة ذات الشان هى الفسطاط ، وهى عاصمة المصريين · وكذلك زار الادريسى مصر سنة ٥١٠ هـ / ١١١٦ م ووصفها فى كتابه « نزهة المشتاق » ، فأطال الكلام عن الفسطاط والاسكندرية وكل مدينة ذات شان فى مصر ، أما القاهرة فلم يذكرها الا ذكرا عابرا ·

وانما أصبحت القاهرة بلدا عظيما عندما دخلها أهل مصر فمدنوها وحولها من معسكر الى مركز حضارة وعلم، فلا المعز ولا جوهر أنشآ القاهرة ، وانما نحن انشأناها ، وهذا هو القول الفصل فى هذا الموضوع ·

والسبب الرئيسى فى ضعف الأثر الذى تركه أولئك الحكام فى مصر ، هو أنهم أرادوا توجيه سياسة مصر وحياتها وجهة آسيوية ، وآسيا تعتبر بعدا واحدا فقط من أبعاد تاريخ مصر ، والبعدان الآخران هما افريقيا والبحر المتوسط ، فكأننا عشنا هذه القرون كلها على بعد واحد من أبعاد تاريخنا الحقيقية ، فكان حالنا كحال رجل يقتصر فى غذائه على طعام واحد لا يتغير ، فيصيبه الضعف والهزال نتيجة لذلك ، وهذا بالضبط ما كنا فيه : ضعف وهزال يتزايدان مع السنين ، وما انتعشت مصر من جديد الا عندما عادت الى نشاطها الافريقى ، وانفتح أمامها باب البحر المتوسط من جديد من أوائل القرن التاسع عشر · هنا ولدت مصر من جديد وبعثت بعثا حقيقيا ·

وقد يدهش القارىء اذا علم أن بلاد النوبة ظلت مسيحية حتى القرن الرابع عشر الميلادى مع أن الاسلام فى مصر منذ القرن السابع ، ومع ذلك لم يعن واحد من حكام مصر هؤلاء بالالتفات نحو هذه الناحية ، وظلوا قانعين بشىء يسمى « البقط » وهو هدية من العبيد تقابلها هدية من بقول مصر ، وكان الله يحب المحسنين ، كما يقولون · واذا كان الاسلام قد انتشر فى النوبة بعد ذلك ، فقد كانت لذلك عوامل أخرى غير عناية الحكام ··

ويستوقف النظر أيضا أن جناح الاسلام الغربي انهار حجرا حجرا ونحن لا ندرى ! سقط الأندلس وضاعت جزائر البحر المتوسط واحتل الاسبان بعض شواطىء المغربين الاقصى والأوسط - وهما ما يعرف اليوم بالمملكة المغربية والجزائر - بل غزا النورمان من صقلية بلاد تونس أكثر من مرة . واحتل الاسبان طرابلس الغرب ثم اقطعوها لفرسان مالطة ، ونحن لا ندرى ..

وجدير بالذكر أن صريخ أهل الأندلس وصل الى بعض سلاطين المماليك فما تحركوا لعمل ولا قاموا بمجهود ، لأن عيونهم كانت مثبتة على الشرق وحده دون أن يدخل البحر المتوسط فى حساب سياستهم . والاسكندرية عروس موانى البحر المتوسط انحدرت فى أيامهم الى قرية صغيرة ، بل كانوا يستعملونها منفى لمن يغضبون عليه ! وعندما نزل الفرنسيون الاسكندرية سنة ١٧٩٨ لم يكن عدد سكانها ليزيد عن ستة آلاف .

وليس معنى ذلك أنى أقول أن مصر كان ينبغى أن تستنقذ الأندلس وتحمى جزائر البليار وصقلية وشواطىء المغرب ، فهذا لم تكن تستطيعه قواها ، ولكن مصر لو كانت يقظة منتبهة لما يجرى هناك لاستطاعت أن تنبه عالم الاسلام الى الخطر الماثل ، وتدفعه الى حشد قواه لتلافيه ، ولو أنها فعلت ذلك لنجت الجبهة الغربية الاسلامية من شر كثير .

ولست ألقى هذا الكلام على سبيل الفرض والاحتمال ، بل أقوله وبين يدى البرهان ، وهو برهان واضح نستخرجه من حادث معروف هو الحروب الصليبية .

فقد انصرف حكام مصر من أول العصر العباسى عن البحر المتوسط انصرافا يكاد يكون تاما ، وتركز انتباههم كله نحو آسيا ، فلم يفطنوا الى شىء من يقظة أوربا فى القرن العاشر الميلادى وبدأ انهيار الأندلس خلال العصر الفاطمى فما اهتم له أحد ، ثم سقطت صقلية فى يد النورمان ابتداء من سنة ٤٢١ هـ/١٠٣٠ م فلم يكترث الفاطميون لذلك ، مع أن المفروض أنها كانت من توابعهم ، وتحولت معركة الأندلس الى حرب صليبية دون أن يتنبه لذلك أحد من أهل المشرق . فلما آنس الغربيون غفلة من حكام مصر وبقية أهل بلاد الاسلام عما يجرى وراء البحار ، نبتت فى أذهانهم فكرة غزو فلسطين وانتزاع بيت المقدس من أيدى المسلمين . وفجأة - والعالم الاسلامى مستغرق فى سبات معزن - نزلت الحملة الصليبية الأولى بلاد الشام سنة ١٠٩٧ م فذعر الحكام والناس فى الشام ذعرا يدل على أنهم كانوا فى غيبوبة أو سبات .

اى انه فى اثناء هذا السبات الذى استولى على مصر نزل الصليبيون الشام فلم يجدوا من يردهم ، وما هى الا سنوات حتى تقاسموا معظم اراضيه وحولوه الى امارات صليبية ٠

ثم استيقظ المسلمون واخذوا يجمعون قواهم لدرء الخطر الداهم ، وقد بدأت اليقظة فى الموصل على يد حكامها ـ وكانوا يعرفون بالأتابكة ـ واخذ هؤلاء يغالبون الصليبيين ، واسعفهم الحظ برجال من خيرة من أطلع العالم الاسلامى ، من أمثال عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود ، وفى أيام هذا الاخير بلغت اليقظة الشرقية ذروتها ، وتمكن من استخلاص الشام وضمه لامارته فى حلب ، وكان أبوه قبل ذلك قد استولى على امارة الرها ، ولكن الجهود كانت مفـرقة مبعثرة برغم جهود نور الدين ، وبفضله وعلى يد قائده أسد الدين شيركوه انضمت مصر الى جبهة الكفاح ضد الصليبيين ، ولم يك هذا يتم حتى انفتح باب النصر وقام صلاح الدين بعد نور الدين بقيادة الكفاح ٠

وعلى يده انتقل مركز القيادة الاسـلامية الى مصـر ، وتولاها هذا المجاهد الخـالد ٠ ولقد تعودنا أن نرد بطولة صـلاح الدين الى شخصه فحسب ، دون أن ندخل العامل المصرى الذى جعله ذلك البطل العظيم ٠ ولو أن صلاح الدين اعتمد على ملكاته وحدها لما وفق الى أكثر مما وفق اليه عماد الدين زنكى ونور الدين محمود ، لأن هذا الأخـير خاصة لم يكن اقل عبقرية من صلاح الدين ، ولكن مصر هى التى مكنت لصلاح الدين من القيام بذلك العمل العظيم ، وبدونها ما كان ليتم قطعا ٠

ذلك أن بلدنا هذا قاعدة عظمى ومركز توازن من الطراز الأول ، من يستقر فيه يكسب شيئا عظيما بمجرد هذا الاستقرار ، مثله فى ذلك مثل الربوة العالية فى الميدان ، من ملكها فقد ساد الميدان كله ، ومن لم يملكها ظل الأمر خارجا عن يده ولو ملك كل شبر من الأرض عداها ٠

ومن هذه القاعدة الكبرى استطاع صلاح الدين أن يمسك بزمام الموقف ويوجه قوى الشرق كلها ، فلم يلبث أن اقتلع جذور الصليبيين ٠

ومعنى هذا أن الشرق الاسلامى نجا من الصليبيين بفضل التفات مصر نحوه ، وهو لم ينج منهم وحدهم ، بل نجا أيضا من المغول لهذا السبب عينه ٠

بل حدث بعدذ لك ما يؤيد ما نقول بأجلى بيان :

حدث أن اهملت مصر تلك الجبهة الشرقية اواخر عصـر المماليك اذ كانت هممهم قد فترت ، فاكتفوا بعد أيام السلطان قايتباى ، اى بعد سنة ١٤٩٦ ، باقل الجهد فى بلاد الشام ، وفسدت طبائع المماليك وداخلت

الخيانة قلوبهم فضعفت وتراخى الاتحاد بين مصر والشام . وفى ذلك الحين التفت الأتراك العثمانيون الى الشرق وأقبلوا يغزون بلاده بلدا بعد بلد ، ولم يقدر المماليك الخطر العثمانى قدره الصحيح ، فكانت النتيجة أن وقع هذا الشرق العربى كله فى يد العثمانيين ، وسقطت مصر نتيجة لهذا أيضا .

ولو أن التفات مصر لأمور الشرق ظل كما كان أيام المماليك الأول ، فاغلب الظن أن سلاطين بيت عثمان ما كانوا ليطمعوا فى هذا الشـــرق العربى ، وما كانوا ليتجهوا اليه .. فقد كان اتجاههم ـ منذ ظهروا على مسرح التاريخ ـ غربيا يمضى بهم نحو التوسع فى الغرب ، وما لفتهم الى الشرق الا ما لاحظوا من ضعفه ، وهو لم يضعف الا عندما انصرفت عنه مصر ، أو حكامها بتعبير أدق .

ولقد كانت مصر قمينة أن تؤدى للجبهة الغربية الاسلامية مثل هذه الخدمة لو أن عيون حكامها فى العصور الاسلامية كانت ملتفتة اليها ، لو أن عنايتها بشئون البحر المتوسط اتصلت على ما كان ينبغى أن تتصل عليه ، لأن مصر هى التى كسبت للاسلام سيادة الحوض الشرقى للبحر المتوســـط ، ولو أنها مدت يدها لأهل المغرب والأندلس فى أثناء محنتهم الطويلة لما حدث هذا الذى كان ، أو لنجونا من بعضه على أقل تقدير .

وقد لا يعلم بعض الناس شـــيئا عن أثر مصـــر فى بناء البحرية الاسلامية ، قد لا يعلمون أن مصر كانت مصنع السفن الحربية لأساطيل الخلافة الأموية : كان الجزء الأكبر منها يصنع فى « دور صناعة » أو « ترســـانات » عند جزيرة الروضـــة ، ثم تصعد فى النيل الى البحر ، وبفضل هذه السفن المصرية ومن كان يعمرها من الملاحين المصريين كسب المسلمون موقعة ذات الصوارى سنة ٣٤ هـ وهى التى ثبتت أقدام المسلمين فى حوض البحر المتوسط الشرقى ، وهى من المواقع الحاسمة فى تاريخه ، لأنها انتزعت سيادة البحر من أيدى البيزنطيين وأسلمتها الى المسلمين ، فبدأت فى تاريخ هذا البحر الفترة الاسلامية المعروفة التى استمرت حتى نهاية القرن العاشر الميلادى ، وقد كشفت أوراق البردى عن أن بحارة الأسطول الذى كسب هذه المعركة الفاصلة كانوا من المصريين ، وقد أتينا ببراهين ذلك فى بحثنا « المسلمون فى حوض البحر المتوسط الى الحروب الصليبية » .

والملاحون المصريون هم الذين أنشـــئوا ميناء تونس ، فقد روى المؤرخون أن عامل افريقية « وهى تونس » حسان بن النعمان ، لما هدم ميناء قرطاجنة البيزنطى وأراد أن ينشىء للمسلمين ميناء جديدا ، كتب

الى عبد الملك بن مروان بذلك ، فبعث هذا الى عامل مصر يطلب اليه نفرا من المصـــريين المدربين على مثل هذا العمل ، فارســـل اليه الفا منهم بعائلاتهم ، وهم الذين انشئوا ميناء تونس قاعدة الاسلام فى الجزء الأوسط من حوض البحر المتوسط ٠

❊ ❊ ❊

ومن غريب الأمر أن ذلك العبقرى صلاح الدين أوحى اليه المقام فى مصر فكرة الالتفات نحو الغرب ، وربما كان هذا الرجل اعظم من تنبه الى اهمية موقع مصر فى العصور الوسطى ، فبعث من يستطلع له الاحوال فى برقة ، وبعث من يمهد له امر النوبة ، بل مد بصره الى اليمن ٠٠ اى انه تصور موقع مصر جيدا ، ونظر فى كل وجهة ، ويقال ان دافعه الى ذلك كان الخوف من نور الدين محمود ، اى انه كان يبحث عن قطر يلجأ اليه مع آله اذا وقعت الخصومة بينهما ٠

ولكنها لفتة عجيبة منه على اى حال ، يزيد فى قدرها فى نظرنا ان بصـــره ترامى الى قاصـــية هذا البحر فى الغـــرب ، وبعث الى خليفة الموحدين يعرض عليه ان يتعاونا فى القضـــاء على الصليبيين وانتزاع سيادة البحر من أيديهم ٠ ولم يوفق المشروع ، ولكن ذلك لا يقلل من قيمة هذا التفكير الفريد ، وهو يدل على ان رجلا واحدا فقط من بين العشرات الذين حكموا مصر خلال العصور الوسطى ، قد تفطن الى معنى موقعها ، وفكر فى الافادة منه ، وليس بغريب ان يكون هذا الرجل هو صلاح الدين ٠

ويحكى ابن شداد ـ كاتب صلاح الدين وصاحب ترجمته المعروفة بالمحاسن اليوسفية ـ انه كان يسير مع صلاح الدين قرب شاطىء البحر فى يوم عاصف ، وان شداد خائف من الأمواج الصاخبة المتهيلة ، فقال له صلاح الدين ما معناه : يجرى فى خاطرى أن أركب هذا البحر واذهب الى أولئك النصارى واغزوهم فى دارهم !

وهذه العبارة وحدها قمينة بان تضع صلاح الدين فى الصف الأول من عظماء التاريخ ـ وقد قالها صلاح الدين بعد حطين ، أى بعد أن اصبح سلطان مصر وتحول التحول العميق الذى عرفه كل من اتصلوا بمصر من العظماء ، وقد اشرنا فيما مضى الى ان الاسكندر دخل مصر قائدا

عاديا وخرج منها يحمل تاج مصر القديمة وقد ثبت اقدامه على سلم المجد ، وحدث هذا ليوليوس قيصر ونابليون وغيرهم كثيرين ٠

ولم يجن على مصر شيء قدر انصرافها عن جبهة البحر المتوسط فقد قلنا ان لمصر فراغا فى هذا البحر عليها أن تملأه ، ولها رسالة فى حوضه عليها أن تقوم بها ، وعليها مسئولية عن حضارته لابد أن تنهض بها ، فاذا هى قصرت فى ذلك أصابها ما يصيب الرجل الذى يتخلى عن مسئوليته وينسى واجبه ويهمل رسالته ، فيحل غير محله ويخمله الناس ويذهب أمره ٠

لقد استمرت مصر تحمل مسئوليتها عن حضارة البحر المتوسط حتى الفتح العربى وفترة طويلة خلاله ، ولكن ذلك الاهتمام بالبحر لم يلبث أن تضاءل ، لأن العرب حرصوا على أن يقطعوا صلات مصر بالبحر وما يليه ، قطعا لكل أمل للروم فى العودة الى مصر ، وتأمينا لها من أخطار الغزو من وراء البحر ٠

وشيئا فشيئا أقفل هذا الباب ، وانقطعت علاقات مصر بالبحر ، وفقدت الاسكندرية أهميتها ، وتحولت الى قرية على البحر ٠ أجل ! هذا البلد الذى كان درة البحر المتوسط ، والذى وجده العرب لدى دخولهم عجيبة من عجائب الزمان : بيوته من المرمر وقصوره من الفضة والذهب — كما يقولون — هذا البلد الذى هو رئة مصر التى تتنفس بها ، لم يعد له فى تاريخ البحر المتوسط مكانة تذكر ٠

وكان هذا الفصل بين مصر وعالم البحر المتوسط نذيرا بالنكبات ، لأن هذا البحر ظل مهد الحضارة الانسانية حتى نهوض الولايات المتحدة وانتقال مراكز القوة — والحضارة معها — الى المحيط الأطلسى الشمالى ، وقد ظلت الحضارة تنتقل على ضفافه من بلد لبلد ، وكلما وهن أمر شعب من شعوبه وعجز عن السير بالشعلة الخالدة تناولها منه شعب آخر وسار بها ، وعندما أهملنا نحن البحر المتوسط ، واتجهنا ببصرنا الى الشرق وحده ، نهض بمبثه غيرنا ، وكان لهذا أسوأ الأثر على مصيرنا ٠

ذلك أن شعوب أوربا التى ولدت خلال العصر الوسيط الأول فيما بين القرنين الثالث والسابع الميلاديين وجدت نفسها عندما ثبتت قوائمها

عاطلة عما ينبغي للدول من نظم وآلة ، فامدها رجـال الدين ـ وكانوا أهل الفكر والفهم في أوربا خلال العصـر الوسـيط ـ بما حضـرهم من بقايا النظم الرومانية وقوانينها • ولم يكف هذا القليـل من تراث الرومان لكل مطالب هذه الدول ، التي نشأت في ظروف جديدة تختلف عن ظروف الرومان ، وكان لابد لها من توسيع أفق هذه البقايا من حضارة البحر المتوسط بأشياء مما جلبته معها من مهاجرها الأولى ، وامتزج هذا بذاك ، ونشأ من هذا المزيج ذلك النظام الفريد الذي يعرف بنظام الاقطاع، الذي ساد أوربا الغربية والوسطى كلها حتى نهاية القرن الخامس عشر على الأقل •

وليس هنا موضـع الكلام عن نظام الاقطاع ، ولكن الذي يهمنا هنا أن نقرر أنه نظام زراعي مقفل تحولت معه أوربا الى شعوب من الزراع ، يحكمها نفر من محترفي الحرب يعرفون بالفرسـان ، ونفر من محترفي الدين هم رجال الكنيسة : لأولئك السيف ولهؤلاء القلم كما نقول ، وبقية الناس أتباع وخول ، متدرجين في هرم اجتماعي ، قاعدته الزراع ورقيق الأرض والعبيد ، وقمته أصحاب الاقطاعات الكبيرة ، ومنتهم الملك ، وهو أكبرهم ••

وفي داخل المجتمع الزراعي الحزين ، بدأت تظهر جمـاعات من الصناع ، ما بين نجار وحداد ونساج وصـانع جلود وما أشبه ، مما لا تستغني عنه جماعات البشر ، ونظرا لوفرة المعادن والأخشاب والجلود في أوربا ، ونظرا لما تتطلبه الظروف الجغرافية من تجويد الصنعة ، فقد خطا صناع ذلك العالم الاقطاعي خطوات فسيحة في سبيل تجويد صناعاتهم •• ذلك أن الذين يعيشون في جو لين كجونا لا يعرفون قيمة تجويد الصنعة، ولهذا لا يعرفون قيمة الصانع الماهر ، فانت اذا طلبت من يصنع لك نافذة لم تتحر أن ينجزها لك محكمة أشد الاحكام ، لأن تيار الهواء الرقيـع الداخل لن يؤذى أذى بالغا ، أما لو كنت في هذه البلاد الباردة ، فان هذا التيار الذي يهس في الليل هسيسا انما يحمل اليك الزمهرير ، وقد يكون خطرا على الحياة • ومثل هذا يقال عن تجارنا ونجـارهم واسـكافنا واسكافهم ، ومن ثم فلا حياة للصانع غير المجود في مثل ظروفهم ، ومن ثم أيضا وصل صناعهم الى درجة عالية من الحذق في صياغة المعادن ، وسبقونا في هذا الميدان ، ونحن لا ندري ، فابتكروا من السيوف والحراب ودروع الحديد ما فاق في الصلابة والاحكام أحسنما عرفنا من السيوف المشرقية أو الهندية أو الردينية وما اليها مما يتغنى بذكره الشعراء ، وهذه الأسلحة المتقنة الجديدة كانت حاسمة الأثر في تقرير مصير العالم فيما بعد ••

وعندما التقى المسلمون مع النصارى فى الأدوار النهائية التى قررت مصير الأندلس ، أدرك المسلمون هناك خطر هذه الأسلحة الجديدة التى توصل اليها خصومهم ، وفقدوا المعارك واحدة بعد اخرى ، وخرجت البلاد من أيديهم بلدا بعد بلد ٠ ولقد استهلك كفاح الاســـلام للنصرانية أهل الأندلس الاسلامى واستنفد قواهم ، واضف - الى جانب ذلك - جيرانهم من اهل المغرب ممن خفوا لنصرتهم ٠ واذا كان المسلمون قد فقدوا صقلية اولا ، والأندلس ثانيا ، فان العامل الاقوى فى ذلك يرجع لسلاح النصارى ، فان جموع المسلمين فى المعارك لم تكن اقل من جموع خصومهم ، وظلوا كذلك على ما عهدناهم عليه من شجاعة وبسالة ، ولكن الآخرين كانوا يلقونهم بدروع لا تنفذ فيها السيوف ، وحراب مصمية وسيوف مرهفة وأدوات حرب أخرى كانت تحصد المسلمين حصدا ٠ ولم يقبس المسلمون فى الغرب الاسلامى هذا السلاح الا بعد فوات الأوان : بعد أن انكمش الاسلام الأندلسى ، واقتصر أمره على قطعة من الأرض فى الجنوب هى مملكة غرناطة ٠

هذا كله حدث ونحن لا ندرى ، ولو عرفنا بأمره لتداركنا امرنا ، ولكننا كنا قد اغلقنا أبواب البحر فلم نعد نعلم مما يجرى وراءه شيئا ٠

وقد فوجئنا بذلك أول نزول الصليبيين ديارنا ، وفى اثناء الصراع بيننا وبينهم جددنا سلاحنا ، واقتربنا منهم ، وتعادلنا معهم ، ثم غلبناهم واخرجناهم من ديارنا بعد كفاح مرير ٠

اخرجناهم من ديارنا ولم ننتبه الى ضرورة الالتفات الى ما يجرى فى بلادهم من وراء البحر ، اخرجناهم واغلقنا بابنا مرة اخرى ، ووقعنا فى نفس الخطأ ٠ ولو اننا لم نغلق الباب هذه المرة وتركناه مفتوحا لنعلم ما يدبرون وما يصـــنعون لما فاجئونا هذه المفاجاة الهائلة خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، فكسروا الدولة العثمانين وارقفوا تقدمها ، ثم اخذوا يستولون على ما افتتحه سلاطينها فى اوربا شيئا فشيئا ٠

وكنا نحن فى مصر نحسب أن الأوربيين - بعد أن عادوا الى بلادهم بعد الحروب الصليبية - قد ظلوا على حالهم كما ظللنا نحن على حالنا ، فسدنا الى ما درجنا عليه من تفاهات الخصـــومات ومظالم الحكام ، حاسبين أن الدنيا كلها هكذا ، واننا مادمنا نتقن المبارزة بالسيوف وركوب الخيل وشئون الفروسية فلن يغلبنا احد ٠

وعلى هذا الحال من الاغترار بانفسنا وبالدنيا فاجانا الفرنسيون عندما نزلوا بلادنا فى صيف ١٧٩٨ ٠ ولقد بلغ من غفلة القائمين على امورنا اذ ذاك - وكان يمثلهم المملوكان مراد وابراهيم - أن سخر اولهما من الفرنسيين وقال انهم « كحب الفستق للكسر والاكل » ، ثم لم تلبث معركة شبراخيت ان ايقظته من سباته ، والهمته أنه هو ورجاله هم « حب

الفستق » . وفي معركة الأهرام ـ أو امبابة ـ تقرر المصير في ضحوة نهار : تطاير فرسان المماليك هباء ، وانتهت الى غبار تجربة سياسية طولها عشرة قرون ، ودخلنا في عصر جديد . وكان علينا نحن المصريين أن نبدأ في بناء وطننا على أســاس ما علمنا أجدادنا وما تعلمناه في عصــر الخلفاء الراشدين ، ثم تنبهنا الى اهمية علم الغرب فبدأنا نتعلم على يديه !

...

هذا كله أتانا من اغلاق باب البحر المتوسط واغفالنا ملاحظة ما يجرى في حوضه ، ولو أن بابه ظل مفتوحا ، ولو أن ناســا منا كانوا يجوسون خلال دياره لما حدث ذلك ، أو لما حدث على هذه الصورة المزرية على الأقل .. ورب قائل : ان المماليك كانوا على صلات بالبنادقة ، وانهم أخذوا عنهم أستعمال البارود وبعض السلاح . ولكن ذلك كان ضئيلا جدا من ناحية ، ثم ان المماليك لم يتصلوا بالبنادقة للاطلاع على ما يجرى في بلادهم وما صاقبها من ناحية اخرى ، بل للاشتراك معهم في تجارة آسيا . وكان اشتراكنا في هذه التجارة على صورة تبعث على الأسى : لم نشترك فيها كتجار بل كمساهمين في غنيمة ، لم يكن لنا تجار أو تجارة ، بل كان لنا سلطان يبتز أموال الناس ، واعوان سلطان هم شر على الناس من البلاء .. فلم يبلغ ربحا من هذه التجارة الا شيئا قليلا ، ثم انه كان ـ بعد ذلك كله ـ ربحا غير كريم ، أو قل : غير شريف ، أو قل : أن المماليك كانوا يحصلونه بطرق غير شريفة .

ومع ذلك ليت هذا القليل دام ! مازال سلاطين المماليك يعســـفون التجار حتى زهدوهم في المرور ببلادنا جملة ، ودفعوهم الى البحث عن طريق آخر للوصول الى الشرق غير طريق البحر المتوسط ، فكان ما كان من كشف طريق رأس الرجاء الصالح ووصول أوربا الى الهند مباشرة . أي أن سياسة أولئك المماليك الآسيويين انتهت بالغاء وجود البحر المتوسط جملة من وجودنا ! لم يكتفوا بالغاء وجود مصر كدولة بحرية ، بل حكموا بالخــراب على دول اخــرى كانت تعيش في هذا البحــر ومنه ، وهى الجمهوريات الايطالية .

واذا جاز لنا أن نستنبط من ذلك شيئا يتصل ببلدنا ، قلنا انها ليست مفتاح عمران الشرق الأوسط فقط ، بل مقياس عمران البحر المتوسط كله . فاذا هي استسلمت للفتور أو الفوضى أو تخلت عن مكانها في حوض هذا البحر ، تأثرت دوله جميعا بذلك .

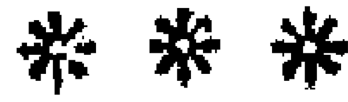
فماذا حدث بعد أن اســـتغنى الناس عن البحر المتوســـط كطريق للملاحة وأصبح بركة فسيحة راكدة المياه ؟

حدث أن سيطرت أوربا على الهند وجنوبى آسيا كله دون أن تدرى ، نعم ان المماليك حاولوا انقاذ بقية ضـــئيلة من الارض ، فتعاونوا مع الجنوبيين فى حملة انتهت بكارثة عند جزيرة « ديو » • محاولة ضـــعيفة مشئومة من أولها ، أشبه بهرولة مسافر فاته القطار •

وماذا حدث بعد أن سيطرت أوربا على الهند وجنوبى آسيا ؟

حدث أن أولئك الذين ملكوا زمام آسيا ، فكروا فى السيطرة على الطريق الطبيعى اليها ، طريق البحر المتوسط • وهنا جاء دورنا نحن ، وكان ما كان من وقوع بلادنا بين أيدى الفرنسيين أولا فالانجليز ثانيا •

كل هذه المصائب المتتابعة نشأت عن اقفال باب البحر المتوسط • نشأت عن توجيه قوانا نحو ناحية واحدة واهمالنا تلك النواحى التى يجب علينا الا تغمض عيننا عنها أبدا •• اهملنا ناحية البحر ، وتخلينا عن مكاننا فى البحر المتوسط ، فاختل توازننا ، فكان هذا الانكسار المحزن فى تاريخنا •



وخلاصة هذا الكلام كله أن البحر المتوسط هو « البعد الثالث » من أبعاد كياننا العام : الأول افريقية ، والثانى الشـــرق العربى الاســـلامى ونحن لا نستطيع أن نتخلى عن مكاننا فى ذلك البحر الا اذا أردنا أن نتخلى عن كياننا كله •

ومادام الأمر كذلك ، فلنا فى هذا البحر رسالة هى التى يكتمل بها وجودنا ، ويستقيم كياننا وميزان حياتنا ••

وســـنفصل أمر ذلك فى الفصـــل الاخير من هذا الكتاب ، وبالله التوفيق •

مصـــر والشـــرق

ليس من قبيل المصـــادفات البحتة أن هاجر أم اسـماعيل عليه السـلام كانت ـ فيما يقال ـ مصـرية ، فان اسماعيل هو جد العدنانية ، وجد قريش ، فكأن لنا نسـبا موصولا بهذه الذؤابة العربية التي جمعت أمجاد العرب كلها في صعيد واحد ٠

وليس من قبيل المصـادفات أن مارية القبطية زوج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مصرية ، وهي احدى اثنتين من أمهات المؤمنين أنجبتا أطفالا : خديجة ومارية ٠ ولم يكتب أحد تاريخ مارية الى الآن ، ولم يكن من الممكن أن تصل الى مكان يضارع مكان عائشة رضي الله عنها ، ولكن الرسول ـ صلوات الله عليه ـ اختصها بمكان لطيف ، وابتنى لها دويرة صغيرة في طرف من أطراف المدينة ٠ وقد ظلت هذه الدويرة قائمة حتى القرن الرابع الهجري ، وزارها وأعجب بها الفيلسوف الأندلسي محمد بن مسرة ، وعندما عاد الى الأندلس ابتنى لنفسه في جبل قرطبة دارا على مثالها ٠

وعجيب اصرار الفقهاء على وضع مارية خارج نطاق أمهات المؤمنين مع حب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لها واعزازه اياها ، وقد أسلمت مارية وأختها سيرين وحسن اسلامهما ، وأنجبت الولد للرسـول ٠٠ ولا ندري كيف يضعون صفية بنت حيي بن أخطب بين أمهات المؤمنين ولا يضعون مارية ، وما كانت مارية بأقل منها بل كانت من بنات الأسر في مصر ، وقد شهد لها بذلك نفر من المؤرخين ، وقد أوصى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالقبط لصـهره اليهم ، ولم يوص باليهود رغم صهره اليهم ٠ ومارية ـ أم ابراهيم ـ لا يمكن أن تكون أقل من صفية بنت حيي ، فمن عجب أن هذه تحسـب في عداد أمهات المؤمنين ومارية المفنية الصعيدية لا توضع بينهن ٠

وهاتان الحقيقتان تقومان كالرمز على نوع صـلاتنا بالعـرب ، فهي صلة نسب قبل أن تكون صلة عقيدة ولغة وحضارة ، ونحن بحمد

الله اصهار ابراهيم خليل الله ، واصهار محمد رسول الله ، ومريم العذراء وابنها عيسى ـ عليه السلام ـ وجدا الامن فى أرضنا ، فلا عجب أن الله سبحانه لم يذكر فى القرآن الكريم بلدا باسمه غير مصر ٠

واذا رجعنا الى الوراء وجدنا هذا النوع من الصلات قائما بيننا وبين جيراننا فى الشرق ، ولست اقصد المصاهرات العادية ، بل اقصد العلاقات ذات الصدى الملحوظ فى مجالات السياسة والثقافة ومصاير الشعوب ، ومثال ذلك زواج امنحتب الثالث من أميرة سورية ، يعزى اليها بعض الفضل فيما نادى به ابنها اخناتون من التوحيد والرمز الى الخالق سبحانه بقرص الشمس « آتون » وهو أمر فريد فى بابه يذكره الذين يؤرخون للأديان يعتبرونه ثورة فكرية كبرى لا تضارعها ثورة فكرية اخرى فى تاريخ العالم القديم ٠

ومن المؤكد أن بعض اهل الدلتا يرجعون الى اصول آسيوية ، دخلوا مصر عبر شبه جزيرة سيناء ، وتؤكد الحفائر والكشوف الأثرية ذلك ، ويؤيده ابن خلدون ، فيذكر ان صحراء مصر الشرقية وشبه جزيرة سيناء كانتا عامرتين بالضجاغم ، وهم من عرب الشمال ٠ وذلك هو الطبيعى ، خاصة اذا ذكرنا أن تلك الصحراء لم تكن فى القديم قاحلة بالصورة التى نراها عليها اليوم ، وانما كانت مخضرة فى كثير من اجزائها ، وكانت كثيرة الواحات والأودية ، وليس الى الشك سبيل فى انها كانت تصلح لمقام جماعات صغيرة من الناس ، بدليل أن طوائف كثيرة من رهبان مصر خلال القرون الثانى والثالث والرابع الميلادية قضت حياتها فى تلك الصحراء ، وقصة الأنبا بولا اول « السياح » اشهر من أن نذكرها هنا ، فقد قضى عمره كله فى هذه الصحراء جولا ، وكان يقيم فى موضع غيضة صغيرة فيها نخل وعين ماء ، وفى ذلك المكان لقيه القديس انطونيوس المصرى منشىء الرهبانية العالمية ٠

ولقد عرفت مصر قبل الاسلام فرعى العرب الكبيرين ، عرفت عرب الجنوب القحطانية ، اذ انهم كانوا يعبرون البحر الاحمر ويستقرون فى الوادى يختلطون بالسكان لأنهم ـ كاهل مصر ـ اهل استقرار وزرع وضرع ، وعرفت عرب الشمال العدنانية ، اذ كانوا يجوبون الصحارى الشرقية المصرية على ما ذكرناه ، واولئك لم يختلطوا بالسكان كثيرا ، لأنهم أهل بداوة ورحلة وخيام ، واولئك هم بدو الصحراء الشرقية الذين حاربهم الفراعنة طوال تاريخ مصر القديم ٠

وبعد الاسلام وفدت الى مصر جماعات جديدة من العرب استقرت فى نواح شتى من مصر السفلى ومصر الوسطى ، وكان لها فى التاريخ المصرى اثر معروف ٠

وعندما تفككت وحدة الدولة الاسلامية خلال النصف الثانى من القرن الهجرى الثانى ، بدأت مصر تتحول الى قاعدة اسلامية كبرى ، فقد ظهرت ميزاتها الخاصة وسط ذلك العالم الاسلامى الذى كان يتسع شيئا فشيئا ، وعلى الرغم من أن الدولة الاموية كانت فى الشام فان مصر كانت قاعدتها ومركز ثقلها ، فمعاوية بن أبى سفيان لم يهتم بشىء اثناء صراعه مع على قدر اهتمامه بانتزاع مصر . وعندما انضمت اليه مصر ثبت مركزه وقوى أمره وطمع فى الخلافة . وحدث مثل ذلك ايام عبد الملك بن مروان ، فقد تقرر مصير المعركة بينه وبين عبد الله بن الزبير عندما استخلص مصر ، وتولاها له اكبر رجال دولته وهو أخوه وولى عهده عبد العزيز بن مروان .

وطوال العصر الأموى كانت مصر قلب هذه الدولة ومعتمدها : كانت بلدا مستقرا غنيا يمد الدولة بأسباب الغنى والقوة ، فى حين أن الشرق كان مصدر متاعب لها ، ومن مصر وبأموالها تمت فتوح المغرب ، وبمالها فتح الأندلس .

وعندما قامت دولة بنى العباس نقلت مركز الخلافة الى العراق وكان ذلك خطأ جسيما ، لأنه ابعد الدولة عن البحر المتوسط وجعلها فى وسط آسيوى خالص ، لأن العراق فى ذلك العصر لم يكن وطن شعب واحد متجانس ، بل كان مجمع أجناس وملتقى تيارات ، فلم تستقر الدولة العباسية على قاعدة بشرية سليمة وظلت دائما مزعزعة البنيان نهبا للعواصف وتيارات هجرات الشعوب الآسيوية من أصناف الترك أولا ثم المغول بعد ذلك . فكان معظم جهد بنى العباس منصرفا الى المحافظ على كيانهم فى بلادهم ، فشغلوا بذلك عن الحفاظ على ولايات الدولة ، ثم ان قيام الدولة العباسية فى مهد الدولة الساسانية أورثها تجارب ايران السياسية ، وهى تجارب تقوم على البطش والظلم وارهاق الناس ، وقد امتصت الدولة العباسية ذلك كله ، فكانت دولة اسلامية فى طيلسان كسروى ، وكان لهذا أسوأ الأثر على مصير بنى العباس أولا ثم الدولة الاسلامية كلها بعد ذلك .

وقد ظهرت نذر تفرق وحدة الدولة خلال السنوات العشر الأول للخلافة العباسية ، فانفصل الأندلس ، وينظر المؤرخون الى هذا الانفصال على أنه مجرد استقلال « ولاية » من الولايات ، وهم ينسون أن هذه « الولاية » كانت درع الجناح الغربى لدولة الاسلام ، وأن سلامة الدولة الاسلامية كلها كانت متوقفة على بقاء هذا الدرع سليما ثابتا ، وأن انفصال الأندلس كان لابد أن يتبعه انفصال أجزاء أخرى ، وهذا هو الذى حدث بالفعل : انفصل المغرب الاقصى وقامت فيه دولة الأدارسة ، ثم انفصلت تونس ــ وكانت تعرف اذ ذاك بافريقية ــ على أيام هارون الرشيد ،

وغلبت على ما عدا ذلك من بلاد المغرب الاسلامي كله جماعات من الخارجية اقامت هنا وهناك دولا مختلفة ما بين صغيرة وكبيرة .

وكل ذلك نتيجة لمغادرة الدولة الاسلامية بلاد الشام ، اى ضفاف البحر المتوسط ، ولو ان الدولة ظلت هناك لتغير الأمر طبعا ، ولما وقع فى الغرب الاسلامى ما وقع .

حقيقة ان العناية الالهية تداركت الأندلس بعبد الرحمن الداخل الذى جدد مجد الدولة الأموية المشرقية فى المغرب ، وصان - هو وخلفاؤه من بعده - الاسلام الأندلسى من الضياع قرونا كثيرة ، ولكن ذلك كان مجرد مصادفة سعيدة لم تكن لأحد فى حسبان . ولكن الواقع الذى يؤيده البرهان ان انتقال مركز الدولة الاسلامية من الشام الى العراق كان ايذانا بدور جديد فى تاريخ الاسلام ، دور لن يعين الدولة على الاستمرار .

وكان لابد من مركز جديد تتجمع حوله البلاد الاسلامية ، مركز متوسط يضم شرق العالم الاسلامى الى غربه كما كانت الشام تفعل أيام الأمويين ، مركز فى قلب منطقة البحر المتوسط ، يلتقى فيه تراث اليونان والرومان بجهود امم الاسلام ، لتنمو شجرة الحضارة الاسلامية فى تربة غنية ، مركز يكون كالقاعدة للعالم الاسلامى كله .

وكما تجمعت بقايا حضارة الاغريق فى مصر بعد غزوة الاسكندر ، فاصبحت قاعدة الحضارة العالمية اذ ذاك على ايام البطالمة ، تجمعت قوى العالم الاسلامى كلها فى مصر رويدا رويدا . بدأ ذلك وئيدا على ايام الطولونيين والاخشيديين ، ولم يتوقف سيره على ايام الفاطميين ، ثم أخذ صورة واضحة أيام الأيوبيين ، وأصبح حقيقة ماثلة للعيان أيام المماليك .

حدث ذلك كله فى تطور طبيعى متصل : فكلما اشتدت الأخطار على المشرق نزح العلم والعلماء غربا فى التماس الأمان ، وكلما اضطربت الأمور فى العراق ، تراجعت مراكز القوة الى الغرب ، لتستقر فى مصر ، وهذا هو السر فيما بدت به الدولة الطولونية فى أول ايامها ، فان احمد بن طولون لم ينشىء نظاما ، ولم يبتكر شيئا ، وكل عبقريته تتلخص فى أنه عرف كيف ينشر الأمان فى ربوع مصر، فلما ساد الأمان بدأ الناس ينتقلون الى مصر ، وتسربت معهم فى الوقت نفسه ذخائر العلم والعرفان . وتوقف سير هذه العملية بعد انقضاء أيام الطولونيين ، ولكنه تجدد ايام محمد بن طغج الاخشيد ، واتصل على أيام الفاطميين ، حتى اذا وصلنا الى العصر المملوكى وجدنا مصر هى القطر الاسلامى الوحيد القائم على قدميه ، والملجأ الوحيد الذى يستطيع ان يلجأ اليه صاحب العلم أو صاحب كنوز الكتب .

ولما وصلت مصر الى هذا المركز عن ذلك الطريق الطبيعي المتصـل الذى وصفناه ، كان لابد أن تعيد بناء ما تستطيع بناءه من بلاد الاسـلام المجاورة لها : كانت بلاد الشام مهددة بالأخطار ، لأن نظام الحكم العباسى اتجه الى تجريدها من عناصر القوة ، اذ انها كانت عاصـمة خصومهم الأمويين ومصدر قوتهم ، فاشتد بعض ولاة الشام على اهلها وظلموهم ، حتى اضطر الامام الأوزاعى للتصدى للدفاع عنهم وتنبيه الوالى الى انه خالف حدود الله ٠

ثم ان الفقر حل بالبلاد بسبب حرمانها مما كان ياتيها بالخير أيام كانت قلب الدولة ، وعادت الخصومة بين المضريين ـ وهم عرب الشمال ـ واليمانيين ، واستشرى أمرها حتى أعيا ولاة بنى العباس ثم وقت فتنة السفيانى فى أيام الخليفة الامين ، وهى فتنة أشـبه بثورة قومية شـامية ، اذ ان زعيمها نادى بالثورة على العباسـيين وتعصـب له اليمانيون أملا فى أن تعود الدولة أموية شامية كما كانت ٠ وقد استمرت هذه الفتنة ثمانى سنوات أصاب الشام خلالها بلاء كثير ، ثم قام أموى آخر بعد ذلك بنحو العامين ، ودعا لبنى أمية ، فتعصب له نفر من أهل الشام ، وكانت فتنة اخرى ، ثم ثار فى البلاد نصر بن المقيلى ، والقى بها فى احضان هيج أموى جديد طال أمده واستشرى شره ٠

وفى غمار هذه الفتن العميـاء تمكن العباسـيون من اجتـذاب القيسـية ناحيتهم ، بينما ظل اليمنية على الولاء لذكريات بنى أمية ، وتفرق أمر الناس فى ذلك البلد ، ساءت أموره وعمه الفقر أيام العباسيين ٠ ولا يمثل لنا رأى العباسيين فى الشام الا هذا الخبر الذى يرويه المؤرخون ـ والذى يظهر فيه أمر الوضاع ـ قالوا : « تعرض رجل للمامون بالشام مرارا فقال له : يا أمير المؤمنين ، انظر لعرب الشام ، كما نظرت لعجم أهل خراسان ! فقال : اكثرت على يا أخا أهل الشام ٠ والله ما أنزلت قيسا من ظهور الخيل الا وأرى انه لم يبق من مالى درهم واحد ! وأما اليمن ٠ فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط ٠ وأما قضاعة ، فسادتها تنتظر السفيانى وخروجه ، فتكون من أشياعه ٠ وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر ! ولم يخرج اثنان الا خرج أحدهما ثائرا ٠ اغرب ، فعل الله بك ! » ٠٠

واستمر الأمر على ذلك فى هذا البلد الذى رزقه الله من الخير ما كان حريا أن يجعله أسعد بلاد المملكة الاسلامية فى ذلك الحين ، ولكن ظروف السياسة والعصـبية جعلت منه مهدا للفوضى والاضطراب ، ومسـرح « فتن أهلية وعصـبيات حمصـية ولبنانية ودمشقية وفلسطينية ومصرية » على حد تعبير كرد على مؤرخ الشام ٠

وانما اتيت فى هذه المسالة ببعض التفاصيل لكى ابين انه فى الوقت الذى بدأت تقوم فى مصر خلاله الدول المستقلة واحتاج أصحابها للأمان على حدودهم ، بدت لهم هذه الجبهة الشامية مصدر قلق ومخاوف ، وبدا لهم بوضوح انهم اذا أرادوا تامين دولهم ، فلا مفر لهم من تامين الشام كذلك والقضاء على أسباب الفتن فيه ، لأن الفتن اذا استمرت زادت طمع الطامعين فيه ، فاذا استقر فى الشام طامع أصبح الخطر امام مصر ماثلاً ٠

كان هذا بدء السياسة الشامية لدول مصر الاسلامية كلها ، فلم يكد احمد بن طولون يستقر فى مصر ويثبت دعائم ملكه فيها حتى نظر الى الشام ، وتجرد لضمه الى دولته حتى يأمن الأخطار ، وتمكن من تحقيق ذلك دون مقاومة من أهل الشام ، ولم يعارضه الا قائد تركى يسمى « سيما الطويل » ، تحصن فى انطاكية ، غير ان ابن طولون لم يلبث أن قضى عليه ٠

ومن ذلك الحين ارتبطت مصاير الشام بمصاير مصر على طول العصور الوسطى ، فاذا نحن استثنينا بعض فترات القلاقل ، استطعنا أن نقول ان مصر والشام كانا بلدا واحدا طوال هذه العصور كلها ، فالدولتان الطولونية والاخشيدية كانتا مصريتين شاميتين فى آن معا ، وكذلك الدولة الفاطمية معظم عصر سعودها ، أى الى نهاية ايام الحاكم بأمر الله ٠ ولقد انفرد الحمدانيون بحلب فترة من العصر الفاطمى ، ولكن أمرهم لم يطل ، وكذلك المرداسيون الذين خلفوهم ٠ وعندما ضعف أمر الفاطميين تقلص ظلهم من شمال الشام ، ولكنه بقى فى جنوبه وهو فلسطين ٠٠ وقد كان تقلص الحكم الفاطمى من الشام سببا من الأسباب التى يسرت على الصليبيين غزوه على ما ذكرنا ٠

وتجدد الاتحاد بين البلدين عند قيام الدولة الأيوبية ، واتصل على نسق واحد حتى الغزو العثمانى للبلدين خلال العقد الثانى من القرن السادس عشر الميلادى ٠

وخلال هذه الفترة الطويلة التى مررنا بها ، وهى نحو الخمسين وستمائة عام ، كانت الشام متحدة مع مصر ، او كانتا دولة واحدة تحكم من مصر ، وكان حكام مصر لا يدخرون وسعا فى رعاية شئون الشام ، والانفاق عليه عن سعة من موارد مصر ، ومن بلادنا استخلصت الشام من أيدى الصليبيين ، وجيوش مصر هى التى ردت عن الشام بلاء المغول ، ومن مصر ــ باذن الله ــ تتخلص فلسطين من الاحتلال ٠

وهذه هي الدولة التي عرفت باسم سلطنة مصر والشام • وكانت تضم الحجاز في معظم الأوقات ، لا طمعا في بضعة من أرض الجزيرة ، بل تشرفا برعاية الحرمين الشريفين •

ومن الطبيعي أن تكون حضارة البلدين خلال هذه العصور واحدة : على مصر وفد طلاب العلم من الشام ليدرسوا وليلتمسوا الرزق بعد ذلك ، وأنت اذ تقرأ تاريخ هذه العصور تشعر وكأن الحدود بين البلدين قد تلاشت ، وأن الأرض قد اتصلت دون عائق من حلب الى أسوان •

وشبيه بذلك ما وقع في الحجاز ، جار مصر الايمن عبر البحر ، فان الأمويين اشتدوا على أهله على ماهو معروف ، فلم يكد عصرهم ينتهي حتى كان الفقر قد ضرب بجرانه على البلد المقدس ، ثم جاء العباسيون فلم يفعلوا له شيئا ذا بال ، بل لم يلبثوا هم الآخرون أن ظلموا أهله بسبب لجوء نفر من الثائرين العلويين اليه واتخاذه مهدا لثوراتهم ، وأظهر مثال لذلك ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب الملقب « بالنفس الزكية » ، فقد امتنع عن البيعة للسفاح وأخيه أبي جعفر ، فبعث اليه هذا الأخير جيشا تلو جيش •

ولاشيء يصور نظرة العباسيين لأهل الحجاز في ذلك الحين مثل قول رباح بن عثمان بن حيان ، ابن عم مسلم بن عقبة المري – صاحب وقعة الحرة أيام يزيد بن معاوية – يوم دخل المدينة سنة ١٤١ هجرية : « يا أهل المدينة ، أنا الأفعى ابن الأفعى ! عثمان بن حيان وابن عم مسلم بن عقبة المبيد خضراءكم • المفني رجالكم ! والله لأدعنها بلقعا لا ينبح فيها كلب ! » •

واستمرت الفتنة خمس سنوات قتل فيها محمد النفس الزكية ، وفسدت العلاقات بين العباسيين وأهل الحجاز ، فلم تصف بعد ذلك أبدا • فقد توالت الثورات والفتن والمظالم ، اذ أن بني العباس اعتبروا الحجاز وكر خصومهم ، فلم يزالوا يوالون الحملات عليه حتى قضوا على كثير من معالم العمران فيه •

ولم يكد أمر العباسيين يضعف ، حتى بدأ أهل الحجاز يفكرون في الاستقلال عن الدولة جملة ، وقد سنحت لهم الفرصة أيام الخليفة المقتدر ، فقام رجل من بني سليمان بن داود بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، واستقل بأمر الحجاز ، وأقام فيها دولة السليمانيين في أواخر القرن الثالث الهجري • ولم يقدر لهذه الدولة من العمر الا القليل ، لأن القرامطة هاجموا الحجاز من بلاد البحرين وقضوا على دولة السليمانيين سنة ٣١٧ هجرية ، وأقاموا الخطبة لعبيد الله المهدي خليفة الفاطميين في المغرب !

ولم يدم ذلك طويلا ، لأن موجة القرامطة لم تلبث أن انحسرت ، وعاد الأمر للعباسيين في عهد الراضي بن المقتدر سنة ٣٢٧ هجرية ·

كانت الدولة العباسية اذ ذاك في حالة من الضعف بالغة ، ولم يكن لدى خلفائها أمل في بعث دولتهم من جديد ، وأصبح كل همهم أن يحافظوا على سلطانهم في العراق ، وأن يتخلصوا من سلطان الترك الذين غلبوا عليهم · وكان الحجاز بالنسبة لدولة ضعيفة كالدولة العباسية بلدا بعيدا ثقيل التكاليف ، ثم ان اصلاح أحواله يتطلب مالا ، ورعاية الحجاج تتطلب عناية ونفقة ·

في ذلك الحين ، بدا لخلفاء بني العباس أن الحل المعقول لمشكلة الحجاز هو أن يضموه الى مصر ، ويعهدوا في ادارة أموره الى محمد بن طغج الاخشيدي الذي كان قد أقام دولته الاخشيدية في مصر واستبد بها ، وأرغم العباسيين على محالفته والاعتماد عليه ، فاسندوا ولاية مكة والمدينة اليه ، وخطب لصاحب مصر على منابر الحجاز مع الخليفة العباسي · وبذلك أصبحت الدولة المصرية تشمل مصر والشام والحجاز ، وارتسمت هذه الحدود السياسية التي تحدد جانبا من حدود مصر الحضارية ناحية الشرق ·

من ذلك الحين يبدأ ارتباط مصاير مصر والحجاز ، وهو ارتباط دام طوال العصور الوسطى ، عدا فترات متقطعة انفصل الحجاز خلالها عن مصر ·

ومن ذلك الحين أصبحت مصر تعتبر نفسها مسئولة عن الحرمين الشريفين وأهلهما ، واتسعت حدود مصر الشرقية فضمت الحجاز وأصبحت حماية الحرمين ضرورة لازمة لحكام مصر ، استمرت حتى خلال العصر العثماني ، فكانت مصر هي المسئولة عن مهبط الوحي ، وكان عاملها مكلفا بأن يعني بأمر الحاج ويقوم على المسجد الحرام ومسجد المدينة ومزارات المسلمين ·

ولابد أن نقول ان ارتباط مصر بالحجاز لا يعني قط أن المصريين كانوا هم الذين يحكمونه ، لأن حكام الحجاز كانوا الشرفاء العلويين · تعاقبت أسراتهم على حكم الحجاز واحدة بعد واحدة ، ولم يتدخل سلاطين مصر في أمر الحجاز الا في حالات وقوع الحروب الطويلة بين المتنافسين على امارة مكة من الشرفاء الحسنيين ، أو في حالات المجاعة الشديدة · وقد انتهى هذا الوضع والحمد لله عند قيام الدولة السعودية وتوحيدها الجزيرة تحت لوائها وتوليها أمور الحجاز ·

ومن لطائف مصادفات التاريخ أن البيت العتيق بناه ابراهيم واسماعيل بن هاجر المصرية ، ثم جدد بناؤه على عهد الرسول صلوات

الله عليه ، وعنى به بعض الخلفاء العباسيين بعض العناية ، ثم قامت عليه مصر بعد ذلك ، فبنته على أيام الظاهر بيبرس ، وأنفقت عليه مالا جليلا ، بل قام سلطان مصر بيبرس يبنى بيديه مع البنائين ، ثم تصدع بنيانه أيام الأتراك العثمانيين ، فقام المصريون على بنائه ، وأرسل والى مصر كل ما يلزم لهذا البناء ، وبعث بالبنائين ، ثم اعيد بناؤه على أيدى المصريين أيام محمد على ، حتى هذه المرة الأخـــيرة التى قامت المملكة العـــربية السعودية فيها ببناء ذلك البيت الاكرم ، قام البناء على تصميم وضـــعه مصرى ورسم فى القاهرة ونفذ فى الحجاز على أيدى مهندسين مصريين ·

ولم تقف حدود مصر السياسية فى جزيرة العرب عند الحجاز ، وأنا لا أتحدث عن هذه الحدود السياسية الآن لذاتها ، فهى بنفسها لا تعنى شيئا ، وانما المهم عندى أنها ترسم لنا خطوطا ــ ولو تقريبية ــ للحدود الحضارية ، وهى لباب التاريخ ولحمة النسب بين الأمم ·

لقد وصـــلت هذه الحدود الى بلاد البحـــرين ، وقد بدأ ذلك أيام الفاطميين وقبل أن ينتقلوا بدولتهم الى مصر ، فقد أطاعهم القرامطة ، واستشاروهم فى بعض ما أهمهم من أمور دولتهم ، ومثال ذلك ان أبا طاهر القرمطى لما توفى سنة ٣٣٢ هـ · اختلف القرامطة فيمن يولونه أمرهم ، وكتبوا الى الخليفة الفاطمى « القائم » يسألونه ، فأشار بتولية ابنه أحمد ، فكان ما أشار به · وبعد ذلك بسنوات طلب الخليفة المنصور الى أحمد بن أبي طاهر أن يعيد الحجر الأسود الى مكانه ، فأطاع وأعاده ، وبذلك انتهت هذه الفعلة الشنعاء الوحيدة من نوعها فى التاريخ : سرقة الحجر الأسود من الكعبة على يد القرامطة ، انتهت وعاد الحجر الى مكانه بفضل الخليفة الفاطمى ، وبفضل نفوذه فى البحرين · فاذا ذكرنا الى جانب ذلك أن الخليفة العباسى المعتضد بذل أقصى ما استطاع من الجهد لاسترداد هذا الحجر دون جدوى ، بل عرض على القرامطة خمسين ألفا من الدنانير فى مقابل رده فرفضوا ، لتبينا أن سلطان الخليفة الفاطمى ــ على بعد بلاده ــ كان أقوى من سلطان الخليفة العباسى على بلد قريب منه كالبحرين · نعم ان العلاقات ساءت بين الفاطميين وقرامطة البحرين بعد ذلك ، ولكن ذلك لا يقلل من أهمية الحقيقة التى ذكرناها ·

بل وصلت الدعوة الفاطمية من مصر الى عمان ، وخرج من القاهرة دعاة ينشرون مذهب العبيدى : حدث ذلك أيام الخليفة المستنصر ــ سنة ٤٦٩ هـ ، على وجه التحديد ــ عندما بعث المستنصر الى المكرم بن على ابن محمد الصليحى صاحب اليمن يأمره بتولى شئون ولاية عمان ، وكان الاضطراب قد سادها بعد ذهاب ريح القرامطة · وأقامت الدولة الفاطمية داعيا رسميا لها فى عمان يسمى اسماعيل بن ابراهيم بن جابر ، ومن عمان أرسل الفاطميون أحد دعاتهم الى الهند ! واذا كانت الدعوة الفاطمية هى الصورة التى اتخذتها الثقافة الرسمية فى ذلك الحين ، فمعنى ذلك أن حدودنا

الثقافية وصلت الى الخليج العربى ، وان وطننا المصرى كان فى العصور الوسطى فعلا مركز اشعاع ثقافى بعيد المدى شرقا وغربا وجنوبا ٠

وقد تجدد ذلك الاشعاع الثقافى المصرى الشرقى فى العصر الحديث عندما وصلت حاميات مصرية الى الخليج العربى ، واعلت سلطان مصر هناك أيام محمد علي فيما بين سنـــتى ١٨٣٠ ـ ١٨٤٠ وقد انتهى هذا التدخل المصرى فى شئون الجزيرة بقيام الدولة السعودية المباركة بإذن الله ٠

فكاننا لا نفعل اليوم جديدا ان نبعث بابناء مصر من الأســاتذة والمعلمين ليقوموا بالتعليم فى دول الجزيرة العربية حتى الخليج العربى ، وكان هذه رسالة حقيقية لمصر ، قامت بها فى العصور الوسطى ، وتواصلها فى العصر الحديث ٠

ولنتذكر ان اليمن دخلت فى نطاق نفوذ مصر السياسى فى العصــر الفاطمى ايضا ، ذلك ان الدولة الزيدية التى قامت فى اليمن خلال النصف الأول من القرن الثالث الهجرى (التاســع الميلادى) ضـــعف أمرها ، وانقسمت الى دويلات فى آخر ذلك القرن ، فانتهز دعاة الفاطميين الفرصة، ومازالوا يوالون ارسال الدعاة حتى تمكن امر المذهب الفاطمى فى اليمن ، وفى سنة ٢٧٩ هـ دخل فى هذه الدعوة رسميا عبد الله بن قحطان بن أبى يعفر امير اليمن ، وخطب للخليفة الفاطمى على منابر اليمن سنة ٣٨٧ هـ٠ وقد ظهر ذلك النفوذ المصرى بصورة واضحة جدا أيام الدولة الصليحية التى انشاها على بن محمد الصليحى نائبا عن الخليفة المصرى فى حكم اليمن ٠

ومن طريف ما يروى ان المكرم احمد الصـــليحى قبيل وفاته بعث زوجه المعروفة فى التاريخ باسم « السيدة الحرة » الى المستنصر تساله ان يوافق على اقامة ابنها مكانه ، فاقرها المســـتنصر على ما طلبت ، واعتبرها وصية على ابنها وقائمة بالدعوة الفاطمية وشئون الحكم المصرى فى اليمن ولقبها بملكة ملوك اليمن ، واطاعها آل الصليحى ومنافسوهم آل الرواحى ، مما يدل على ان هذه « السيدة الحرة » كانت شخصية قوية مطاعة مرهوبة الجانب ، وكانت المكاتبات المصرية تخاطبها بالقاب فريدة فى بابها ، فكانت تقول : « ٠٠ امير المؤمنين يرد السلام على السيدة الحرة الملكة الرصينة الزكية ، وحيدة الزمن ، سيدة ملوك اليمن ، عمدة السلام ، ذخيرة الدين ، عصمة المسترشدين ، كهف المستنجدين ، ولية امير المؤمنين ، وكافلة أوليائه الميامين ! » ٠ ومضت هذه السيدة الفاضلة تكافح من حولها من امراء اليمن ، وتبعث الرسل يحملون الدعوة الفاطمية الى كل نواحى بلاد العرب ، بل ارسلت الدعاة الى الهند ، حتى توفيت سنة ٥٣٢ هـ ٠ فاخذ سلطان مصر السياسى هناك يضعف ، ولكنه لم يتلاش نهائيا الا حوالى سنة ٥٧٠ هـ ٠

وقد اتصل نفوذ مصر فى الشام والحجاز على ايام المماليك ، بل بسط الظاهر بيبرس وخلفاؤه سلطانهم على ارمينية وملكوا بلاد الارمن ، وتولى المماليك البرجية حماية الامارات الواقعة شمال الموصل والشام ، وبعض امارات اسيا الصغرى ، واستمر ذلك حتى العصر العثمانى ٠



وقد وقفت طويلا عند هذه الناحية ، لأن الشائع المعروف هو أن النتيجة الأولى للفتح العربي هى سيادة بلاد العرب على مصر ، والواقع خلاف ذلك ٠ فقد سيطرت الخلافات الشرقية ، ما بين راشـدية وأموية وعباسية ، على مصر قرنين ونصفا فحسـب ٠ ومنذ أن قامت الدولة الطولونية سنة ٢٥٤ هجرية بدأت مصر تمتد شرقا فى ظلال الاسلام ، ومدت حدودها فى معظم تاريخها خلال العصور الوسطى الى الفرات ، بل اقيمت الخطبة باسم خليفة مصر فى بغداد يوما ما ! وتولت مصر رعاية الأراضى المقدسة ، وادخلت الحجاز فى بلادها ، ومدت سلطانها على اليمن والبحرين وعمان فترة طويلة أو قصيرة ٠

وهذه الامتدادات الشرقية المصرية لم تكن سياسية فى صـميمها ، بل كانت ثقافية ايضا ، لأن مصر كانت قد تحولت الى قاعدة الثقـافة العربية والعلم الاسلامى ، فكانت تنشر علمها فى كل ناحية وصـلت اليها ، وهى قد ازالت الحدود السـياسية بينها وبين الشـام والحجاز واليمن ، فاصـبح رجال العلم من أهل تلك البلاد يفدون الى مصـر ليتعلموا ٠ وكلما تقدم الزمن وتزايدت الاخطار على البلاد المشـرقية : العراق والشام وجزيرة العرب تحولت مصر الى ملجأ للعلم الاسلامى كله ، وفر اصحاب الكتب بكتبهم الى بلادنا ٠

فلا غرابة ــ وال حالة هذه انك تجد ما يزيد على ثلث المخطوطات العربية فى مصر وحدها ، والباقى موزع على بقية بلاد العالم شـرقا وغربا ٠ ومصر لم تحصل على ذخائر الاسـلام هذه بناء على سياسة خاصة رسمها حكامها ، ولا تنفيذا لخطة بعيدة المدى ، كهذه الخطط التى ترسمها الدول أو الجماعات اليوم ، وانما جمع المصريون ذلك كله مدفوعين باحساس عميق خامر نفوسهم ، وهو انهم قومة على هذه الثقافة الاسلامية كلها ، وان الحفاظ على تلك الكنوز انما هو جـزء من رسـالة بلدهم الخـالدة ٠

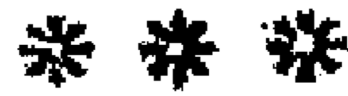
وكما حافظت مصـر على تراث الحضـارة المصـرية القديمة آلاف السنين فى الأعصر الموغلة فى القدم ، حافظت على تراث الحضارة الاغريقية فى حرص بالغ ، فقد كانت اضواء حضارة الاغريق تخبو فى اثينا واسبرطة وكورينثة ، ولكنها كانت تتألق فى الاسـكندرية ٠ وحدث ذلك بالنسـبة للحضارة المسيحية : تصـدى رجالنا للنضال عنها ، وحافظنا عليها ،

صافية سليمة من الأوشاب ، وتابعنا رسالتنا الخالدة في ظلال الاسلام ، فحافظنا على تراثه ورعينا كنوزه منذ اكرمنا الله بدعوة الاسلام الى اليوم ·

واذا كانت حضارات المصريين والاغريق والمسيحيين الأول والاسلام هي جماع الحضارة العالمية حتى العصر الحديث ، فمعنى ذلك أن مصر كانت طوال تاريخها راعية الحضارة وحارسة تراث البشر · وهذا الذى حدث في الماضي يرسم لنا خطوط رسالتنا في حاضـــرنا ومستقبلنا باذن الله ·

ولعل اغرب مصتـــداق لذلك ان كل المخطوطات العربية التي توجد اليوم في مكتبات أوربا وامريكا ، قد اشتريت خارج مصر ، وأن تجار المخطوطات وبعثات جمعها من أهل الغرب لم يشتروا من مصر الا قليلا جدا ، وأمامك مقدمات فهارس المخطوطات في أوربا وأمريكا ، تستطيع أن تتبين منها أن المصريين لم يبيعوا شيئا من تراث العرب بمال ، وليس المصريون أغنى من غيرهم ممن باعوا المخطوطات العربية بالألوف ، ولكن المصرى يشعرفى قرارة نفسه انه امين على هذا التراث العربى ، وهو قد يعوزه المال وتقسو عليه الأيام ، فيبيع اثاث بيته ، ولكنه لا يبيع مخطوطا !

وشيء آخر تستطيع ان تتخذه برهانا يؤيد ما ذكرت ، هو ان فوق التسعين في المائة من الكتب العربية المطبوعة قد تم طبعها في مصـــر ، والعشرة في المائة الباقية طبعت في بقية بلاد العالم الاسلامي كلها ، هذا مع أن المصرى لم يشتهر بالمهارة في تجارة الكتب ، واذا كان هناك من يكسبون من نشر الكتب العربية ، فان المصرى دون شك آخرهم ! فاذا كان المصرى قد قام على طبع هذه الكتب ونشرها ، فانما دفعه الى ذلك احساس قلبى بانه يؤدى رسالة قومية ، رسالة مصر في الوجود ، وانظر الى ما يفعلونه في لبنان وغير لبنان من اعمال القرصنة في النشر والعدوان على حقوق المؤلفين العرب دون أدنى حياء ·



وفي العصر الحديث عادت مصر فاسترجعت حدودها الثقافية كما كانت عليه قبل الغزو العثمانى ، وقد مهدت لذلك باســتعادة مركزها الثقافى في الشام وبلاد العرب وخلال القرن التاسع عشر خاضت في سبيل العروبة حروبا طويلة بعضها في السودان ، وخاض جنود مصـــر لتحرير فلسطين حروبا طاحنة في بلاد الشـــام حروبا في آسيا الصـــغرى وبلاد السودان ، خاضوها مع جنود الدولة العثمانية من ناحية ومع القبائل السودانية من ناحية اخرى ، وللمرة الأولى في العصور الحديثة تظهر فكرة بناء دولة عربية جديدة تضم مصر والشام وجزءا من العراق منفصلة

عن الدولة العثمانية . وقد أعلن هذه الفكرة ابراهيم بن محمد علي وكان يقود جيوش أبيه في الشام ، وابراهيم - كما نعلم - كان أصلا تركي الجنسية ألباني المولد ، فمن أين أتته فكرة اقامة الدولة العربية ؟

ليس مصدرها أبوه قطعا ، لأن أباه عندما سمع بالفكرة لأول مرة أنكرها واعتدها من شطحات ابنه القائد ابراهيم ، ثم نسبها الى حاشية ابنه من « العساكر المصرية » كما كان يسميهم ، وكان محمد على لا يرتاح لاختلاط ابنه ابراهيم بالمصريين ومجالسته لهم ، وكان يحذره من رفع الكلفة بينه وبين « أولاد العرب » ، ولكن ابراهيم لم يستمع لنصائح أبيه وزاد صلاته بالمصريين ، ورفع الكثيرين منهم الى درجة أومباشي وضابط صف . ومع أنه من البانيا لا يعرف شيئا من العربية فقد أتقن اللهجة المصرية ، ودرس اللغة العربية على يد معلم ، وتمكن من قراءة المكاتبات الرسمية بها . ومن هنا يمكن أن نقول ان الفكرة جاءت ابراهيم من « أولا العرب المصريين » فقد رأى من شجاعتهم وصدقهم في القتال مع « سلامة نيتهم » - كما يقول - ما مال بنفسه اليهم ، وكان كثير الشكوى من ضباطه الشراكسة ، ولكنه لم يشك قط من « الاومباشية » المصريين (أى العرفاء أو الصف ضباط أو مساعدى الضباط) لأنهم كانوا - كما كان يقول - « في الغاية من القناعة والرضا مع قلة المربوط وسوء الحال » ، وهذا الكلام وارد على لسان على مبارك في « الخطط التوفيقية » .

الفكرة أتت - اذن - من « أولاد العرب » المصريين العاملين في جيش ابراهيم في الشام ، وهم الذين أتموا فتح الشام وكسبوا انتصارات نصيبين وقونية وأبعدوا العثمانيين عن أرض الشام وتتبعوهم في آسيا الصغرى حتى شاطيء البوسفور . وفي أثناء ذلك تحدث ابراهيم عن ضرورة تغيير نظام الحكم في بلاد الشام التي عادت للحكم العربي من جديد ، وقال ابراهيم انه لابد من استبدال الموظفين الأتراك بموظفين من أولاد العرب ، ولابد أن يستعيد العرب مكانهم في الجيش . وعندما وقعت معاهدة كوتاهية سنة ١٨٣٢ م اعترفت الدولة العثمانية لمحمد على بملك مصر والشام واضيفت ولاية أطنة الى ابراهيم . وبهذا - وللمرة الأولى منذ قرون طويلة - عادت دولة العرب الى الظهور ، واتحدت مصر والشام تحت لواء مصرى . فاذا تذكرنا أن ملك مصر كان يمتد - اذ ذاك - مع النيل جنوبا حتى بحيرة فكتوريا ، رأينا كيف استطاعت مصر - عندما أتيحت لها فرصة مواتية - أن تعيد دولة العروبة بعد أن كان الأمل في بعثها قد كاد ينقطع .

ولكى يتبين لك مدى القوة الدافعة الكامنة فى كيان مصر العربية ، فلنذكر أن مصـــر كانت قبل احـــدى وثلاثين سنة فحســـب من ذلك التاريخ ـ أى سنة ١٨٠١ ـ قد تخلصت من الاحتلال الفرنسى لتعود الى ملك الأتراك ، وخيل للناس أن عهود الركود والمظالم عادت من جديد ، والجبرتى نفسه ـ مؤرخ ذلك العصر ـ رحب بالعودة الى الخضـــوع للأتراك فى كتاب « مظهر التقديس » الذى كتبه فى ذلك الحين ، وما درى أن فى مصر من القوة الكامنة ما كان يعجزهو وغيره عن تصوره . ففى سنة ١٨٠٥ ؛ أى بعد اربع سنوات فحســـب من فراغه من كتابة ذلك الكتاب الضعيف المتكلف الذى لا يليق باسم الجبرتى ، قامت دولة مصر الحديثة . اقامها شعب مصر عندما عين محمد على واليا على مصر وارغم الدولة العثمانية على الاعتراف به وتثبيته . وبعد ذلك عادت مصر العربية الى السير فى مسارها الخالد : مسار النظام والحضارة والعروبة والشخصية المســـتقلة .

وعقب ذلك مباشـــرة بدأت النهضـــة السياسية والاجتماعية فى تاريخ الشـــرق العربى كله ، لأن نهوض مصـــر فى القرن التاسع عشر كان ايذانا بنهوض العـــرب أجمعين . وهذه فى ذاتهـــا حقيقة نرجـــو ألا تخفى على أحد ممن يدرســـون تاريخ العرب والمســـلمين : ان مصر منذ دخلت فى اســـرة العروبة والاســـلام واســـتقام أمرها كامة عربية اســـلامية ابتداء من القرن الثالث الهجرى / التاســـع الميلادى « عند قيام دولة آل طولون) اصـــبحت شـــيئا فشـــيئا قلب العالم العـــربى ومركز الاســـلام ومجمع المعـــارف وملتقى أهل الدين والعـــلم والفن فى عالم الاسلام .

واليك حقيقة تؤيد ما نقول : فقد فتحت جيوش مصـــر الشـــام ســـنة ١٨٣٠ بقيادة ابراهيم بن محمد على كما ذكرنا ، وحكم ابراهيم الشام حتى سنة ١٨٤٠ ، وخلال هذه السنوات العشـــر نشـــر ابراهيم فى الشـــام الأمان والتســـامح ، وتمتع الناس بحرية لم يعرفوها من قبـــل . وفى ظل هذه الحـــرية بدأت جمـــاعات التبشـــير الأوروبيـــة والأمريكية تنشىء مدارســـها فى الشـــام ، وفى هذه المدارس كان البعث الفكرى العـــربى فى الشـــام ، وكل ما يتحدثون به عن البعث العـــربى فى بلاد الشـــام انما بدأ خلال عشـــر سنوات فقط من الحكم المصرى . ولولاه لما ظهـــر فى الشـــام بطرس وســـليمان البســـتانيان ولا ابراهيم وناصـــيف اليازجيان ، ولا وجدت هذه الحـــركة الجليلة التى تعتبر التيار الثانى للبعث العربى الحـــديث ، الى جـــانب التيار المصـــرى المعروف . وما انا باول من يقول ذلك ، وانما انقل هنا كلام فاتيكيوتس Vatikiotis استاذ الدراسات العربية بجامعة لندن .

وخلال القرن التاسع عشر كله قامت مصر بنهضتها الكبرى وحملت عبء البعث العربي : هنا بدأت حركة الترجمة والاقتباس ، ومن هنا سار موكب العرفان • ولقد اشتركت مصر والشام في هذا البعث العربي الجديد ، وقام الشام (سوريا ولبنان وفلسطين والاردن) فيه بدور جليل ، واطلع اعلاما لا تنسى العروبة فضلهم ، ولكن مصر قامت بالنصيب الأكبر والقدر الأوفى ، ولو انك اطلعت على عدد الكتب التى طبعت في مطبعة بولاق خلال القرن الماضى لأدركتك الدهشة من أن المصريين استطاعوا أن يخرجوا هذا الحشد الهائل من الكتب في كل علم وفن ، على الرغم من ظروف غير مواتية ورواتب لا يكاد يغنى • ولقد قام أولئك الأبطال المجاهدون بذلك العمل المجيد في صبر وانكار للذات يبعثان على الاجلال ، فقد كان رفاعة رافع الطهطاوى وتلاميذه يترجمون الكتاب بعد الكتاب ، ويدفعون الى المطبعة بالسفر بعد السفر في تواضع غريب • ولو قرأت المقدمات المتواضعة التى كانوا يجعلونها بين يدى كتبهم لتبينت بوضوح أن أولئك الرجال كانوا يشعرون شعورا واعيا بأنهم يؤدون نصيبهم من رسالة مصر الخالدة ، وهذا ظاهر بكل وضوح في كتاب رفاعة رافع المسمى « مباهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية » •

وقد اتسعت حدود الشرق في العصر الحديث ، فتقاربت بلاد كان الناس لا يتسامعون بها الا في الأخبار ، فأصبحت الهند وباكستان واندونيسيا على ساعات من القاهرة ، ونهضت هذه الامم كلها ووعت شعوبها ، واخذ بعضها يتصل بمصر ، فاتسعت حدود رسالة مصر في الشرق ووصلت الى اندونيسيا ، بل الى الفيلبين واستراليا وبلاد أمريكا الشمالية والجنوبية ، واخذت مصر ترسل الاساتذة وائمة المساجد الى هذه البلاد ، واستضافت الجامعات في الدول الافريقية الجديدة الاساتذة المصريين ، واخذت ترسل ابناءها لطلب العلم في مصر ، وقد ظهر ذلك بشكل واضح بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ •

ولقد كانت هذه الثورة صوتا دوى في آذان العرب اجمعين ، فاستيقظ من كان في سبات من ابناء أمة العرب ، وقام ينفض غبار القرون ويتابع السير ، وتجددت الآمال وانتعشت النفوس بعد يأس ثقيل حط على الأفئدة بعد نكبة قيام الكيان الصهيوني في مايو ١٩٤٨ ، وبعد استحكام النكبة نتيجة لتأييد ظالم من امم الدنيا كلها تقريبا لما ارادته الصهيونية من القضاء على شعب عربي كريم اصيل عامل نشيط هو شعب فلسطين •

لقد صاحب قيام هذا الكيان الظالم موجة من الدعوة الكاذبة لما سمى بدولة اسرائيل ، وما كان بنو اسرائيل في يوم من الأيام شعبا موحدا ولا كانت لهم دولة جديرة بهذا الاسم لأية فترة يعتد بها من فترات الزمان ، ولا كان لليهود حرص على أرض فلسطين ولا حب للمقام فيها •

فهم يزعمون أن بختنصر قضى على دولتهم ظلما واخذ شعبهم اسيرا الى بابل حيث عاشوا في النفى الذى يسمى بالدياسبورا ، ولكن ابواب فلسطين فتحت لهم فيما بعد ، وكان يمكنهم أن يعودوا اليها لو كان لهم بالفعل حنين صادق الى ترابها ، ولكن الذين عادوا كانوا نفرا قليلا منهم ، أما الباقى فقد آثروا فراق أرض فلسطين فراقا لا رجعة بعده ، وتفرقوا فى بلاد الأرض طلبا للمال . واما الذين عادوا الى فلسطين فقد حكموا جزءا منها تحت رعاية الرومان ، وكانوا مع ذلك شيعا واحزابا تتنافس على السيادة على جزء من الساحل وجزء من القدس يقوم فيه معبد سليمان عليه السلام ، ووشى بعضهم ببعض واستبد بهم بيلاطس البندى .

وفى ذلك الحين بعث فيهم عيسى بن مريم فلم يؤمن به منهم الا نفر قليل ، ولقد قص القرآن الكريم ما كان من عداتهم لعيسى عليه السلام وحربهم عليه واختلافهم فيه واختلافهم عليه . وانتقل عيسى الى الرفيق الأعلى وهو غير راض عن قومه هؤلاء ، ووقعت الفتنة .

وفى تلك الأثناء ووسط صخب جماعات بنى اسرائيل المتناحرة اختفى الانجيل ، فقام بعض الحواريين وتابعيهم بكتابة ما بقى فى ذاكرتهم وما وصل اليهم من اخبار فى كتب صغيرة هى التى عرفت بالاناجيل . وقد كانت أول الامر كثيرة العدد ثم انتهى أمرها الى نحو عشرة اعترفت الكنائس بأربعة منها هى اناجيل متى ويوحنا ولوقا ومرقس ، وهى التى ضمت نصوصها الى العهد القديم وعرفت بالعهد الجديد مع ما اضيف اليها من بعض مقالات الحواريين وخطاباتهم الى الجماعات المسيحية فى كورينثة وروما وغيرهما .

وما ضيع كتاب عيسى وصرف انجيله الا اختلاف اليهود بعضهم على بعض وسعيهم بعضهم ببعض ، ثم كثر شغبهم على الرومان ، وانتهى الأمر بقيام الامبراطور الرومانى تراجان بتخريب ما بقى من معبد سليمان وتفريق أمر من بقى من اليهود فى أرض فلسطين سنة ٧٠ للميلاد ، فخرج معظم يهود فلسطين منها ولم تبق منهم الا بقية اخذت تنقرض مع السنين ، واندرج الكثير من افرادها فى غرب فلسطين وهم غالبية سكانها منذ الأزمنة السحيقة .

وعندما دخل العرب الشام فاتحين ايام ابى بكر وعمر كانت هذه البقية على وشك الزوال ، فانقذها الاسلام وابقى على ذبالة الحياة فى كيانها ، وانتعشت ودبت فيها الحياة من جديد فى ظل الاسلام بفضل تسامحه . واستظل اليهود فى كل مكان ذهبوا اليه بظل الاسلام حيث

امتدت فتوحه ، ولولا العرب والاسلام وما نعم اليهود به من الأمن فى ظلاله لما بقى على وجه الأرض يهود لهم ذكر ولاندرج ذكـــرهم تحت تراب القـــرون ٠

***

ونعود الى ما استطردنا عنه فنقول :

ان ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قامت لتبعث أمر العـــرب من جديد ، وتوقفهم على اقدامهم لمواجهة الخطر الصهيونى الذى قام فى قلب بلاد العروبة ، ووفقت الثورة الى بعث روح العروبة والأمل فى المستقبل فى كيان شعوب العرب من الخليج الى المحيط ، وتعرضت نتيجة لذلك للهجوم والعـــداوة من جـــانب يهود الأرض الذين كانت آمالهم تطمح بهم الى الاستيلاء على كل فلسطين ثم التوسع فيما يليها من أرض العرب ، لأن الذين وضعوا خطة هذه الدولة من مؤسسى الصهيونية من أمثال هيرتسل وحايم وايزمان فعلوا ذلك فى وقت كان العرب جميعا يرزحون فيه تحت أثقال من تأخر وضعف متزايد فى أواخر دولة آل عثمان ، ثم توزع وطن العروبة الانجليز والفرنسيون أسلابا بعد الحرب العالمية الأولى ، فحسب أمثال هيرتسل أن أمة العرب قد حم قضـــاء الله فيها وانتهى أمرها ، وظنوا أنهم هم الوارثون ٠ ومضى النفر الذين اقاموا الكيان الصهيونى على أرض فلسطين يدعون لهذا الكيان دعوة واسعة ، وشوهوا التاريخ وزعموا أن أرض فلسطين كانت أبد الدهر مجمعـــا لليهود وأن العرب طارئون عليها ، وذهب الأمر ببعضهم أن أنكر انه وجد فى التاريخ قديمه وحديثه شعب يسمى شـــعب فلســـطين ، فاستغلوا جهل الناس بالعرب وتاريخهم ، وانتفعوا كذلك بما بقى فى نفوس بعض أهل الغرب من ذكريات عداوات الصليبيات فمضوا يسوئون سمعة العرب ويصورونهم فى صورة أمة من الهمج لا حضـــارة لها ولا أمجاد ، وصدق الكثيرون ذلك الكذب بفضل ما أتيح لليهود من السيطرة على وسائل الاعلام فى أوربا وأمريكا ، وفى ظلال هذه الدعاية وبأعمال العنف والوحشية وضعوا يدهم على بقية أرض فلسطين وأخذوا يتطلعون الى المزيد ٠

فاذا هم فى ذلك اذا بصيحة هذه الثورة تمزق نسيج الأضاليل وتهيب بالعرب أن ينهضوا ليتجمعوا من جديد ، وهب العرب وتسارعوا يؤيدون هذه الثورة وكان البعث العربى الجديد ٠

وقد طال الصـــراع بين هذه الثورة والصهيونية ودعاتها ووقعت الحرب مرة بعد مرة بينها وبين الكيان الصهيونى ، وفى كل مرة كان العرب يواجهون الهزيمة ويجدون أنفسهم أمام حلف عالمى ضدهم ٠ وفى وقت من الأوقات تصور الناس أن هذا الكيان الصهيونى لا يغلب ، وأن العرب مهما فعلوا فلا مفر لهم من الاعتراف به والتسليم بما يريد ٠

ولقد جاهدت الثورة المصرية منذ قيامها لكسر شـوكة الصهيونية وادعيائها ، ولكن الحلف الغربى وقف لها بالمرصاد حتى دبر لها مكيدة الهزيمة فى حرب يونيو ١٩٦٧ ، وهى مكيدة خسيسة اشترك فيها الغرب كله ضد العرب ، وبعد هزيمة ١٩٦٧ لم يعد يخامر ذهن احد أن العرب سيستطيعون التغلب على الصهيونية يوما من الأيام .

ومضى جمال عبد الناصر للقاء ربه فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ م دون أن يظفر بالنصر الذى عاش يحلم به طول عمره .

وجاءمن بعده الرئيس محمد انور السادات بفكر جديد ورأى جديد وأمل جديد .

وفى صمت وترتيب ونظام مضى يعد العدة ليقضى على اسـطورة القوة الخارقة للكيان الصهيونى .

ولقد وضع ـ بذكائه وخبرته وطول معاناته لحرب الظالمين ـ ثقته كلها فى اصالة شعب مصر وقوته الكامنة ، وقدرته على القيام بكل جليل اذا اتيحت له الظروف ، ووجد الناصح الرشيد والقائد العارف بمكامن القوة فيه ليفيد منها ، وينابيع الايمان ليفجرها . وعرف كذلك أن امة العرب جميعا تنظر الى مصر وتنتظر منها أن تبدأ السير ، فاذا سارت تحركوا معها واتحدت قلوبهم وظهرت قوة العرب للعالمين .

وبينما كانت الدنيا من حوله تتغزى بالنداءات واحلام النصر الذى حسب البعض انه سيجىء بالكلام ، مضى هو يعمل خطوة خطوة فى دأب وصبر عن علم وخبرة وحكمة ، معتمدا على ما عرف من صلابة عود شعبه المصرى ، وما أودع الله فى كيانه من قوة كامنة كمون النار فى الحجر .

ووضع خطته مع أهل العلم بالحروب من قادة مصر وايده فى ذلك بالنفس والمال بطل آخر من ابطال العروبة فى العصر الحديث وهو الملك فيصل بن عبد العزيز حتى اعدوا العدة لضربة تزلزل كيان الطاغية ، وتقع منه موقع ضربة السيف بين العينين .

وفى صمت أيضا مد يدا للاخوة فى الشام ، ورسموا خطة العمل معا فى دقة واحكام .

وكان رجال اسرائيل قد وقفوا بقواتهم على ضفاف القناة منذ يونيو ١٩٦٧ وحسبوا انهم مخلدون هناك الى ابد الآبدين .

وتمكينا لأنفسهم اقاموا على مسافة قليلة من ضـفة القناة حائطا ترابيا سميكا لا تؤثر فيه المدافع لأنه من تراب ، وخلف هذا الساتر الهائل

بنوا ما يسمى بخط بارليف وهو خط استحكامات ودفاعات يمتد من خليج السويس الى البحر المتوسط من خلف الساتر الترابى الذى تصوروا انه سد يأجوج ومأجوج ٠

وقد تفننوا فى احكام هذا الخط حتى جعلوا منه سلسلة حصـــون وقلاع بعضها تحت الأرض وبعضـــها فوقها ، ووضعوا فى هذه القلاع آخر ما توصل اليه البشر من أدوات الحرب : مدافع وقواعد صواريخ وقاذفات لهب ومراكز للدفاع الجـــوى وما الى هذه من أدوات الفتـك والدمار ٠ واضافوا الى ذلك بيوتا كاملة اقاموها تحت الارض لجيش كامل قدروا انه يسكن هذه الحجرات ليتمكن من قهر المصريين اذا حدثتهم انفسهم بالاقتراب من القناة ٠

وفى الســـادس من اكتوبر ١٩٧٣ وبينما اليهود ينعمون بما أقاموا من سدود واستحكامات ، وبينما كانوا يحتفلون بيوم الصـــوم الاكبر المعروف عندهم باسم يوم كيبور ، اذا بأسود مصر الذين اعدهم السادات وأحسن تدريبهم يقتحمون عليهم مأمنهم بما لم يكن يخطر لها ببال : اذا بالمصرى الوادع يتحول ــ بفضل القيادة الحكيمة والاعداد الدائب الصبور ــ الى محارب لا يعرف الخوف ومقاتل يحسن استخدام آخر ما وصل اليه العلم من ادوات الحرب والقتال ، واذا به ــ فى ســـاعات ــ يقتحم القناة ويمد عليها الجسر بعد الجسر ، واذا بأسود مصر يعبرون القناة ويحطمون سد التراب باساليب ما خطرت ببال الصهيونى المستنيم الى أمن الغـــرور ٠٠

وما لبث الساتر الهائل أن تهاوى وحطمه جند مصر ، وانقضوا على قلاع خط بارليف فاقتحموها على أصحابها غير هيابين ولا مبالين بموت أى أصابة مقعدة أو وقوع فى أسر العدو ، وهو أسوأ من الموت فى هذا الصـــــراع ٠

وبعد الاســـتيلاء على خط بارليف وتحصـــيناته اندفع المقاتلون المصريون فى نظام تام وثبات لا يعرف التردد وسمت يدل على ثقة فى النفس واعتياد النصر تقدم المقاتلون يجتاحون صفوف اليهود . ووقع المئات منهم فى الأسر ، وتضعضعت الروح المعنوية عند المتجبرين ، وأرسل قائدهم ــ الذى صـــورته دعايتهم على انه قائد من أعظم القواد الذين ظهروا فى التاريخ ــ الى سادته فى الولايات المتحدة يعلن أن قواته ستستسلم وأن الجيش الاسرائيلى لم يعد قادرا على مواصلة القتال !

كل ذلك اتمه فى أربعة أيام الجندى المصرى مع عدد قليل من زملائه من جيوش العرب وقفوا الى جانب مصر فى ذلك الوقت العصيب ٠

وفى الوقت نفسه كانت قوات جيش سوريا تكتسح الاسرائيليين فى جبل الشيخ مما زاد شعور الصهيونيين بالضياع ٠

وهنا ، والعدو على وشك السقوط ، اسرعت الولايات المتحدة بارسال العون العسكرى غير المحدود الى اسرائيل المتداعية ، وأنشأت جسرا جويا يحمل فى اليوم ثلاثين طنا من العتاد الحربى وكانت الطائرات تهبط فى مطارات انشأها الصهيونيون فى سيناء وفى معظم الحالات كان الأمريكيون يرسلون الدبابات مع سائقها ورجالها والطيارات بطياريها وقطع المدفعية مع من سيستعملونها ٠ وانهال هذا السيل من العتاد والرجال ليعوض خسائر الصهيونيين الفادحة ، وفى لحظة ما أحس رجال مصر أنهم لا يقاتلون اسرائيل بل يقاتلون امريكا نفسها ، وكانت خطة الحرب قد حققت اهدافها ، فاعلن قرار وقف اطلاق النار ٠ وقد استمسك المصريون بما كسبوا وهو شيء عظيم : استعادوا القناة وحطموا خط بارليف واحتلوه وتقدموا الى مسافة تتراوح بين عشرة وعشرين كيلو مترا فى سيناء ، اى انهم انتزعوا مفاتيح شبة الجزيرة من العدو الغاصب وان لهم أن يستريحوا برهة ليثبتوا اقدامهم حيث استقرت وليستعدوا للمسير من جديد ٠

وما ترددت اخبار انتصارات جنود مصر وسوريا حتى نهض العرب جميعا نهوض الاخوة البواسل ، فضموا جميعا صفوفهم ووقفوا امام الدنيا كانهم البنيان المرصوص ، وأسرع رجال دول الجزيرة العربية جميعا فوضعوا نفطهم تحت تصرف رجال المعركة وأوقفوا ارساله الى امريكا ومن وقف معها ، فتزعزع البنيان الاقتصادى الغربى كله وشعر أهل الدنيا جميعا بقوة العرب ومكانهم على هذه الأرض ، وتغير اتجاه التاريخ ٠

وعندما سكن أوار المعركة اخذ العسكريون فى الدنيا كلها يدرسون كيف تحقق هذا الأمر المذهل : دولة كانت تزعم أن لديها اقوى قوة عسكرية فى منطقة الشرق الأوسط ، وبالفعل كان لديها من السلاح كل ما شاءت أو تشاء ، وخزائن الولايات المتحدة مفتحة على مصاريعها امامها تحفن منها كيف تريد ، ويهود امريكا واصدقاؤهم والمخدوعون فيهم من ذوى الخبرة فى الحرب يتوافدون زرافات زرافات لينضموا الى جيش الصهيونية المحارب للعرب ، وروسيا تبعث من عندها الوفا بعد الوف من يهودها لتقوى بهم صفوف العدو ٠ ويهود الدنيا كلها مستعدون لتقديم أى عون مللى لهذه الطغمة الباغية ٠٠ كل هذا حطمه المقاتلون المصريون فى ساعات وبوسائل لا تصل الى عشر ما كان بيد الاسرائيليين ، فكيف تمت هذه العجيبة ؟

ثم كيف تم هذا العبور الفريد من نوعه فى التاريخ ؟ كيف استطاع المهندسون العسكريون المصريون تحقيق هذا العبور باقل خسائر ممكنة مستعملين جسورا عسكرية مما كان يستعمل فى الحرب العالمية الثانية ، لأن روسيا بخلت عليهم بجسور احدث واسرع وايسر تركيبا ؟

وكيف اخترق المصريون ساتر التراب وقد كان من اقاموه يحسبون انه أحصن من أن يخترقه بشر ؟

ثم كيف سقطت تحصينات خط بارليف ، وكانت أعقد خط تحصين عرفه الفن العسكرى الى أيامنا هذه ؟

الجواب عن ذلك كله ماقلناه آنفا من أن المصرى ـ صانع التاريخ من سبعة آلاف سنة ـ قادر على صنعه لعشرة آلاف اخرى اذا اتيحت له الفرصة المواتية : اذا احسن تدريبه واعطى حقه من الثقة والتقدير ، فعاد نور العزة يملأ وجهه بالبشر وصدره بالقوة والامل ، وذهنه بالرأى السديد • فهذا الجندى الذى قام بمعجزة العبور هو ابن الجندى الذى انشأ ملك مصر الشاسع خلال القرن التاسع عشر ورفع رايات بلاده من هرر عند باب المندب ومديرية خط الاستواء حول بحيرة فيكتوريا الى مشارف الآستانة وشبه جزيرة المورة وكريد ، وهو حفيد المقاتل المصرى الذى حطم قوات الصليبيين فى حطين قبل أن يقرر المماليك دخول المعركة ، وهو حفيد المقاتلين الذين كسروا ظهر المغول فى عين جالوت ، وهو الحفيد البعيد للفاتحين وبناة الدولة الكبرى فى العصر القديم : أحمس وتحتمس والرعامسة وجندهم الميامين •

اجل ، وهذا يعرفه من يقرأ تاريخ مصر قراءة فهم وادراك وتفطن لحقيقة شعب هذا البلد ورسالته فى التاريخ •

اجل ، ويعرفه كل من يقرأ تاريخ العرب والاسلام منذ انضمت مصر الى صفوف العروبة والمجاهدين فى سبيل الله •

لأن مصر لم تكن مهد الحضارة وعميدة الأمم عبثا •

فقد عاصرتها فى القيام بالخطوات الاولى لحضارة البشر فى فجر التاريخ امم اخرى فى بلاد الرافدين وسهول الهند والصين •

ولكن المصرى ، هذا الانسان الصلب الذى يجاوز الحد المرجو منه اذا اتيحت له الظروف ، يعرف دائما كيف يحتفظ بثمرات ما يكسب ويواصل السير فى صمت وصبر يزول معه عجب المتعجبين •

وماعرفت أمة من امم التاريخ ما عرفت مصر من عصـــور العزة والنصر والازدهار الحضارى على انفساح اماد التاريخ !

منذ عشرة الاف سنة ونحن فى هذا الموضع من هذا الكوكب ، وقد مرت علينا العصور بخيرها وشرها ، وما قامت لشعب من الشعوب على ظهر الأرض قائمة واشتد له عود الا قصدنا بالاذى حسدا حينا وطمعا حينا وجريا وراء شهرة المرور بمصر حينا ثالثا • فحاربنا ـ على مر العصور ـ الفرس والاغريق والرومان والروم والبيزنطيين والصليبيين والمغول والأتراك العثمـــانيين والفرنســـيين والانجليز والصـــهيونيين والأمريكيين ، وعرفنا حلاوة النصر وتجرعنا غصص الهزيمة حينا بعد حين ، ومازلنا هنا ! مالكين قيادنا بايدينا داحـــرين للجبارين مرغمين انوفهم بالتراب ، وهذا ما جرى للصـــهيونى المتجبر ، على أيدينا جرى ويجرى بين يديك ! فان كنت فى شك من نصيبنا فى شىء من الانتصارات الماضية فهذا انتصار اليوم الباهر ناطق بين يديك وتحت سمعك وبصرك ، ففيم الخلاف واللجاج ؟

وها انت ترى كيف اننا لم نقنع فى يومنا بنصر الميادين ، بل اردفناه بنصر الحضارة والتقدم والرخاء ، وها انت تسمع كل يوم عن معركة البناء والتجديد الى جانب معركة العبور •

فافهم الآن أن تلك رسالة شـــعبك فى الوجود : نصر على الجبابرة وجدع لأنوف الطغاة ثم بناء وحضارة وسعى نحو الرخاء ••

كان هذا دابنا قبل الاسلام ••

وهذا دابنا بعد الاسلام والانتساب الى شجرة العروبة الكريمة •• وسيكون هذا دابنا على طول ما يستجد من اعصر التاريخ ••

والمسئولية فى ذلك كله تقع عليك يا ابن مصر العزيز •

فان كنت عارفا بحق مصر مدركا لقدرها شاعرا بالحب لها مؤمنا بالتضحية فى سبيلها فها هى مصر وديعة بين يديك ، فارفع لواءها وسر تحت رايتها ، سر مع مصر المحروسة المظفرة الى حيث يريد الله لها من عزة وكرامة ••

وسبحانه خلق الكنانة وهو راعيها ••

وتبارك جل شانه حين خلق وحين رعى ••

وطوبى لمن عرف حق مصر وقام بواجبه نحوها ••

وتحية الى شهداء العبور وأبطال العبور ..

وتحية الى شهداء مصر على مر العصور ..

***

وأحب – قبل أن أنتقل من هذا الفصل – أن آتى بعبارة أوردها عمر بن محمد بن يوسف الكندى فى كتابه المسمى « فضائل مصر » ، قال : « ذكر مصر وفضلها على غيرها من الأمطار »

وأما ذكر مصر وفضلها على غيرها من الأمصار وماخصت به وأوثرت به على غيرها ، فروى أبو بصرة الغفارى(١) قال : مصر خزانة الأرض كلها ، وسلطانها سلطان الأرض كلها ، قال الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام : « اجعلنى على خزائن الأرض انى حفيظ عليم » .

ولم تكن تلك الخزائن بغير مصر ، فأغاث الله بمصر وخزائنها كل حاضر وباد من جميع الأرض .

وجعلها الله تعالى متوسطة الدنيا ، وهى فى الاقليم الثالث والرابع ، فسلمت من حر الاقليم الأول والثانى ، ومن برد الاقليم الخامس والسادس والسابع ، فطاب هواؤها ، ونقى جوها وضعف حرها ، وخف بردها ، وسلم أهلها من مشاتى الجبال ، ومصائف عمان ، وصواعق تهامة ، ودماميل الجزيرة ، وجرب اليمن ، وطواعين الشام ، وغيلان العراق ، وعقارب عسكر مكرم(٢)، وطهب البحرين ، وحمى خيبر، وأمنوا من غارات الترك ، وجيوش الروم وطوائف العرب ، ومكائد الديلم ، وسرايا القرامطة، وبثوق الأنهار وقحط الأمطار ، وقد اكتنفها معادن رزقها ، وقرب تصرفها ، فكثر خصبها ، ورغد عيشها ، ورخص سعرها .

وقال سعيد بن أبى هلال(٣) : مصر أم البلاد ، وغوث العباد ، وذكر أن مصر مصورة فى كتب الأوائل ، وسائر المدن مادة أيديها اليها تستطعمها .

وقال عمرو بن العاص : ولاية مصر جامعة ، تعدل الخلافة .

---

(١) صحابى معدود فيمن نزل مصر من الصحابة .

(٢) بلد بخوزستان .

(٣) سعيد بن أبى هلال الليثى أبو العلاء المصرى : روى عن نافع ، وروى عنه الليث . مات سنة ١٤٩ هـ .

وأجمع أهل المعرفة أن أهل الدنيا مضطرون الى مصر يسافرون اليها ، ويطلبون الرزق بها ، وأهلها لا يطلبون الرزق في غيرها ، ولا يسافرون الى بلد سواها ، حتى لو ضرب بينها وبين الدنيا لغنى أهلها بما فيها عن سائر بلاد الدنيا .

وروى عن حيوة بن شريح ، وعقبة بن مسلم ، حديث يرفعه الى الله عز وجل يقول يوم القيامة لساكني مصر فيما يعدد عليهم من نعمته : « ألم أسكنكم مصر ، فكنتم تشبعون من خبزها وتروون من مائها ؟ أمسكوا على أفواهكم » .

وقال يحيى بن سعيد : جلت البلاد فما رأيت الورع ببلد من البلدان أعرفه الا بالمدينة ومصر ..

وقال خالد بن يزيد(١) : كان كعب الأحبار يقول : لولا رغبتي في الشام لسكنت مصر ، فقيل : ولم ذلك يا أبا اسحاق ؟ فقال اني لأحب مصر وأهلها ، لأنها بلدة معافاة من الفتن ، وأهلها أهل عافية ، فهم بذلك يعافون ، ومن أرادها بسوء كبه الله على وجهه ، وهو بلد مبارك لأهله فيه .

وروى عن شفي بن عبيد الأصبحي أنه قال : مصر بلدة معافاة من الفتن ، لا يريدهم أحد بسوء الا صرعه الله ، ولا يريد أحد هلكهم الا أهلكه الله .

وذكر أهل العلم أنه مكتوب في التوراة : بلد مصر خزانة الله ، فمن أرادها بسوء قصمه الله .

وقال ابو الربيع السائح : نعم البلد مصر ! يحج منها بدينارين ، ويغزى منها بدرهمين — يريد الحج في بحر القلزم ، والغزو الى الاسكندرية وسائر سواحل مصر .

وذكر يحيى بن عثمان ، عن احمد بن عبد الكريم ، قال جلت الدنيا ورأيت أهلها ، ورأيت آثار الأنبياء والملوك والحكماء ، ورأيت بناء كسرى وقيصر وغيرهما من ملوك الأرض ، ورأيت آثار سليمان بن دواد عليهما السلام ببيت المقدس وتدمر والأردن ، وما بنته الشياطين بتدبير النبوة ، فلم أر مثل برابي مصر على حكمتها ، ولا مثل الآثار التي بها ، والأبنية التي لملوكها وحكمائها » .

***

ولى اليك رجاء أحب ألا تنساه أبدا

---

(١) هو خالد بن يزيد الجمحي ابو عبد الرحمن المصري . روى عن عطا ، وروى عنه الليث . مات سنة ١٣٩ هـ .

وهو انك وحدك لا تستطيع الا القليل ، ولكنك تستطيع الكثير اذا أنت ضممت جهدك الى جهد أخيك · وانت مهما فعلت لتغنى وحدك فستظل فقيرا ، لأن الذى ينفع الناس هو العمل الجماعي ، هو وضع المواطن يده فى يد المواطن والعمل معا · وهذه هى فضيلة الغرب الكبرى علينا : انه يعرف قيمة العمل الجماعى ونحن لانكاد نشعر بروح الجماعة ·· وكل منا يفكر وحده ويعمل وحده ، كأن الله خلق هذه الدنيا كلها له وحده ·

ان العمل الجماعي وحده هو الباقى ، اما عمل الفرد فهو دائما قليل · ومادمت انت تجتهد فى خدمة نفسك وتحسب أن العالم ينتهى عند حدود أسرتك فانت مخطىء فان أسرة جارك هى اسرتك ، ومصر كلها أسرتك ، واذا نحن عملنا متضامنين فنحن فى الحقيقة نبنى العصر الجديد · اذا انت فكرت فى أولادك ففكر ايضا فى اولاد الآخرين لانهم ايضا اولادك · ومصر هذه يمكن ان تكون من اقوى شعوب الأرض اذا آمن اهلها بفكرة الجماعة وتخلصوا من روح الفردية الذى لم نكسب منه شيئا ، وكل مصائبنا الماضية جاءت من نسياننا اننا شعب واحد وجسد واحد · لا فرق فى وطننا هذا بين مصرى ومصرى ، لا العقيدة الدينية تفرقنا ولا القرابة العائلية تنفعنا · انما تنفعنا الوحدة وروح الجماعة ، على قاعدتها ينبغى أن نقيم بناء الحاضر السعيد والمستقبل الأسعد ان شاء الله ·

ودعنا من فلسفة التفوق على الأقران وكيد العدا وكبت الحساد ، فهذه فلسفة الماضى الأليم ، ولتكن فلسفتنا منذ اليوم العمل مع الأقران والتعاون مع الاخوان ووضع اليد فى اليد والحب فى القلب والعمل الجاد المتقن لخير مصر ·

واذكر انك مهما تعط مصر فهى تعطيك اكثر · وانت مهما تفعل فانت لا تضحى فى سبيل مصر لأن فضلها عليك مهما كنت وفعلت سابق ولاحق ·

رسالة مصر : نور وسلام

رسمت لك فى الفصول السابقة حدود الحضارة المصرية ، وتتبعت واياك اتجاهات نشاطها فى ميدان العلم والفن ، وبينت لك أبعاد التاريخ المصرى ، وكيف أن صورة هذا التاريخ لا تكتمل ومقوماتها لا تتم الا اذا قام على هذه الأبعاد الثلاثة ، وجمع بين العناصـــر الأفريقية والبحرية والشرقية التى تتألف منها حضارة مصر على مر العصور •

وقد حرصت خلال هذه الصفحات على أن أبين عنصر الاستمرار فى هذه الحضارة المصرية ، وأن أدلل لك على أن رسالة مصر لم تختلف على طول الزمان وان تعاقبت الأعصر وتغيرت الادهار • فهى فى كل زمان من مراكز الحضارة وحصونها ومهادها ، وأهلها فى كل عصر قومة على تراث الانســانية ، أمناء على جانب كبير مما أبدع البشـــر فى ميادين العمران •

ولعل بلدا من بلاد الأرض لا تصدق على حضارته صفة الاستمرار كما تصدق على مصر ، فان مصر التى ولدت من نحو سبعة آلاف سنة لازالت هى بعينها اليوم : لم يتغير فيها الدين على طول هذه الأحقاب الا مرتين ، ولم تتغير اللغة الا مرتين أيضا ، على حين أن بريطانيا مثلا لا يرجع تاريخها الى أبعد من الفى سنة ، تغير الدين خلالها مرتين واللغة أربع مرات على الأقل ، وأسبانيا يرجع تاريخها الى الفين وخمسـمائة سنة ، تغير الدين خلالها ثمانى مرات واللغة ست مرات • أما جنسنا فلم يتغير فى جملته خلال هذه الأعصـــر الا تغيرات طفيفة ، فى حين أن بلدا كايطاليا تعاقبت عليه أجناس كثيرة غيرت عنصر السكان تغييرا تاما أكثر من مرة •

ونتيجة ذلك أن طبيعة الحياة فى مصر وجوهرها لم يختلفا كثيرا رغم هذه الأحقاب المتطاولة ، بل ان العين تقع اليوم على مشاهد كانت موجودة أيام الفراعنة كما هى اليوم • فلو انك مررت بأحد هذه المحال التى يبيعون فيها آنية الفخار ، ورأيت تلك المجموعات اللطيفة من القلل

والأباريق والأزيار وأصص الزرع والأنابيب الضخمة مرصوصة بعضها فوق بعض على نحو يستلفت النظر ، ووراء هذه الصفوف المتراصة من الآنية يعيش صاحب الدكان وأهله ، اذا رأيت هذا المنظر فثق أن عمره لا يقل عن ثلاثة آلاف سنة ، وأنه كان مألوفا لأجدادك الأقدمين كما هو مألوف لك . أما ريفنا اليوم فالأغلب انه ريف مصر القديمة .

وقد تناول الجغرافى الفذ الدكتور جمال حمدان موضوع « وجود مصر الدائم على مسرح الأحداث العالمية » فى كتابه المبدع « شخصية مصر » ، الذى استوفى فيه الكلام عن العبقرية المصرية وعوامل ثباتها ومحافظتها على مكانها عبر التاريخ ، وتمكن من تحليل أهمية الموقع الجغرافى تحليلا لا يقتدره الا جغرافى مثله بفضل ما وهبه الله من علم واسع فى الجغرافية ونظر ثاقب فيها ، ولقد وصل فى تحليله الى ما سماه « بعبقرية المكان » ، وصاغ بهذا مصطلحا أصبح الآن جاريا فى كل ما يؤلف عن مصر من الكتب ، والجامعية منها خاصة . وقد خطر ببالى أن أعرض هنا موجزا لآرائه وأنظاره ، ولكنى وجدت الكتاب نفسه فى طبعته الأولى خلاصة مركزة لا يمكن اختصارها ، فرأيت أن أنصح القارىء بأن يقرأ تلك الطبعة الأولى من ذلك الكتاب القيم لأن الدكتور حمدان عاد فكتب نفس الكتاب فى ملحمة علمية طولها ثلاثة آلاف صفحة لا يصبر على قراءتها الا القليلون ، فدراسة الدكتور حمدان تكمل موضوع كتابى هذا وتفتح أمام المؤرخ آفاقا جديدة فى النظر الى مصر ومكانها فى التاريخ وشخصيتها بين الأمم ، وشخصية المصرى نفسه وتحليلها . وهذا — فى رأيى — مبحث ينبغى أن نطرقه يوما ما ، ولم يقف بى عن ولوجه الا انى رأيت أن كل المباحث التى كتبت عن شخصيات ابناء الأوطان لم تصل الى نتيجة يمكن أن تسمى علمية ، وهذا هو الذى حدا بجمال حمدان الى أن يكتب عن « شخصية مصر » لا « شخصية المصرى » . وقد كتب عن « الشخصية المصرية » — بهذا العنوان — عباس محمود العقاد فى مقدمة لكتابه عن سعد زغلول ، ولكن ما كتبه — فيما أرى — ليس فى مستوى ما نعرف من حصافة العقاد وعمق تفكيره واتساع آفاق علمه .

ولقد تعودنا أن نقسم تاريخنا الى ثلاثة أقسام ضخمة يختلف بعضها عن بعض أظهر الاختلاف : هناك مصر القديمة ، ومصر الاسلامية، ومصر الحديثة . والحقيقة أن هذا التقسيم لا يطابق الواقع ، وقد آن أن نغيره ، لأننا — مثلا — نذهب الى أن تاريخ مصر الاسلامية ينتهى عند نزول الفرنسيين مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، بل أن بعض المؤرخين يقفون بمصر الاسلامية عند الغزو العثمانى عام ١٥١٧ ، ثم تبدأ — فى حسابهم — مصر الحديثة ، فكأن مصر بعد نزول الفرنسيين أرضها لم تعد اسلامية ! وهذا غير صحيح ، لأن مصر لازالت — ولن تزال — اسلامية ،

ولأن تاريخنا لم ينتقل من الأعصر القديمة الى الأعصر الاسلامية مباشرة ، بل هناك فترة طويلة تعرف بمصر المسيحية ، وهى فترة هامة من تاريخنا ، وحلقة لا يمكن اهمال أمرها فى سلسلة تاريخنا الطويل ٠

والواقع اننا لا يمكن أن نعتسف تقسيم تاريخ مصر ، لأن تاريخ مصر متصل أشد الاتصال بالتاريخ العالمى ، ولابد أن نتبع فى تقسيمه تقسيم التاريخ العام ٠ فنحن أمة صنعت التاريخ أو عاشت فيه عمرها كله ، وهى لم تكن أبدا نسيا منسيا او كما مهملا فى حساب الأحداث ٠ ولم تمر بها - كما مرت بغيرها - فترات تبدو أثناءها وكأنها قد انسيت التاريخ او انسى هو ذكرها ٠ وذلك راجع الى موقعنا الجغرافى ، والتبعات التى يلقيها على اكتافنا هذا الموقع ٠

وقد رأيت فى الفصول السابقة كيف أن مصر كانت خلال هذه الأعصر المتطاولة ، اما صانعة الحضارة البشرية أو حفيظة عليها ، ورأيت فى كلامنا عن مصر وافريقية كيف قام بلدنا - دون أن تكون لسياسة مرسومة - - بأهم دور حضارى فى تاريخ هذه القارة قبل العصور الحديثة ، وكيف أن النور كان ينفذ الى نواحيها من بلادنا ، فى حين هى - فى حساب الدنيا كلها - قارة مظلمة ، ورأيت أن اشعاعات حضارتنا اخترقت الحجب ووصلت الى اقاصى القارة فى صمت ، كما يتسرب الماء الى باطن الأرض ويجرى فيه انهارا ٠ واليوم يحدث مثل ذلك ٠ ففى طول هذه القارة وعرضها ، وفى هذه اللحظة التى تقرأ فيها هذا الكلام ، يصغى الألوف من مواطنينا الأفريقيين الى الاذاعة المصرية ، وتقرأ الوف اخرى من المحيط الاطلسى الى عدن نفس الصحف والمجلات التى تقرؤها انت ، وثق انه ليس فى هذه القارة انسان الا يداعب خياله حلم المجىء الى القاهرة ٠

ورأيت فى الكلام عن علاقتنا بالبحر المتوسط وحضارته أننا وضعنا اساسها وطباقها الأولى ، وساهمنا فيها برافدين كبيرين ، واننا لم نفقد مكاننا الطبيعى فى البحر الا مرة واحدة ، هى التى جرت علينا فيها مصيبة الاستعمار ، وفيما خلا ذلك لم يخل مكاننا فى عالم هذا البحر المتوسط حتى فى العصور التى يخيل الينا انها عصور هبوط ، كعصر الحكم الرومانى ، فقد كانت مصر خلال نصفه الأول أعظم بلاده فى ميدان الطب ، وكان اباطرة الرومان اذا أعياهم الداء بعثوا فى طلب طبيب مصرى ، وفى نصفه الثانى تألق نجم مصر المسيحية ، وقادت عالم النصرانية كله فى كفاح المذاهب ، بل ظل بلدنا محتفظا بعبقرية البناء والانشاء ، فلما احتاج جستنيان مهندسا يصمم له كنيسة اياصوفيا ، لم يجد غير مهندسين اسكندريين هما اللذان وضعا « المشروع » كما يقولون ، واذا كانت الامبراطورة تيودورا هى أعظم شخصية فى التاريخ البيزنطى ، فان نصيب مصر فى هذه العبقرية عظيم ، لأنها قضت أحسن سنوات شبابها فى بلادنا ، وأخذت عن أحبارنا ، وعاشت عمرها كله بعد ذلك شديدة الحب لبلدنا ٠

ورأيت في الكلام عن الشرق أن حدود حضـــارتنا تراحت الى أبعد مما يطمح اليه الخيال ، وان هذه الحدود قد وصلت الى الخليج العربي وبلاد الرافدين ٠

وهذه الحقائق كلها التي تحدد لنا رسالتنا الحقيقية في هذا الوجود ٠ وأنا لم أحاول أن اتخير الأمجاد واجمعها ثم أقول : هذه هي رسالة مصر ! انما رأيت أن أسرى بك خلال تاريخنا الطويل لنتعرف اتجاهاته وأبعاده وأعماقه ، وعلى ضوء هذه الاتجاهات وفي حدود تلك الابعاد والاعماق ، نرسم رسالتنا في الحاضر والمستقبل وهذا الذي فعلناه شــبيه بما يفعله الوالد اذا أراد أن يوجه ابنه التوجيه الصحيح ، فهو يلاحظه ليستبين ميوله ، ويتحدث اليه ليستطلع نزعات نفسه ، وهذه وتلك تحددان الطريق الذي ينبغي أن يسلكه في الحياة ٠

واذا جاز لنا أن نصدر حكما على هذا التاريخ في مجموعه ، فهو أن مصر بلد له رسالة معينة في الوجود ، تتلخص في كلمتين اثنتين : النور والسلام ٠٠

فأما رسالة النور فقد رأيت مصاديقها بما فيه الكفاية في أطواء هذا الحديث ، وأما رسالة السلام فسنتحدث عنها بعد قليل ، ولكن يكفي أن أقول لك سلفا أن أبســـط براهينها هي أن ديانات مصـــر القديمة ديانات محبة وسلام ، وليس في آلهة مصر القديمة آلهة تكره البشر وتغار منهم وتحقد عليهم كما كان الحال مع أرباب الاغريق والرومان والجرمان ، ثم اننا تركنا هذه الارباب عندما ظهرت المسيحية تدعو الى المحبة والاخاء ، ثم انتقلت غالبيتنا الى الاسلام وهو دين الســـلام ، مثله في ذلك مثل المسيحية ، ولا تنس أبدا أن أخاك القبطي أخوك في وطنك ، وأنك اذا كنت مسلما فلأن أباك مسلم ، ولو كان أبوك غير مسلم لنشأت على دينه ففيم الفخر اذن ؟ انما يكون همك أن تكون مسلما صالحا ، والمسلم الصالح لا يتعصـــب ولا يفتر ، وانمـــا هو يعـــرف أن الدين لله وأن الله لو شاء أن يجعل الناس أمة واحدة لفعل ، ومادام سبحانه لم يفعل فلماذا يريد بعضنا أن يوجه التاريخ على غير ما أراد الله ٠ ان كل واجبنا كمسلمين هو أن نوصل الاسلام الى الناس وندعهم بعد ذلك ٠ فمن شاء الله سعادته فتح قلبه للدين وأسلم ، والا ظل على دينه ، وأنت لن تهدى من تشاء ولكن الله سبحانه هو الهادى ٠ واذا كان بعضنا لديه حماس للدين ويريد نشره فأمامه الملايين من الكفار في أفريقية وآسيا ، فليذهب الى هناك ليحمل رسالة الاسلام الى هؤلاء الاخوة وليقن من أن الالوف منهم سيستمعون اليه ويدخلون الدين ، وسيدهش اذ يجد هناك دعاة المسيحية يعملون في همة ، يعملون منفردين ويكسبون لديتهم الآلوف ، ونحن هنا ندعو الى الاسلام في حي الحسين : ونظن أننا بذلك نخدم الدين ، وفي الدنيا اليوم ألف مليون مسلم والفا مليون مسيحي وثلاثة عشر مليون يهدى ، فتأمل هذه الحقيقة وسل نفسك : هل نحن نقوم حقا بواجب الاسلام ؟ ٠

ولم يقهرنا احد على اعتناق المسيحية أو الاسلام ، وانما اعتنقناهما مختارين ، بل اننا لاقينا فى سبيل المسيحية الاهوال ، وغنم الكثيرون من أجدادنا الشهادة فى سبيلها حتى ليذكر تاريخنا فترة تسمى « عصر الشهداء » . وكذلك الاسلام لم يقسرنا عليه احد ، فان الاسلام دين السلام لم ينتشر بالسيف ابدا ، وانما فتحت البلاد وترك أهلها احرارا ليختاروا الدين الذى يحبون .

ولعل سائلا يسال عن المراد بالبلد الذى له رسالة ، فنقول ان الأمم كالناس ، فكما أن فى الناس من لهم مواهب ظاهرة وظروف خاصة تفرض عليهم التزامات لابد ان يقوموا بها حيال الآخرين ، كصاحب الموهبة العلمية أو الفنية ، الذى تطالبه هذه الموهبة بأن يقوم بحقها ، فيقضى عمره كله خادما لها ، فكذلك الحال مع الأمم : فيها ما يفرض عليه موقعه الجغرافى وما حباه الله به من نعم ، التزامات معينة حيال الانسانية كلها ، وفيها ما تنحصر مهمة أهله فى الاستمتاع بالحياة عن أى طريق ، والامم كثيرة امامك تستطيع أن تجد فيها هذه وتلك .

واذا نحن تأملنا تاريخ البشر لاحظنا أنه ليس تاريخ الامم كلها ، انه ليس تاريخ هذه المئات من الشعوب والجماعات التى باد بعضها وظل بعضها الآخر فى قيد الوجود ، وانما هو تاريخ عدد صغير منها ، وهذا العدد الصغير هو الذى رسم ذلك الخط الطويل الذى بدأ يوم درج الانسان على ظهر هذا الكوكب ، ولن يزال متصلا الى أن يشاء علام الغيوب .

امم قليلة هى التى قادت وعلمت ووجهت ، أما البقية فقد سارت فى الركب راضية أو غير راضية . ولسنا نعنى بذلك تلك الأمم التى حكمت وسادت ، بل التى أيقظت وعلمت وأنارت ، وجعلت للتاريخ الانسانى معنى ومغزى ومثلا أعلى . لأن السيادة والحكم ــ مهما اتسع شأنهما وعظم ــ فمصيرهما الى الزوال ، أما الذى يبقى وينفع الناس فوجوه الحضارة واعمال العمران التى تنتقل من الأمة الى ماعداها ، وتتوارثها الاجيال عن الأجيال .

ولقد عرف التاريخ أمما بلغت من السيادة واتساع السلطان مالم يبلغه غيرها ، كدولة المغول التى امتدت من قلب الصين الى فرنسا ، وتلاشت مع ذلك فى بضع سنوات كأن لم تكن بالأمس ، ولم تخلف بعدها غير الخراب والدمار . وعرف التاريخ كذلك أمما صغيرة لم تحارب أحدا ولكنها خدمت وعلمت ، كأمة الفينيقيين التى نقلت الكتابة من مصر القديمة الى سائر الأمم ، وعلمت الكثير من أمم الأرض شتى الصناعات ، وانشأت فى كل مكان نزلت فيه مدنا لازال بعضها عامرا الى اليوم .

وشىء آخر احب ان الاحظه فى هذا المقام ، وهو ان فى الأمم ــ كما فى الناس ــ أمما عاشت لنفسها ، لم تعط احدا شيئا ، بل اخذت عن غيرها كل شىء ، وهذه الأمم لا حساب لها فى حضارة أو نظام ، وانما هى عالة على غيرها . وليس من الضرورى أن تكون هذه الأمم صغيرة أو فقيرة ،

لأن الأمر متوقف على طبيعة الأمة ومزاجها ، ففي الأمم ما هو ضخم غني ، وما بسط سلطانه على غيره وكان له ملك شـــاسع ، ولكنه في حســـاب الحضارات فقير صغير ، لم يسجل له التاريخ شيئا ولا الناس يذكرونه بشيء محمود .

وليس من الضروري كذلك ان يكون هذا الذي تخلفه الأمم لغيرها آراء ومبادىء وفلسفات ، بل قد يكون كل جهدها منصرفا الى ما تعودنا ان نذكره في ازدراء لا معنى له من شئون المادة . ولقد عودنا أسلافنا أن نحسب أن كل شيء لا قيمة له عدا شعر الشاعر ورصـــف الناثر وحكم الحكماء التي تشبه كلام الكهان ، ودرج أهلنا في العصور الوسطى على الا يقدروا الصانع المجيد الا بمقدار ، وعلى ان يضعوه ـ مهما أجاد ـ في مرتبة هي اقل من مرتبة البسط الشعراء والناثرين .

وهذا كله ليس بصواب في فهم التاريخ او ادراك طبائع العمران لان الحقيقة هي أن الرقي المادي هو أساس أي رقي روحي أو فكري ، وأنك اذا هيأت للناس ظروفا معاشية طيبة فقد هيأت لهم طريقا الى الفضائل ، وأن الأسئلة الأولى التي ينبغي أن تضعها لنفسك ، اذا أردت أن تدرس حالة شعب ، هي كيف كان الناس يعيشون ؟ ماذا كانوا ياكلون ؟ وكيف كانوا ياكلونه ؟ وأي صنف من البيوت بيوتهم ؟ وأي نوع من النسيج كان نسيجهم ؟ وما الى ذلك . لأن جواب هذه الأسئلة يحدد في الواقع مستوى معيشة الناس ، ومستوى المعيشة يحدد مستوى التفكير في الغالب . وأنا هنا أتحدث عن الأمم والجماعات ، لا عن الافراد ، لأننا درجنا على أن نعتبر الأمم والجماعات شخوصا وافرادا وأجساما ، وهذا خطأ بين يحذره العارفون بخصائص الجماعات .

وقد عنيت بأن انكر هذه الملاحظات حتى يجيء حكمنا آخر الأمر سليما ، وحتى لا يفوتنا شيء دون أن نضعـــــه حيث يستحق من التقدير والحســـــاب .

ولعلك لاحظت ان حضـــارة مصر القديمة كانت حضـــارة الصانع والزارع قبل أن تكون حضارة الملوك والعواهل ، فان الذين تبهرهم حضارة مصر القديمة انما تبهرهم بدقة صناعاتها واتقان رسومها ومتانة مبانيها . وأنت اذ تزور المتحف المصري مثلا أو القسم المصري في أي متحف من متاحف الدنيا ، فأنت في عالم صناع وزراع وفنانين ، واذا تأملت جدار مقبرة مصرية وجدت أمامك جماعات تعمل ، ما بين خباز ونجار وحداد وطحان ونقاش وزارع وحراث وصياد ، سجل الفنان المصري رسومهم معتزا بهم ، ورسم الى جانبهم صور الملوك والملكات والآلهة ، كأنه يريد أن يقول أن تاريخ مصر من هؤلاء جميعا .

فاذا انت قرأت كتابا في تاريخ الرومان من تأليف تيتوس ليفيوس أو يومبونيوس ميلا ، لم تجد الا ذكر الاباطرة والقادة والحكام وأعضاء مجلس الشيوخ ، أما عامة الناس من الصناع وأهل الحرف وصغار أهل

المدن فهم لا يشيرون اليهم الا بكلمة turba وهى لفظة تعنى السوقه وتعنى ـ فى الأصل ـ الفوضى والاضطراب والصخب والزحام •

وأما بلغاء كتاب العرب ممن كانوا يظنون انهم وصلوا الى قمة الحكمة والفهم ، من امثال الصاحب بن عباد وبديع الزمان الهمذانى وأبى محمد القاسم الحريرى ، فهؤلاء الصناع والزراع ـ وهم بناة الحضارة الانسانية على الحقيقة ـ لم يكونوا فى نظرهم الا سوقة ورعاعا وغثاء كغثاء السيل •• وقد كانت هذه النظرة الخرقاء الى أهل الحرف من أشد ما أضر بكيان المجتمعات الاسلامية فى العصور الوسطى ، وهى نظرة غير اسلامية ، لأن الاسلام يكرم العمل والعامل ويضعهما فى أجمل مكان •

ومعنى هذا أن المجتمع المصرى القديم أعطى العامل وكاسب الرزق بيده حقه وكرمه وخلده ، ولهذا فقد كان مجتمعا سليم البنيان متين الروابط صحيح المقاييس ، وما قولك فى مجتمع تعاقب عليه ثلاثون قرنا حافلة بالأحداث والحروب والفتن والغزوات ، وظل برغم ذلك كله سليم البنيان قادرا على أن يعيد تشييد كيانه اذا تصدع أو انهدم فيه شىء ؟

بل هو قادر على أن يبهر أنظار الناس بعمل رائع كمعجزة «العبور» التى أعادت مصر فى أيام اربعة الى مكانها المعروف من تقدير الناس •

وهذا هو سر مصر قديمة وحديثة ، وهى مصر الخالصة الصافية التى أنشأها أبناؤها بجهدهم وفهمهم وعبقريتهم قبل أن يختلطوا بغيرهم من الأمم ، وهذا أيضا هو الذى يربط الغربى الى حضارة مصر القديمة ، لأن حضارة الغرب الراهنة هى حضارة الصانع والزارع وصاحب المهنة ورجل الفن ، ومن هنا نفهم لماذا يقبل الغربيون على كل ما هو مصرى قديم ، فالجناح المصرى فى أى متحف فى الغرب هو درة ذلك المتحف ، وما أن يقام متحف لتوت عنخ آمون واثاره حتى تتقاطر الألوف بعد الألوف للفرجة عليه ، ولا ينشر كتاب عن مصر القديمة حتى تنفد طبعاته برغم غلاء ثمنه ، وما هكذا يحدث اذا أقيم معرض هندى أو يابانى أو صينى ، أو اذا ظهر كتاب عن حضارة واحدة من هذهالبلاد ، فالغربى يشعر بالجانب الانسانى الشامل لحضارة مصر ويستوقف نظره تقديرها للعمل والعامل والصناعة والصانع والزراعة والزارع •

وقد قال جاك بيرين فى كتابه الذى سبق أن أشرت اليه : ان الشعب المصرى شعب انسانى فى صميمه ، جماعى فى تفكيره ، وهو يلفت النظر الى انك لا تجد ابدا صورة نساج واحد او صانع قوارير واحد على الآثار المصرية ، بل لابد من عشرات الصناع يعملون معا ، وفى بعض الأحيان تمثل اللوحة مصنعا كاملا بكل اجزاء العمل وما يصنعه كل عامل على حدة • وهذه الملاحظة من ذلك المؤرخ الكبير تضع يدك على سر من أسرار سلامة المجتمع المصرى على مر العصور ، فهو مجتمع يقوم على أساس العمل وهو مصدر الفضائل كلها ، وهو مجتمع يقوم على العمل الجماعى

لا الفردى • وكلنا نعرف فى شعبنا صفات الألفة والمودة والعشرة والتعاون، ولا يفسد هذه الفضائل فى بعض الأحيان الا الفقر عدو كل فضيلة ورأس كل رذيلة ، وواجب الانسان الأول هو الخلاص من الفقر ، وسبيل ذلك الخلاص هو العمل ، وقد عرف المصرى ذلك وآمن به كما رأيت • وليس من العيب أن يولد الانسان فقيرا ، ولكن العيب فى أن يموت فقيرا ، لأن معنى ذلك انه انهزم فى معركة الحياة شريطة أن يكون كسبه حلالا طيبا • والا فان الفقر مع الشرف أكرم ألف مرة من الغنى مع التفريط فى الشرف وقواعد الأخلاق •

هذه ملاحظة لابد منها لكى يستقر فى نفسك ايمانك بشعبك وفضائله ، ودون أن يداخلك شك فى أنك تعيش فى مجتمع فاضل سليم متماسك ، ولا يهولنك ما تسمعه أحيانا من الكلام عن بعض مظاهر الفساد ، فهذه كلها مبالغات وتهاويل يلقيها ناس لا يحسنون وزن الكلام ، وهم يسيئون الى شعبهم اساءة كبرى من حيث يحسبون أنهم يريدون الصلاح •

ولم يحدث فى تاريخنا أن انتشرت المفاسد فى شعبنا أو سادته الخلاعة أو غلب عليه الفجور والانحلال كما حدث لكثير من الشعوب فى التاريخ ، وانما شعبنا دائما شعب سليم فى مجموعه فاضل فى أساسه متماسك فى بنيانه ، والى هذه الخصائص ترجع قوته وصلابة عوده رغم ما نزل به من المحن • وان الأجنبى ليزور مصر اليوم — وهى تمر بفترة من أعصب فترات تاريخها — فيتعجب من ثبات أهلها وتلقيهم المتاعب فى صبر وعزم ، حتى ليحسب بعضهم ذلك قلة اكتراث أو قلة بصر بالأمور • وكان قد وقع فى هذا الخطأ فيلسوف كابن خلدون فقال : « ان أهل مصر يعيشون كأنهم فرغوا من الحساب » ، والسبب فى خطئه انه طوف بأنحاء الدنيا فوجد شعوبا قلقة مضطربة تفترسها الهموم وتفرق أهلها المطامع ، ثم أتى مصر فوجد ناسا هادئين ثابتين يأخذون الدنيا كما هى دون اسراف فى شكوى أو استسلام لفزع ، فراعه ذلك وغاب عن ادراكه •

واذا كانت مصر قد عاشت فى مجالات الحضارة دائما ، ولم يخل زمان منها قائدة للعمران أو حفيظة على تراثه ، فان هذا يضع أيدينا على نوع رسالتنا ، فنحن أمة علم وعمل وعمران ، واذا كنا قد أهملنا شيئا من رسالتنا هذه فى بعض فترات الانهيار البالغ ، فينبغى الا يفوتنا ذلك من الآن فصاعدا ، وقد صحونا والحمد لله ووعينا •

علينا أن نبلغ ما بلغه غيرنا فى ميادين العلم والعمل والعمران ، ونعول على المضى فى الدرس حتى نستعيد مكاننا فى القيادة ، وحتى نأخذ مكاننا فى الصف الأول • وقد يحسب الناس اننا نبالغ اذ نحمل قومنا هذه الرسالة ، لأن غيرنا قد سبقنا فى تلك الميادين بمراحل كثيرة • والواقع أن تلك المراحل تقطع فى زمن يسير اذا عقدت الأمة العزم على ذلك ، واذا وعى أهلها الرسالة الحقة للبلد الذى يعيشون فيه •

ذلك انك تستطيع أن تدرس العلم لتكسب به العيش ، وتستطيع أن تتعلمه ليعينك على السمو بنفسك والارتفاع بمستواها ، وتستطيع أن تدرسه لتنفع الناس به ، وهذه القدرة على النفع هى فى ذاتها سيادة ، بل هى أرفع ألوان السيادات • واذا لم يكن الرجل الذى اخترع عقارا ناجحا ينجى الناس من المهالك سيدا ، فأى الناس هو السيد ؟ وانما المهم فى ذلك كله نظرتك الى العلم وعلاقتك به ، فاذا أنت نظرت اليه على أنه مجرد وسيلة للكسب فحسب ، واذا كانت علاقتك به علاقة مال ، فويل لك وويل له ! وعشت حياتك عبدا أسيرا للمكاسب والمغانم • فكم من طبيب أودع الله فى قلبه ويده الشفاء ، فيأبى الا أن يجعل من نفسه محصلا للقروش ، فيظل عمره عبد مرضاه ، ويظل عمره محتاجا مسكينا ! اذا جمع الفا احتاج الى ألفين ، واذا اجتمع له الألفان نظر الى الثلاثة ، ومادامت الأرقام لا تنتهى ، فان حسراته لا تنتهى أبدا • وخير من ذلك طبيب جمله الله بالاحساس وكمله بالعلم وزينه بالقناعة ، فهذا رجل يظل عمره سيدا نافعا ، وهذا هو الذى يحسب له حساب •

وكذلك الحال مع المعلم ــ أو المدرس كما نقول ــ فضلا عن الأستاذ الجامعى ، فاذا كان هم الواحد من هؤلاء كسب المال فحسب ، فسيظل عمره كله لاهثا وراء المال ، أما اذا نظر الى نفسه كمعلم أولا ثم كاسب رزق ثانيا ، فسيكسب المال قطعا ومعه الكرامة والفضل • ولست أدعو المعلمين الى عدم التفكير فى الكسب ، فهذا آخر ما يخطر ببالى ، بل ادعوهم الى الا يجعلوا المال همهم الاول ، وليصرفوا بالهم الى التعليم وتجويده يجدوا المال بين أيديهم •

ونحن اليوم ندرس العلم ، بل ما نظن أن بلدا فى مثل ظروفنا يبذل فى سبيل العلم قدر ما نبذل ، ونحن نفعل ذلك مدفوعين بخصلة فينا تشبه الفريزة ، خصلة الاتجاه نحو العلم والنور • وبقى أن تعرف أن رسالتنا الحقيقية فى ذلك الميدان ليست رسالة متابعة أو ملاحقة بل رسالة قيادة ، فقد رايت اننا كنا فى معظم ايامنا فى مقدمة اهل الدنيا علما وفهما ، وأن العالم مدين لنا بالكثير جدا ، فلا ينبغى أن نقنع بما كان ، بل ينبغى أن نؤيده بما هو كائن ، وما سيكون ، واذا كان غيرنا يقنع من العلم بتحصيل ما بلغه غيره فى ميدانه فان واجبنا نحن كمصريين أن لا نقف عند هذا الحد ، وانما ينبغى أن نتخطاه الى الابتكار والتجديد والقيادة والتعليم • ذلك ما يمليه علينا تاريخنا وماضينا ، وذلك هو ما لا ينبغى أن ننصرف عنه بحال •

ومن غريب ظواهر تاريخنا اننا ادركنا بالفطرة الهادية هذه الحقيقة ، فلم نكد نصل الى شىء من العلم حتى بدأنا نعلم غيرنا ، وحتى اخذنا نبعث بعوث المدرسين شرقا وغربا وجنوبا ، حتى لقد علمنا فى البلاد المحيطة بنا اضعاف ما علم الانجليز مثلا ، وهم يزعمون أنهم ما دخلوا هذه البلاد الا مرشدين ، ولكن العبرة ليست بما يقولون ، بل بما يفعلون •

ونحن نؤدي هذا الواجب الى ما حولنا من الأمم التي تربطنا بها وشائج الحضارة واللغة والدين ، أو الدين فحســـب ، أو التي تجمعنا وإياها المواطنة في القارة الأفريقية ، نحن نؤدى هذا الواجب متابعـــين لرسالتنا التقليدية الخالدة ، فنحن نشعر بالسعادة اذ نتعاون مع غيرنا في طريق النور ٠

وعلينا الآن أن نجعل هذا الجانب من رسالتنا واجبا مفروضا علينا، وأن نقوم به عن نفس راضـــية ، لأن بلدنا كان على طول تاريخه قوة حضارية ، فلا ينبغي أن يفقد هذا الجانب من القوة أبدا ٠ وان قارىء التاريخ البشرى ليفتح كتابه فيجد مصر في المطلع ! يجد مصر في مقدمة ركب النور ، وهذا شيء ليس بالقليل ، ولكن الذي يقلل من أهميته أننا لا نقدره قدره في بعض الأحيان ، وأننا ننسى أن ذلك يفرض علينا متابعته والاستمرار فيه ، لأنه صميم رسالتنا في هذا الوجود ٠

وعلينا أن نحقق هذا الجانب من رسالتنا في أبعاد تاريخنا الثلاثة : في القارة الأفريقية ، وفي عالم الشرق ، وعالم البحر المتوسط ٠٠ والغرب أيضـــــا ٠

وقد يحسب البعض أنني أغالي عندما أقول ان حدود رســـالتنا العلمية هذه ينبغي أن تشمل الغرب أيضا ، لأن الظاهر الذي يراه كل الناس أننا لا نملك شيئا نقدمه للغرب في هذا الميدان ، والواقع أننا اذا تابعنا جهدنا فيه ، وأخلصنا له الاخلاص الواجب ، بلغنا فيه المبلغ الذي ينصبنا معلمين لعالم الغرب ٠ ولقد بلغت هذا المبلغ أمة كانت في مثل ظروفنا في مطالع القرن الماضي ، وهي أمة اليابان ٠ فقد كانت اليابان في مطلع القرن التاسع عشر تعيش في صـــميم العصـــور الوســطى ، ولكن اليابانيين فطنوا الى أن العلم والصناعة أساس نهضة الغرب ، فأقبلوا يتعلمون في نهم يثير العجب ، ومن منتصف القرن الماضي أخذت جماعات شباب اليابان تتجه الى الغرب لتدرس وتتعلم وتتدرب ، وكان الطـــالب الياباني يدرس في دأب النحلة يخامره شعور بأنه يخدم بلاده ، ومازالوا يدرسون ويتدربون حتى قبسوا علم الغرب وصناعاته ، ثم علموا شعبهم ودربوه وخطوا به هذه الخطوة التي تعتبر عجيبة من عجائب التاريخ ، فاليابان اليوم ثاني دولة صناعية في الدنيا ، وفي نهاية هذا القرن ستكون الأولى ، وهذا كله نتيجة العلم والعمل والاخلاص والتعاون ورفع الهمة الى خدمة الوطن ٠

وصدقوني أننا كنا حريين أن نصل الى هذا المستوى ، لو صدقنا في طلب العلم وأخلصنا في العمل ونظرنا الى مصر في كل ما نعمل — ومازال ذلك ممكنا الى اليوم — ولو طلبناه عن صدق واخلاص نية ٠

فى هذا الطريق ينبغي أن نسير ، ينبغى أن نقبل على العلم بقلوبنا وعقولنا معا ، والا ننسى أننا نحقق بذلك رسالة بلدنا الكبرى ، واننا لا ينبغى أن نقف عند حد التعلم ، بل نخطو الى ما وراء ذلك • وهذا التفوق الذى أدركته أوربا فى ذلك الميدان يمكننا ملاحقتها فيه ، فالمسألة مسألة درس وتحصيل واخلاص وصبر وتقديس للعلم • فاذا نحن درسنا على ذلك الأسلوب أدركنا ـ بسرعة ـ شأو غيرنا ، وانفتح أمامنا طريق السبق والتفوق • ولو أن عشرة منا فحسب توفروا عن اخلاص لدراسة كل ميدان من ميادين العلم ، لما انقضت سنوات الا ونحن فى المقدمة •

والغرب اليوم فى حاجة الى من يعينه ، لأن حضارته سابقت الزمان على نحو لم يكن فى الحسبان ، فوقعت فى أزمة كبرى ، ذلك أن تفجير الذرة كان ينبغى ألا يحدث اليوم ، والعالم حافل بالأحقاد والعداوة ، كان ينبغى أن ينتظر حتى يرتفع مستوى المعنويات فى الدنيا ، حتى لا يكون ذلك الكشف العظيم أداة دمار•• والغرب كله اليوم يقف أمام هذه المعضلة ، وكل معسكر من معسكراته يخشى أن يلجأ الآخرون الى استعمال سلاح الذرة ، ولهذا فهم يتلاقون ويتباحثون ويتدارسون ، علهم ينتهون الى مخرج ، وما نظن أنهم واصلون الى المخرج الصحيح •

وهذا الموقف يحدد لنا رسالتنا فى الناحية الغربية من ميدان العلم ، فعلينا أولا أن نصل الى ما وصلوا اليه فى ميدان الطبيعة والرياضيات والطب والكيمياء والهندسة وغيرها من العلوم والفنون وعلينا بعد ذلك أن نشترك معهم فى البحث عن المخرج من هذا الموقف المخيف ، ونحن حقيقون بأن نفعل ذلك ، لو آمنا برسالتنا على النحو الذى بيناه واستخلصناه من صحائف التاريخ •

ولقد وقفت طويلا عند كلامى عن علاقتنا بالبحر المتوسط والغرب ، ولم يكن لى من هدف الا أن أجلو هذه الناحية التى تراكم عليها تراب كثير يحول بيننا وبين ادراكها على حقيقتها ، وأرجو أن يكون قد استقر فى ذهن القارىء أن لنا مكانا خاصا فى عالم البحر المتوسط ، وفى الغرب كله بالتالى ، وأن علينا أن نحتل هذه المكانة اذا أردنا تصحيح اتجاهنا ، واذا أردنا الخير لهذه الدنيا وأهلها • فان فراغنا فى عالم البحر المتوسط لن يملأه غيرنا ، فنحن ملتقى الشرق بالغرب ، ونحن نقطة الاتصال بين قارات ثلاث ، ونحن نستطيع أن نقوم رسلا بين الجانبين ، وننقل الخبرات بين هذا وذاك : نحن باب افريقية ، ننقل الى أهلها مالدينا ومالدى غيرنا • ونصل به الى نواحى هذه القارة المظلومة التى لم ينصفها أحد •

وكان الأوربيون قد أقاموا سدودا وقيودا فى هذه القارة ، وحسبوا أنهم يوجهون تاريخها وحضارتها الوجهة التى يحبون ، ولكن أهل القارة لا يريدون ، وهم يتجهون الى العمل معنا والى التعاون معنا ، أو قل : هم

يودون أن يفعلوا ذلك لو اتيحت لهم الظروف ، فمن واجبنا أن نحمل النور الى بلادهم ، فان حضارتهم هى حضارتنا ، ومستقبلهم مستقبلنا . ومصيرنا — آخر الأمر — سيتقرر فى افريقية ، لأننا لا يمكن أن نتجاهل الحقيقة الاساسية الكبرى فى جغرافية بلادنا ، وهى أننا دولة افريقية . نحن لسنا من الشرق ولا من الغرب ، وان كان لنا فى كل منهما نصيب ، ولكننا افريقيون ، واذا اختل التوازن فى هذه القارة كان الوبال علينا ، فلنكن على الأهبة دائما ، ولنذكر دائما أن آسيا واوربا لن تقررا مصيرنا . بل أفريقية هى التى ستقرره ، وأريد أن أقول بذلك أن الاوضاع فى افريقية هى التى ستقرره ، فينبغى الا ننسى ذلك أبدا .

واذن فواجبنا الأول هو أن نحافظ على حدودنا الحضارية فى القارة الأفريقية . ينبغى أن نمهد طريق الحضارة بيننا وبين ناحية الغرب والجنوب ، ينبغى أن نوثق صلاتنا بكل بلاد افريقية وأن نقف معها فيما تسعى اليه من القضاء على النظم غير الأفريقية التى تحكم جنوبى افريقية وتحرير اهلها ، وانقاذ شعب ناميبيا من جريمة السرقة التى تنزلها جنوبى افريقية بأراضيه ، ومن نكبة الاستعمار الجديد وهو استعمار بالعلم والمعرفة وما يسمى بالتكنولوجيا . والغرب بطبعه أنانى تاجر ، فهو لا يعطى شيئا قط الا بمقابل ، حتى المسيحية — التى يزعمون انهم ينشرونها فى افريقية — يبيعونها للناس فى النهاية ، فانهم اذا أدخلوا فى المسيحية انسانا أو شعبا اعتبروه بعد ذلك تابعا لهم دائرا فى فلكهم .

ومن عجب اننا — ونحن نعيش فى عصر يسمونه عصر النور والقانون الدولى — نجد الغرب يؤيد جرائم سرقة الصهيونية للوطن الفلسطينى وادعاءهم أنه وطنهم ، وسرقة جنوبى افريقية لوطن كامل هو ناميبيا ، وجرائم أخرى كثيرة ترتكب فى هذه القارة التى لا يريد لها الاستعمار وأهله الاستقلال والعزة والكرامة أبدا ..

وأنا لا أتحدث الآن عن السياسة ، أى اننى لا أضع حدود رسالتنا السياسية فى أفريقية ، فهذا موضوع آخر ، وما اشارتى الى ضرورة القضاء على بقايا الاستعمار فى القارة وايقاف جرائم السرقات البشعة التى يقوم بها الغربيون ضد الأفارقة الا لان ذلك تمهيد لابد منه لأداء مصر رسالتها الثقافية فيها . ولكنى اضع حدود رسالتنا العلمية ، وهى فى عرفى اثبت اساس يمكن أن تقوم عليه السياسات ، وهى — كما رأيت — لباب تاريخنا وخلاصته ، وفى ذلك الميدان اقول ان رسالة مصر فى القارة الأفريقية لا تعرف حدودا ، فلننشر النور فى كل مكان من افريقية نستطيع أن نصل اليه .

ولنفهم أن تلك الرسالة ليست فرضا على الدولة وحدها بل على المواطنين جميعا . ليدرك كل منا أن عليه أن يؤدى نصيبه من الكفاح فى

سبيل افريقية ، ليخرج من يستطيع منا مجاهدا فى سبيل العلم دون أن يفكر فى مصير نفسه ، فان المجاهد فى سبيل العلم قلما تصيبه المعاطب • ولو أنك عرفت ما يبذله غيرنا لكسب المعركة الافريقية للملك العجب ، لو أنك تجولت فى نواحي الصحراء وفى غضون الغابات لوجدت ناسا من أولئك الأوربيين يعملون فى جد للفوز بنصيب من هذه المعركة : هذا يعلم ، وذلك يطبب ، وغيرهما ينشر الدين ، والكل يتجسسون ويخدمون بلادهم •

وهم لا يفعلون ذلك اخلاصا للعلم أو خدمة للطب أو تقديسا للدين ، بل يفعلونه لأنهم يريدون أن يوسعوا النطاق الحضارى لبلادهم ، وهم واثقون أن هذا النطاق الحضارى اذا اتسع رحب معه أيضا ميدان النفوذ السياسى • والكثيرون جدا من أولئك المغامرين الأوربيين ليسوا مرسلين من حكوماتهم أو أديرتهم ، وليسوا مؤيدين بالمال والمدد ، وانما هم مستقلون بأنفسهم ، يؤدون الواجب نحو بلادهم فى صمت وصبر •

واذا أنت قرأت تواريخ المستكشفين لرأيت عجبا ، من قوم يترامون على المهالك ويتسابقون الى المعاطب فى سبيل كشف واحة أو العثور على طريق ! وهؤلاء الأفراد القلائل الذين تجردوا للكشف والبحث هم الذين أقاموا حدود الامبراطورية الأوروبية فى افريقية • ونحن نقرأ سير ستانلى وليفنجستون وبروس وهورنيمان وبارث وكاييه ، ونحسب أن ذلك كله جهاد دفع اليه حب المغامرة ، والواقع أن أولئك الكاشفين جميعا كان يدفعهم ذلك الدافع الذى أشرت اليه • دافع البحث عن حدود حضارية أوسع لبلادهم ، وحدود النفوذ الحضارى بحدود نفوذ سياسى أيضا ••

وقد وضع أجدادنا لبلادنا حدودا حضارية واسعة فى افريقية ، فعلينا أن نحافظ على هذه الحدود ، وقد اتسعت القارة اليوم واستقلت بلادنا ، وتفتحت أبوابها ، ومضى أهلها يطلبون العلم ، وقد خلف المستعمرون الماضون وراءهم لغاتهم أشبه بلغات رسمية لهذه البلاد ، فبعضها يتخذ الفرنسية وبعضها يتخذ الانجليزية الى جانب لغة بلاده الاصلية ، واللغة العربية أقرب الى قلوب أولئك الاخوة لأن فيهم الكثيرين من المسلمين ، بل ان بعضهم ـ مثل أهل الصومال واريتريا ومالى ـ يريدون أن يجعلوا اللغة العربية لغتهم الرسمية ، فعلينا أن نقدم لهم العون فى ذلك السبيل ، فما من بلد افريقى تنتصر فيه اللغة العربية والاسلام الا سيصبح حليفا لنا يوما من الأيام ، واذا كان مستقبل مصر سيتقرر فى افريقية فليكن هذا همنا الأول لا نقدم عليه شيئا ، ولنقم به بدافع المحافظة على النفس وتأمين المستقبل •

ليتجرد منا من يملأ قلبه حب بلاده للجهاد فى سبيل العلم والنور فى افريقية • ليخرج مجاهدا وحده ، ليحمل متاعه وكتبه وليتسلل وحده الى ركن من أركان افريقية ، فينصب نفسه معلما أو طبيبا ، لأن القارة فى

حاجة الى كل شيء ، وكما رسم أجدادنا حدودنا الحضارية فى افريقية افرادا ، فعلينا ان نجدد رسمها افرادا ايضا ، علينا أن نؤيد جهد الدولة بما نستطيع ، فنحن اذا اطمأننا على حدودنا الحضارية فى افريقية ، واذا وجهنا العلم فيها فى الطريق الذى ينبغى أن يسير فيه لخير اهل القارة ، ثبتنا بذلك حدود مستقبلنا ، وضمنا الا تنقلب علينا الأمور فى قارتنا . لنفعل ذلك فى صدق واخلاص وايثار وتواضع .

وانه لمن العجب أن أشعة النور الخارجة من بلادنا تصل دائما الى أبعد مما نقدر ، فان المصريين هم الذين نشروا الاسلام فى السودان على ما قلناه ، ووصلوا به الى كردفان ، ودارفور ، وفى هذه النواحي المباركة من أرض السودان التى كانت تسمى وأداى ، قام بنشر الاسلام شيوخ من اهل السودان تعلموا فى مصــر ــ وفى الأزهر خاصة ــ وعلى ايديهم اصبحت هذه البلاد اسلامية ، ومنها انتشر الاسلام فى بلاد الكانم والبرنو فيما يعرف الآن بتشاد ، واتصل التيار حتى وصل الى نيجيريا . وسار تيار اسلامي آخر من طرابلس الى فزان فكوار ووصل الى تشاد ايضا ، والى هذين التيارين يرجع الفضل فى انتشار الاسلام فى أجزاء كبيرة من افريقية المدارية .

ومن طريف ما يذكر هنا أن نفرا من اهل السودان الذين درســوا فى مصر اجتمعوا واقاموا مسجدا فى الفاشر فى شرق السودان ، فتصور أن هذا المسجد كان ــ ولايزال ــ من اعظم مراكز نشر الاسلام فى افريقية ! تصور أن عشرات الألوف دخلوا الاسلام فى صحنه او على أيدى شيوخه ! تصور أن هذا المسجد الذى انشاه الايمان قد قام وحده باضعاف ما قامت به جماعات التبشير مجتمعة ! تصور لو اننا ضاعفنا جهدنا فى هذه الناحية ، وانشانا بجهدنا الفردى زوايا صغيرة فى قلب القارة ومضينا نعلم وننشر رسالتنا ! لو اننا فعلنا ذلك لوصلنا الى مدى بعيد ، ولحققنا شيئاً يشبه المعجزة ، لأن مصير القارة الافريقية كلها فى الميزان ، ومصيرنا نحن أيضا فى الميزان تبعا لذلك .

ولو اننا فعلنا ذلك لكنا مكملين فيه لعمل السابقين لنا من رجال الطرق الصوفية مثل التجانية والقادرية الذين نشروا الاسلام فى افريقية الغربية عبر الصحراء ، وهنا لابد من تحية للسنوسية ومجاهديها ممن لهم الأيادى البيضاء فى نشر الاسلام فى افريقية .

ذلك أن الدين والسياسة يشد احدهما أزر الآخر فى معركة افريقية ، والكنائس ووزارات الخارجية والهيئات الراسمالية فى الغرب تعمل اليوم جاهدة لكسب المعركة الافريقية ، وهى قد بدأت بوضع العقبات فى الطرق التى يفيض منها نور الاسلام الى نواحى القارة ، وهى واثقة انها اذا فعلت ذلك اوقفت تيار الحضارة الاسلامية وخلا لها الجو لتفعل ماتريد . وانه

لن المحزن أن نسمع ما تعلنه الكنيسة الكاثوليكية من اعداد من يتنصرون على أيدي رجالها عاما بعد عام ، حتى زعموا انهم نصروا خلال سنة ١٩٥٤ خمسة عشر مليونا من الأفريقيين ، فاذا أنت تصورت هذا العدد فى سنة ٢٠٠٠ مثلا لرأيت أنه سيبلغ الستين أو السبعين مليونا ، أى أن الغالبية فى افريقية ستكون لأولئك المتنصرين · وانا لا انظر الى وجه الخطر الدينى فى هذه المسألة فحسب ، بل انظر الى وجهها الحضارى السياسى ، لأن أولئك جميعا سيكونون اتباعا لجبهة أخرى تعادينا ، ومن واجبنا ن نتنبه لذلك منذ الآن ·

علينا اذن أن نضع المعركة الأفريقية فى المقدمة ، وعلينا أن نصمم على كسبها ، وأن يتجرد كل منا للقيام بدوره فيها ، وقد رسمت الخطوط العامة لذلك كله ، وفيه كفاية فى المجال المقدر لنا فى هذا الكتاب ·

أما رسالتنا فى عالم العروبة فواضحة المعالم ، ونحن مدركون لها محققون لجوانبها والحمد لله· فهؤلاء هم أبناؤنا يحملون النور الى كل ركن من أركان هذا العالم العربى ، وها نحن لا ندخر وسعا فى سبيل التعاون مع اخواننا العرب ، للوصول بنا وبهم الى حيث نحب ويحبون ·

بيد أن طبيعة رسالتنا فى العالم العربى تختلف بعض الشىء عن طبيعة رسالتنا فى افريقية · فنحن فى الميدان الثانى نجدد طريقا قديما ونفتح طرقا جديدة ، ونرمى الى تغيير اتجاه القارة الافريقية ، لننجو بأهلها مما يدبر لهم ، ولكى نمهد هذه القارة لأبنائها ليعيشوا فى ربوعها فى سلام ، ولنطمئن نحن أيضا الى حدودنا فى كل ناحية · أما رسالتنا فى العالم العربى فسبيلها واضحة وأهدافها ظاهرة :

نحن نرجو أن يتحد ذلك العالم العربى ويكون جبهة حضارية سياسية واحدة لأن الصراع العالمى اليوم صـــراع جبهات وكتل لا صراع دول ووحدات ، وأى دولة تنفرد بنفسها أو تنحرف عن طريقها يصيبها العطب ، حتى أمريكا على ضخامتها وقوتها تحاول أن تتحد مع غيرها وتستعين به لتشد جبهتها فى ذلك النضال ، فما بالك بنا نحن ؟ ثم اننا ينبغى الا ننسى أن سبيل القوة الوحيد لنا جميعا هو أن نتحد وأن نتآخى ، وأن نبدو للعالم كله جبهة لا تشوبها ثغرة · نعم · فاذا انفصلت دولة مندولنا، واغراها غيرنا بهذا الكسب أو ذاك ، أو خدع رجال السياسة فيها بنظريات فى الاستراتيجية والســـياسة الدولية تقول اننا فى حاجة الى أن نتحد مع الدولة العلانية ، اذا جازت هذه الحيلة وانفصلت هذه الدولة ودخلت فى نطاق جديد ، فقد تخلت عن قواعدها الحقيقية وانحـــرفت عن طريقهـا وتعرضت للأخطار ·

ولهذا فنحن نسعى الى الابقاء على هذا العالم العربى متحدا لخيره ولخيرنا ، كجزء من أجزائه ، وبديهى اننا لا نرجو بعد ذلك شيئا ، وحسبنا أن نضم الى صفوفنا اخوتنا العرب ونسير معهم فى طريق واحد كالبنيان المرصوص ·

* * *

ولقد كانت حدودنا فى ناحية المشرق تنتهى عند حدود العالم العربى فى عصر الاحتلال ، ولكن هذه الحدود قد اتسعت واتخذت صورة أخرى فى عهد الاستقلال · فقد دخلنا فى ميدان السياسة العالمية بمعناها الواسع ، واصبحت جبهة كفاحنا هى الدنيا كلها ، ومن ثم فقد اصبح لزاما علينا أن نضم الينا الأصدقاء والأحلاف فى كل ناحية حتى نستطيع الثبات فى الميدان ·

وقد وجدنا الميدان فسيحا امامنا ناحية الشرق ، فهناك الأمم التى تشبهنا فى ظروف التاريخ ويجمعنا اليها كفاح الاستعمار ، وربما ربطتنا بها رابطة الدين ، ومن هنا فليس بعجيب أن نجد ذراع السياسة المصرية تمتد ناحية الشرق حتى تصل الى الفيلبين ، فتعقد الخناصر مع باكستان والهند واندونيسيا ، بل تمتد الى ما وراء ذلك فتسعى لتصافح جماعات المسلمين فى الصين ·

ولكن علينا واجبا خاصا نحو البلاد الاسيوية الاسلامية ، مثل الباكستان وايران وافغانستان واندونيسيا وماليزيا ، والتى يكون المسلمون نسبة عالية من سكانها مثل الهند وسيلان وبورما وتايلاند ولاوس والفيلبين ، فان رابطة الاسلام رابطة دم ونسب ، وما من مسلم فى الدنيا الا يحب مصر ويهفو قلبه اليها · ولقد سئل سياسى أوربى مرة : كيف تقسم المعونات المالية التى تخصصونها لافريقية ؟ فقال : بحسب نسبة انتشار المسيحية فى بلادها ·

وهذه ايضا ينبغى أن تكون القاعدة التى يجب أن تقوم عليها سياستنا فى آسيا وافريقية ، فكلما زاد انتشار الاسلام فى بلد من بلادهما كان ذلك البلد اقرب الينا واولى بمودتنا وحبنا · ولا يخدعنا قول من يقولون ان زمان الدين قد انتهى ، فان زمان الدين لن ينتهى أبدا ، ولازال هو العصب الأول الذى يربط الجماعات بعضها ببعض ولا يربط بلاد الغرب بعضها ببعض شىء مثل المسيحية ، فكيف ننخدع بمثل هذا ونتخلى عن قاعدة الاسلام ونحسب أن القول الفصل اليوم للعقل والعلم والمال فحسب ؟ ونحن لا ننكر هذه ولا نقلل من أهميتها ، ولكننا نقول : والدين اولا ·

وليكن ردنا على من يريدون خداعنا ان عمر هذه الدنيا ليس عاما واحدا ، واننا لم نولد بالأمس ، ولهذا لا نستطيع ان ننسى خمسة آلاف عام من تاريخنا ، لا نستطيع ان نستبدل بتجارب هذه الآلاف من السنين وميضا عابرا من ذكاء مفكر اجنبى ٠

***

لقد اعطتنا مصر كل شيء ٠

وليس فى الدنيا وطن هو اكرم على ابنائه منها ٠٠ فبينما لا يبقى فى قيد الحياة فى كثير من الاوطان الأخرى غير القوى المكافح الشديد الاحتمال ، يعيش هنا فى مصر القوى والضعيف ، والقادر والعاجز ، والصحيح والمريض ٠ ومصر الكريمة لم تبخل على احد بشيء ، حتى اولئك الذين لا يستحقون نعمة الحياة يعيشون على ارضها الطيبة الرحيمة دون مجهود كبير ٠٠

وبينما لا يتسع معظم البلاد الأخرى للأجانب يتسع قلب مصر الكبير لكل وارد عليها ونازل فى رحابها ، حتى وصفت مرة بانها بلد الغريب ٠٠

وعلى طول العصور الوسطى كانت مصر موئل كل باحث عن وطن ، ووجهة كل طالب علم ، وميدان كل طالب مال ، هنا اتسع المجال للناس اجمعين ، فنزلوا رحاب هذا الوطن واندرجوا فى غمار اهله واصبحوا من يوم نزولهم به مواطنين فيه ٠

هذا الكرم كله من مصر ، هذا العطاء كله من أم الدنيا ينبغى ان يقابله عرفان بالجميل ، وعرفان الجميل نحو الأوطان لا يكون بالكلام ولا باللسان ، وانما بالروح والدم والمال وكل عزيز ٠

ولنقل بصراحة : ان مصر لم تنل من معظم بنيها جانبا مما لها عليهم من حقوق ٠٠

كلنا نجرى وراء ارزاقنا ، وكلنا نحسب اننا بهذا الجرى نقوم بالواجب وزيادة ٠٠

كلنا يستهلكنا السعى وراء اقتناء البيت والعقار ، وكلنا يهلكنا التطلع الى كمالات الحضارة من فاخر الأثاث وغالى الرياش والمختار من الطعام ٠

كلنا نلهث وراء رزق أولادنا ونلبى مطالبهم قدر طاقتنا ، وفوق طاقتنا ٠

وكلنا نحسب أننا ـ بهذا ـ نقوم بالواجب ، كل الواجب ·· ولكن مصر ··

من يسهر على مصالحها ؟ من يبني حاضرها ويرعى مستقبلها في كل ما يعمل ؟ ··

قليلون ··

اتريد ان تعرف كم هم قليلون ؟

افتح موسوعة صغيرة كالموسوعة العربية الميسرة ··

وخذ عشرين ورقة منها ، واحص من يمر بك ذكره فيها من ابناء انجلترا وفرنسا والمانيا وايطاليا والولايات المتحدة وروسيا ـ مثلا ـ ممن رفعوا شأن هذه البلاد واعلوا مقامها بين الأمم من عالم ومفكر وقائد وسياسي ومخترع ومكتشف ، ثم احص من يمر بك ذكره من امثالهم من المصريين ·· عندما قمت أنا بهذه التجربة ترقرق الدمع في عيني خجلا من مصر ··

ما أكثر ما أعطيتنا وتعطينا ايتها الكريمة ··

وما اقل ما نعطيك ··

وما اكثر ما ننساك ··

ما أشد بخلنا عليك ··

ما اكرمك علينا ··

وما أسخى يدك على كل محتاج ··

ويا ويلنا يوم الحساب ··

ونحن اليوم في ساعة حساب ··

❋ ❋ ❋

ان مصر تمر اليوم وفي كل يوم بظرف عصيب لان موقعنا الجغرافي مطمع الأمم جميعا ، ولعلي لا أكشف سرا عندما اقول ان الصهيونيين عندما استقر رأيهم على أن يقيموا دولتهم في فلسطين كانت مصر هي مطمعهم ، فاذا لم ينزعوا منا أرضا حلوا مكاننا في الموقع الجغرافي الذي لم تنتبه نحن الى أهميته الحقيقية الى الآن ، ان مصر تواجه عدوا خطرا شريرا يتوعدها بكل شر ، ولا يرده الا العنف والقوة ، فلابد لكل منا أن يوطن

نفسه على ان يكون جنديا فى المعركة وان يضع كل ما يملك فداء لمصر ، بالعمل لا بالكلام ..

ولا يحسبن واحد منا انه يضحي بالكثير عندما يقدم حياته فى سبيل هذا الوطن الأكرم ، فما قيمة الحياة مع الذل ، وما معناها فى ظلال الخوف، وأى مستقبل نطلبه لأبنائنا اذا كان وطننا نفسه مهددا ؟ وماذا يجدى ان نوجه الجهد كله فى تكوين هذا الابن طبيبا والآخر مهندسا ، اذا كانا مهددين بعد الفراغ من الدراسة بالا يجد وطنا يزاولان فيه العمل الذي استعدا له ؟

ما هذا التهافت على المتاع وعدونا يتهافت على الموت ؟ ..

وكيف نرجو النصر ونحن نتعلق باهداب الحياة ، فى حين ان النصر لا يدركه الا من يطلب الموت ؟

كيف يستحل بعضنا ان يغش او يخدع او يسرق او يرتشي ويحسب بعد ذلك انه لازال مصريا يتشرف بهذا النسب الأكرم ؟

ان مصر بلد عظيم جدا ..

ان غيرنا تملأ الحسرة والحسد نفسه وهو يتأمل ما خلفه اجدادنا من بدائع العلوم والفنون ، ولكي يكون المصرى جديرا بمصر لابد ان يهون كل شيء عنده فى سبيل مصر .

ولا نقول هذا الكلام استرسالا مع العاطفة او شحذا للهمم وانما نقوله لأنه حقيقة ، بل هو الحقيقة الوحيدة التى يهمنا ان تستقر فى نفس المصرى .

وانت تنظر الى بلاد قوية عزيزة قائدة غنية مثل انجلترا وفرنسا مثلا ، وتعجب بما ترى ، فارجو ان تذكر ان هذه البلاد ما وصلت الى ما ترى الا بفضل من مات فى سبيلها من ابنائها ، وكل انجليزي او فرنسي تراه انما هو بقية من عشرات ماتوا فى سبيل اوطانهم .

ومنذ عرف الناس انجلترا وهى فى حرب فى سبيل بقائها وسلامة اراضيها . وحتى فى يومنا هذا ــ وهى ليست فى حرب ــ لا يمر يوم دون ان يقتل فى سبيلها رجال وشبان فى ايرلندا والشرق الأقصى وافريقية ونواح اخرى من العالم ..

وقد خسرت روسيا فى الحرب العالمية الثانية فوق العشرين مليون رجل ، ودماء هؤلاء وتضحياتهم هى التى وصلت بروسيا الى مانراه اليوم ·

واحب أن تتذكر أن أكثر الناس تضحية بالحياة هم الذين لحياتهم قيمة ، فالشاب مثلا يغامر بحياته مع أن بساطها ممدود امامه ، فى حين نجد العجوز المسن ضنينا بحياته على قلة مابقى له منها وندرة استمتاعه بها ·

واشـــد الناس حرصـــا على الحياة هم الصـــعاليك والمتسولون ومن اليهم ممن حياتهم كعدمها ، وانك لتجد المتســـول لاصـقا بالأرض يعيش فى التراب كأنه حشـــرة ، ومع ذلك فهو أشـــد الناس حرصـــا على حياته لا يغامر بها ابدا ، على حين تجد الطبيب الشاب يغامر بحياته فى سبيل الآخرين ، وتهون عليه نفسه لانقاذ المريض والمصاب مع ان أسباب الرخاء والمتاع بين يديه ·

وكل الذين جاهدوا فى سبيل مصر وماتوا فى سبيلها كانوا من خيرة الشباب واوسعهم آمالا ، وانك لتتبع شهداء ثورة سنة ١٩١٩ وشـــهداء معاركنا مع العدو الصهيونى شـــهداء حروب ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ وشهداء معركة النصر والكرامة فى اكتوبر سنة ١٩٧٣ ممن بذلوا حياتهم مقبلين غير مدبرين فتجد معظمهم من ابناء المياســـير واولى النعمة والمجاهدين فى سبيل الارتقاء بحياتهم وحياة أوطانهم ، فى حين أن الذين يتطايرون نجاة بأنفسهم عند الطلقة الأولى هم غثاء الشوارع والمتسكعون فى الحوارى والأزقة ·· هؤلاء لا يضحون بانفسهم ابدا !!

فان كانت نفسك هينة عليك فى سبيل مصر ، فاعلم انك مواطن له قدر ومكان ، اما اذا احسست الخوف والحرص على حياتك اذ تهدد وطنك الخطر فاعلم انك من الذين يوجدون كما توجد الأشياء ولكنهم لا يعيشون كما يعيش البشر ·

وثورتنا الراهنة ، التى ايقظت العالم الثالث كله من سباته وبدأت عصر الحرية لشعبنا وشعوب العروبة وعصر اليقظة الافريقية ، انما قام بها شباب فى عز الفتوة واقبال الحياة ·

ومادمنا قائمين فوق أرضنا وصدورنا غرض للرصاص فى سبيل الاوطان ، ومادام الخوف لا يتسرب الى نفوسنـــا فما عدونا ببالغ منا شيئا ٠٠

لنذكر دائما أننا نذود عن أرض مصر ، وطننا وحصننا الذى لا وطن ولا حصن لنا سواه ٠

ولنذكر اننا مهما بذلنا فى سبيل مصر فما نحن بمضحين بشىء ، والواحد منا عندما يهب حياته فى سبيل مصر فهو لا يفعل اكثر من أن يرد الى مصر بعض فضلها ٠٠

بوركت أرضك يا مصر ، وبورك نيلك ، وبورك هواؤك ٠٠

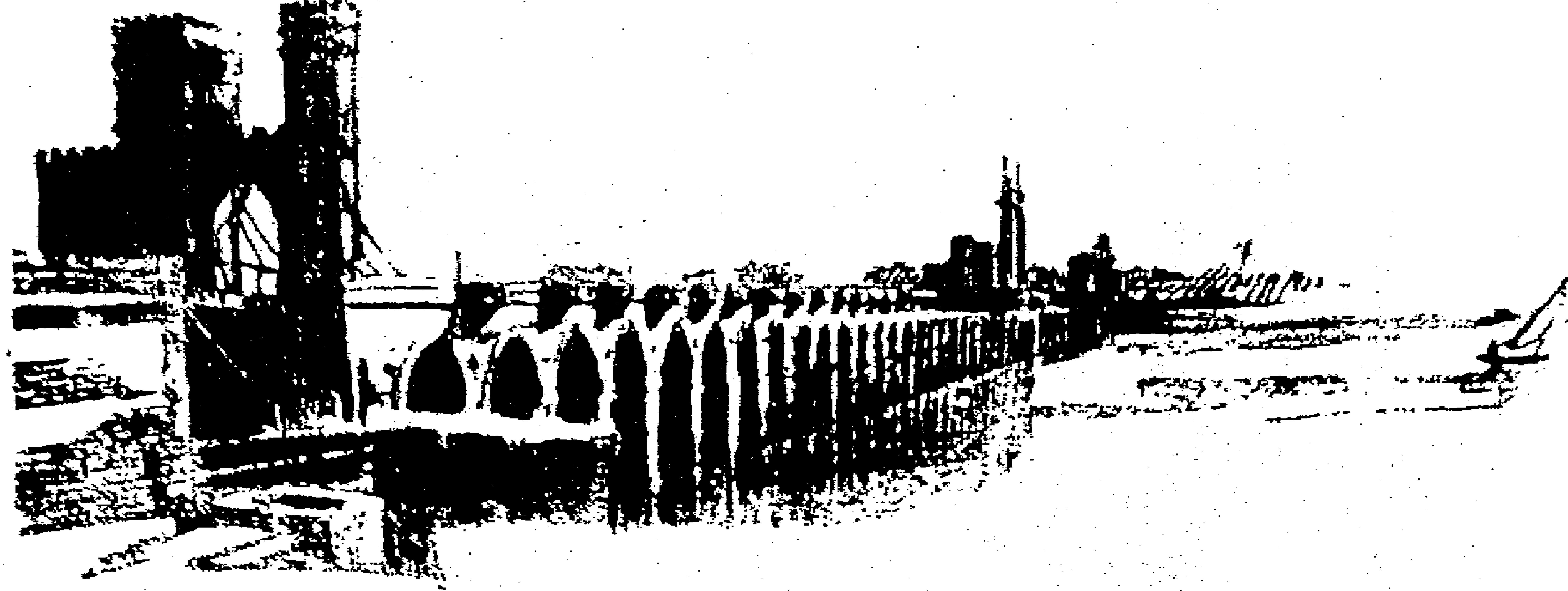
وطوبى لمن يبذل حياته فى سبيلك ٠٠

وطوبى لمن تكتبين له الخلود فى سجل شهدائك

وقد كنا الى حين قريب نشكو من أن الادب العربى لا يصل الى العالمية ، وكنا نلوم لغتنا فى ذلك ، فهاهى العالمية سعت الينا ونال مواطن مصرى هو نجيب محفوظ جائزة نوبل دون أن يسعى اليها ، ولكنه جد واجتهد وأخلص وعمل فى صدق واخلاص وعلم أى عمل كما ينبغى أن يعمل كل مصرى يعرف قدر وطنه فوصل ٠ وهذا هو الذى انصح به شبابنا الايمان والأخلاق والعلم والعمل والاخلاص ٠٠



أبو الهول حارس الخلود والأهرام عجيبة الدنيا



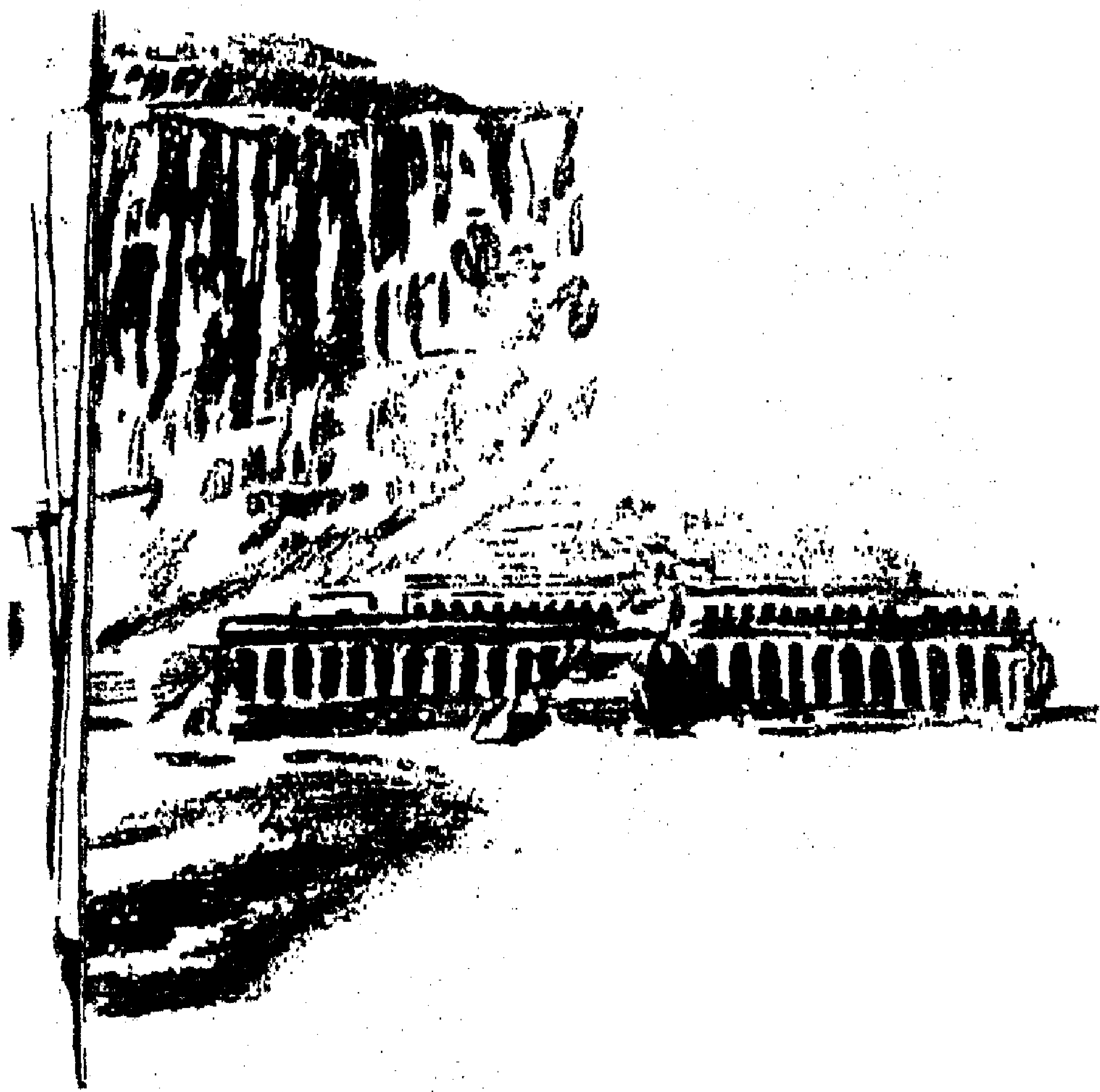
القناطر الخيرية . رمز على نهضة مصر الحضارية فى العصر الحديث



رأس الملكة نفرتيتي ، آية من آيات الفن العالمي



قائمة بأسماء ملوك مصر القديمة على جدران معبد ابيدوس



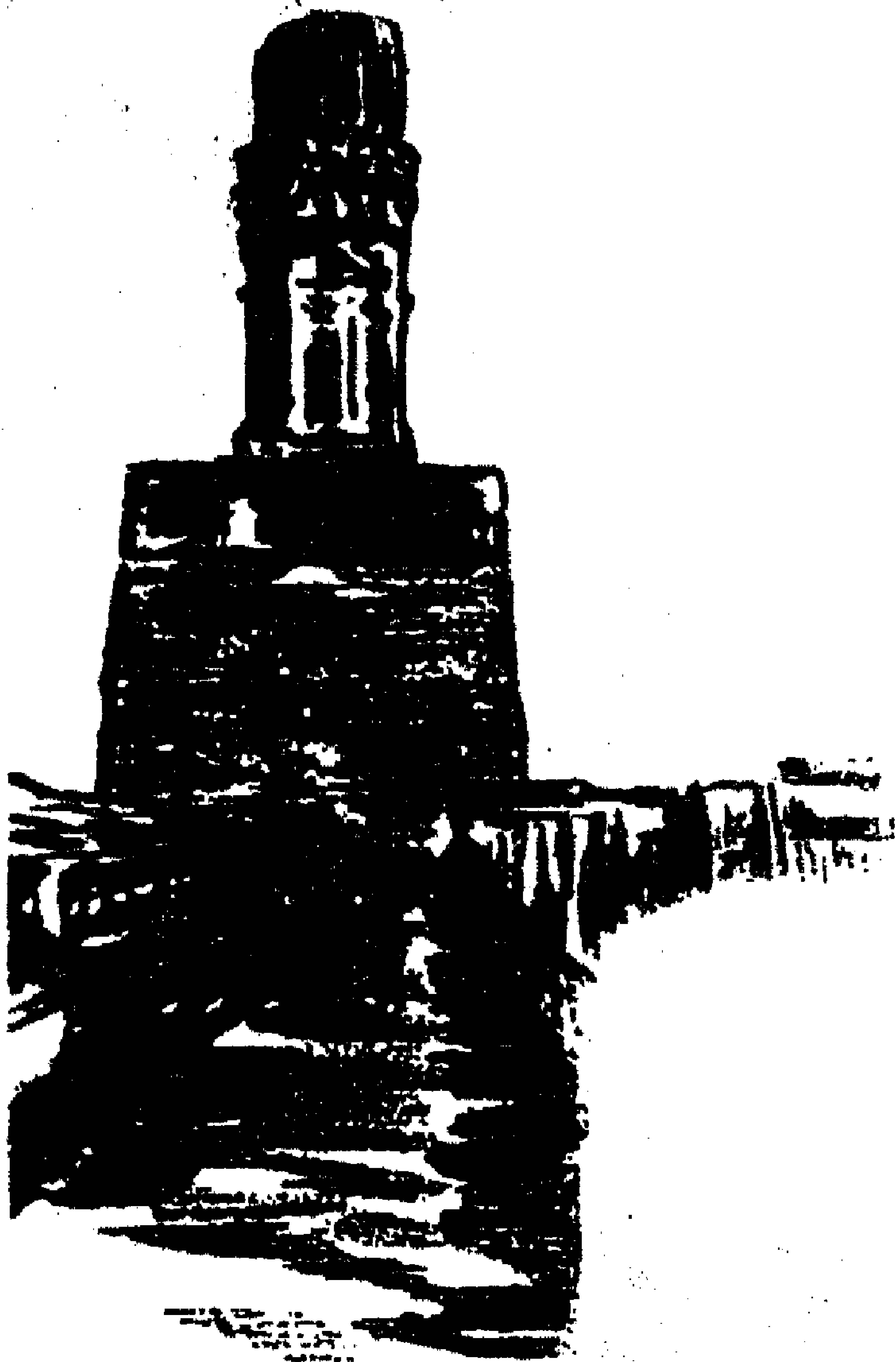
معبد الدير البحرى الذى انشأته الملكة حتشبسوت ـ تحفة معمارية مصرية قديمة



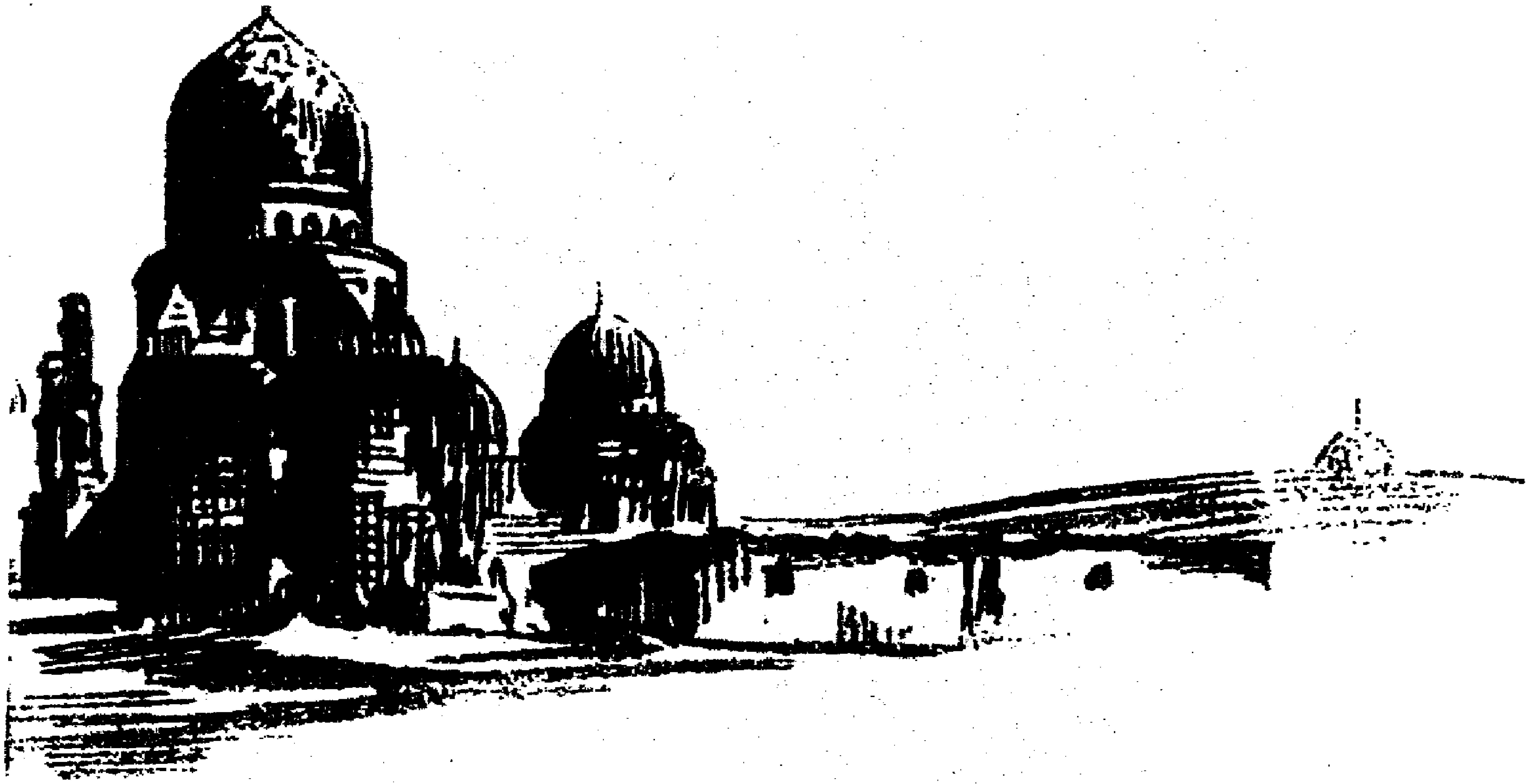
رأس الاسكندر الأكبر الذى خلص مصر من الفرس
وأنشأ الاسكندرية واكتسب بذلك الخلود



الاسكندرية ، عمود السوارى الذى ينسب إلى القائد
الرومانى بومبى ، وهو فى الواقع انشىء بتخليد ذكرى
الشهداء من الاقباط الذى قتلهم الامبراطور الرومانى
دقلديانوس



مئذنة جامع الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله . تحفة معمارية فريدة في بابها



ضريح السلطان بارسباي ، آخر الكبار من المماليك البرجية



شارع النحاسين في حي خان الخليلي



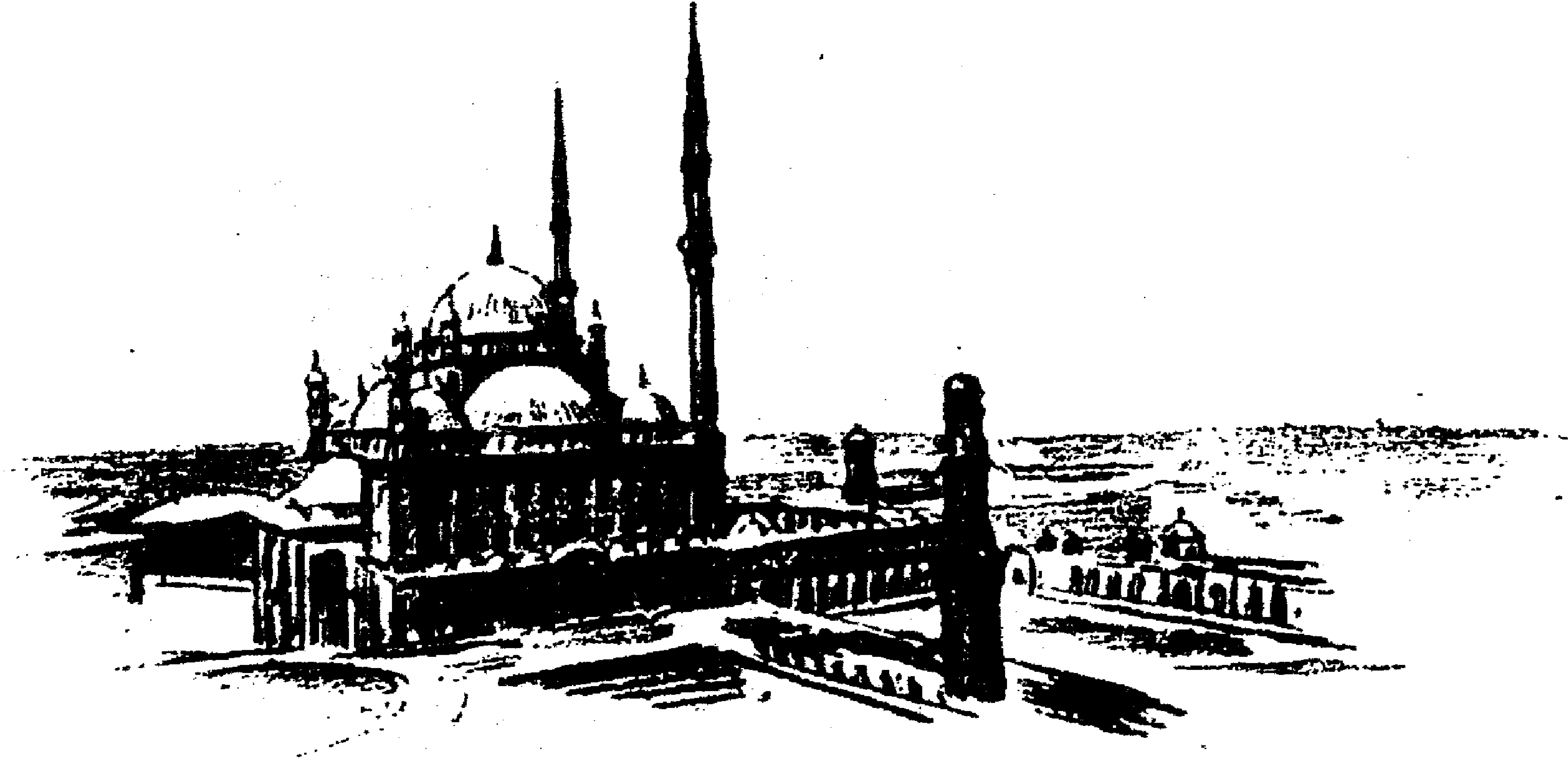
كنيسة المطرية شمال القاهرة ، تمتاز بعمارتها الجميلة الرقيقة



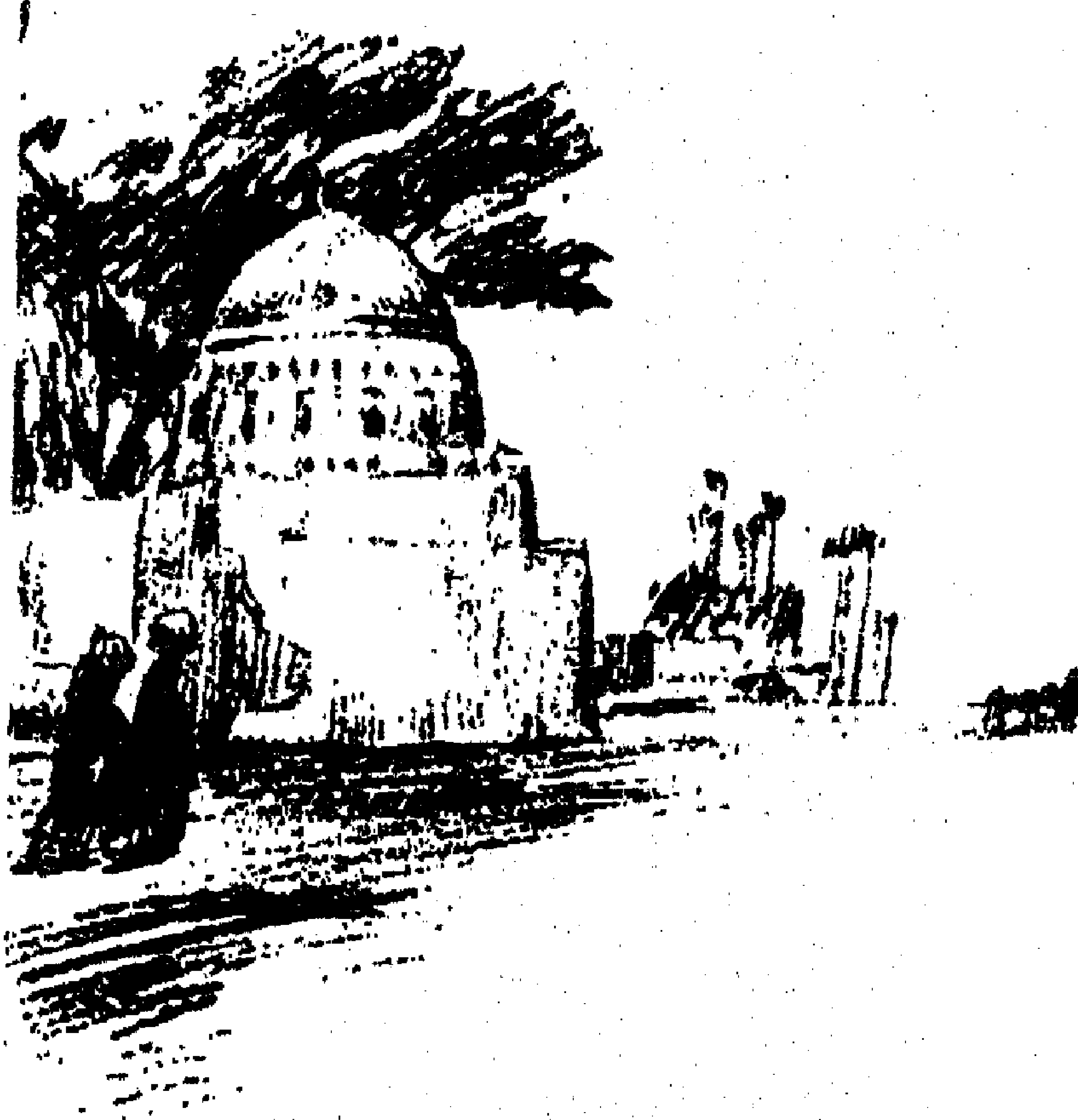
دير القديس انطونيوس واضع اسس الرهبنة فى التاريخ العالمى



دير القديس سمعان في اسوان



جامع محمد علي بأعلى القلعة ــ صورة عامة



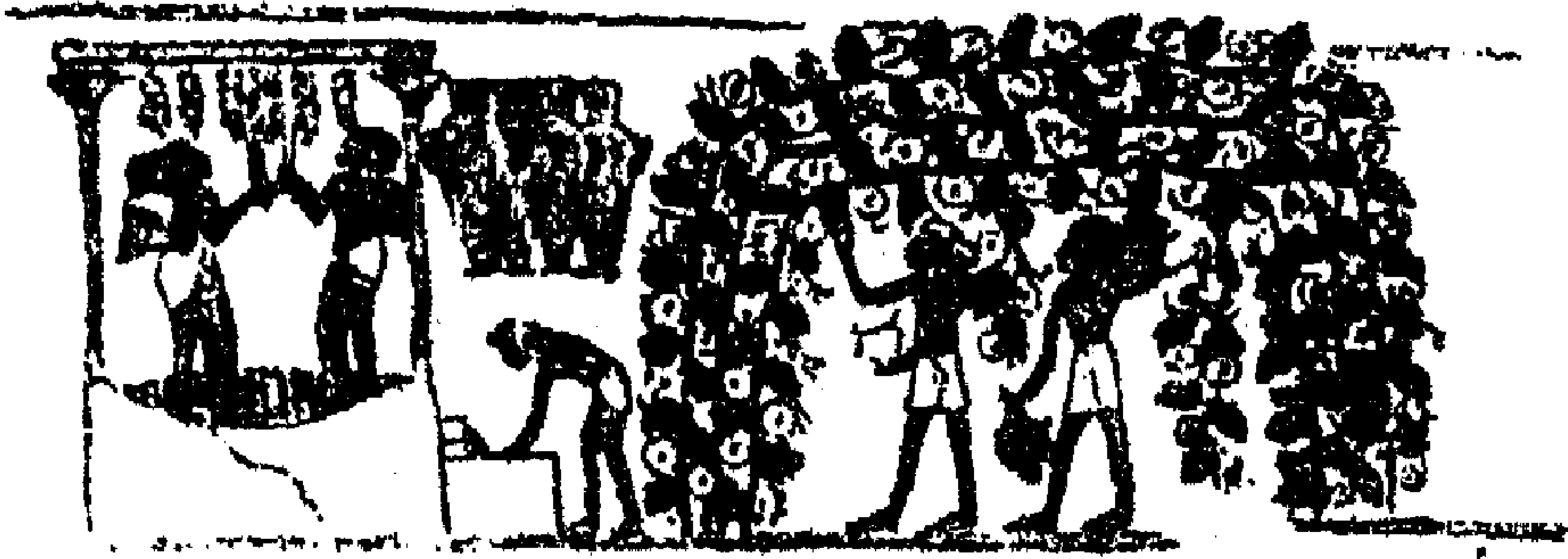
ضريح أحد الأولياء فى ريف مصر



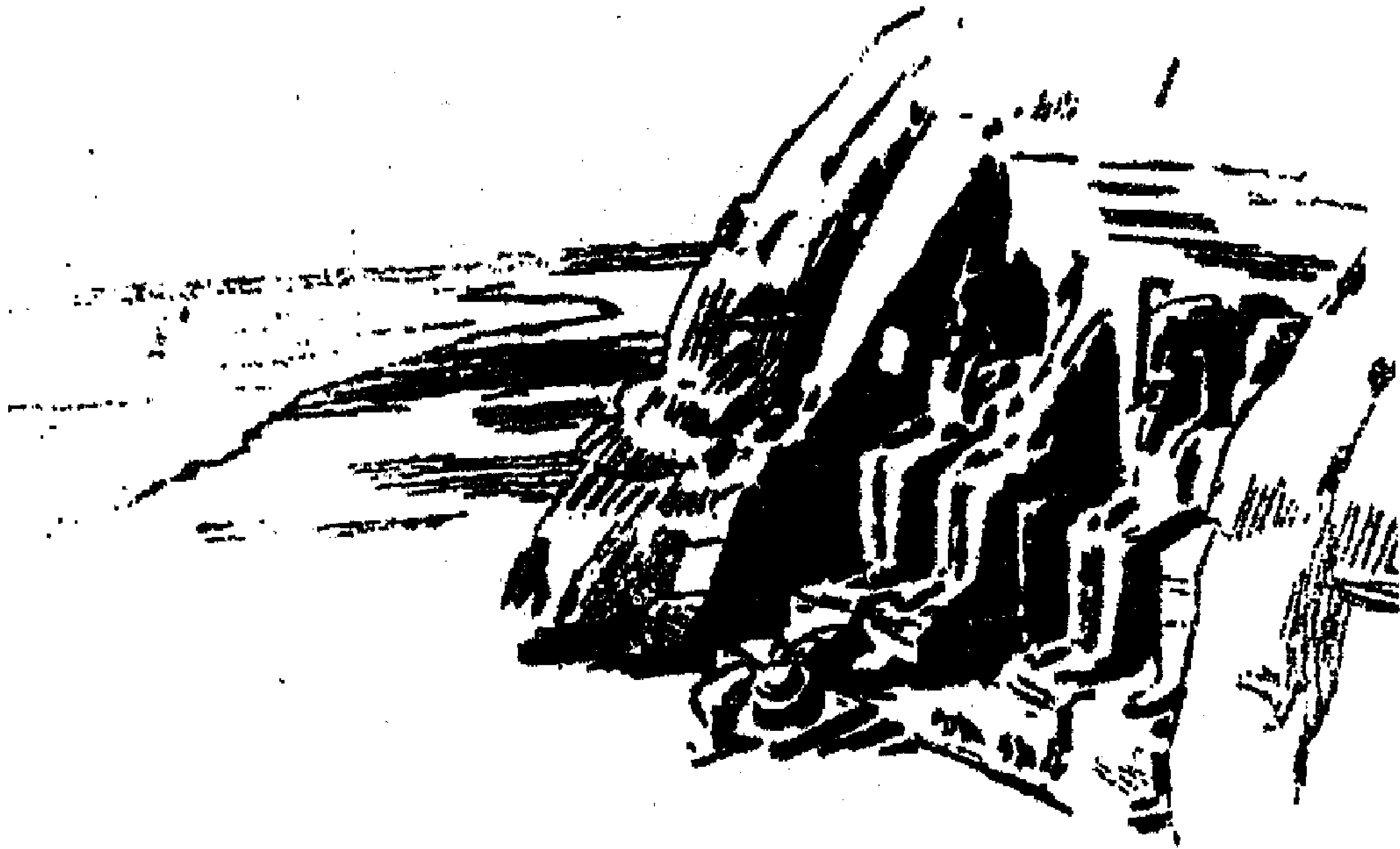
مبنى الجامع الأزهر على اليمين ومبنى ادارة الأزهر على اليسار



الفلاحون يجمعون القطن



زراعة الكروم فى مصر القديمة من رسم على جدران معبد طيبة



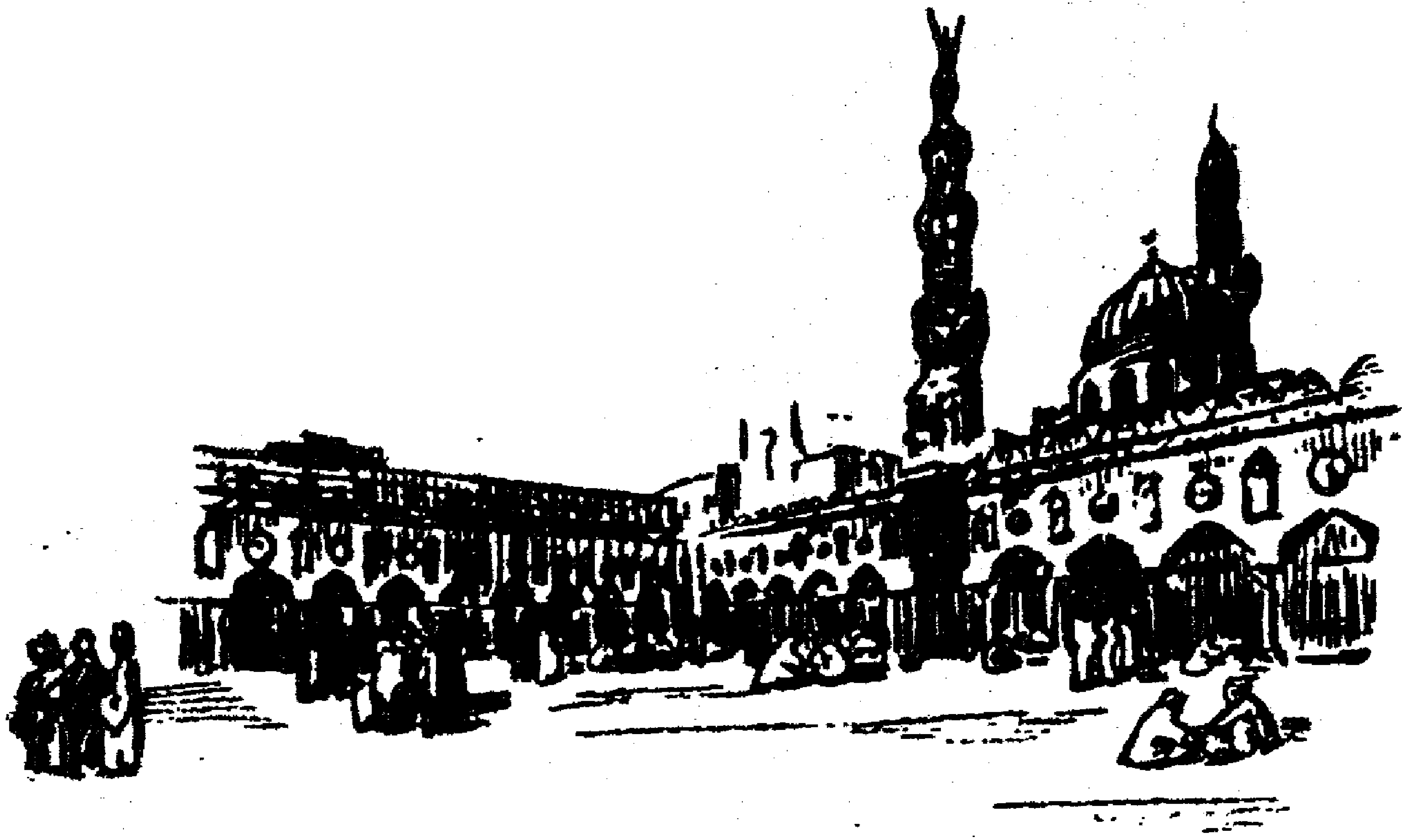
معبد ابى سمبل . تحفة معمارية انشأها رمسيس الثانى عند حدود مصر من الجنوب



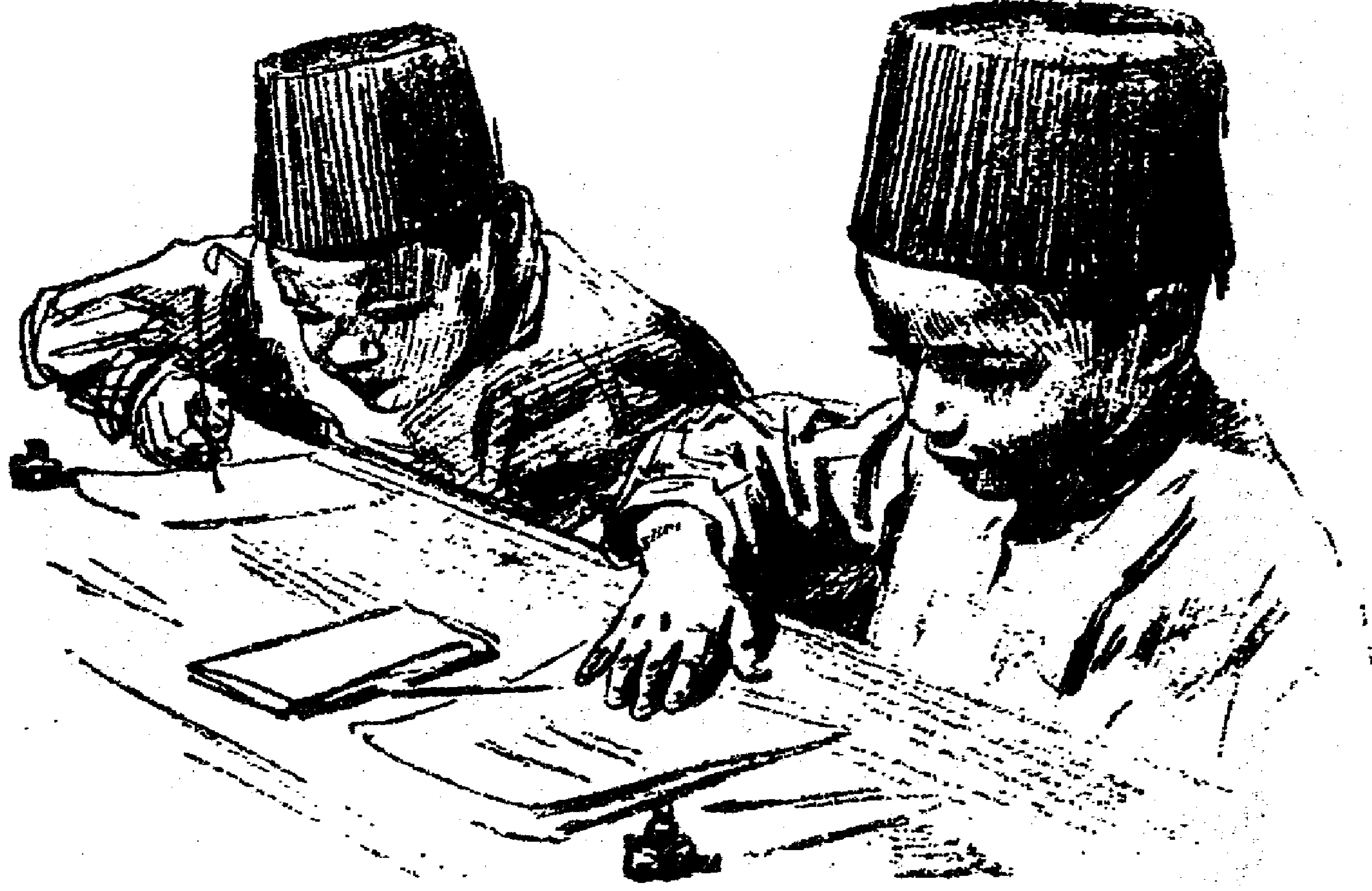
معبد جزيرة فيلة ، بني في العصر الروماني في جنوب مصر ، ونقل الآن إلى جزيرة أخرى لانقاذه من مياه السد العالي



كتاب مصر القديمة يكتبون ، نقلا من رسم على معبد مصري من عصر الأسرة الثالثة عشرة



صحن الجامع الأزهر



صبيان مصريان يدرسان فى المرحلة الاعدادية



اناء زجاجى مزخرف بالمينا صنع فى مصر الاسلامية فى القرن الرابع عشر الميلادى



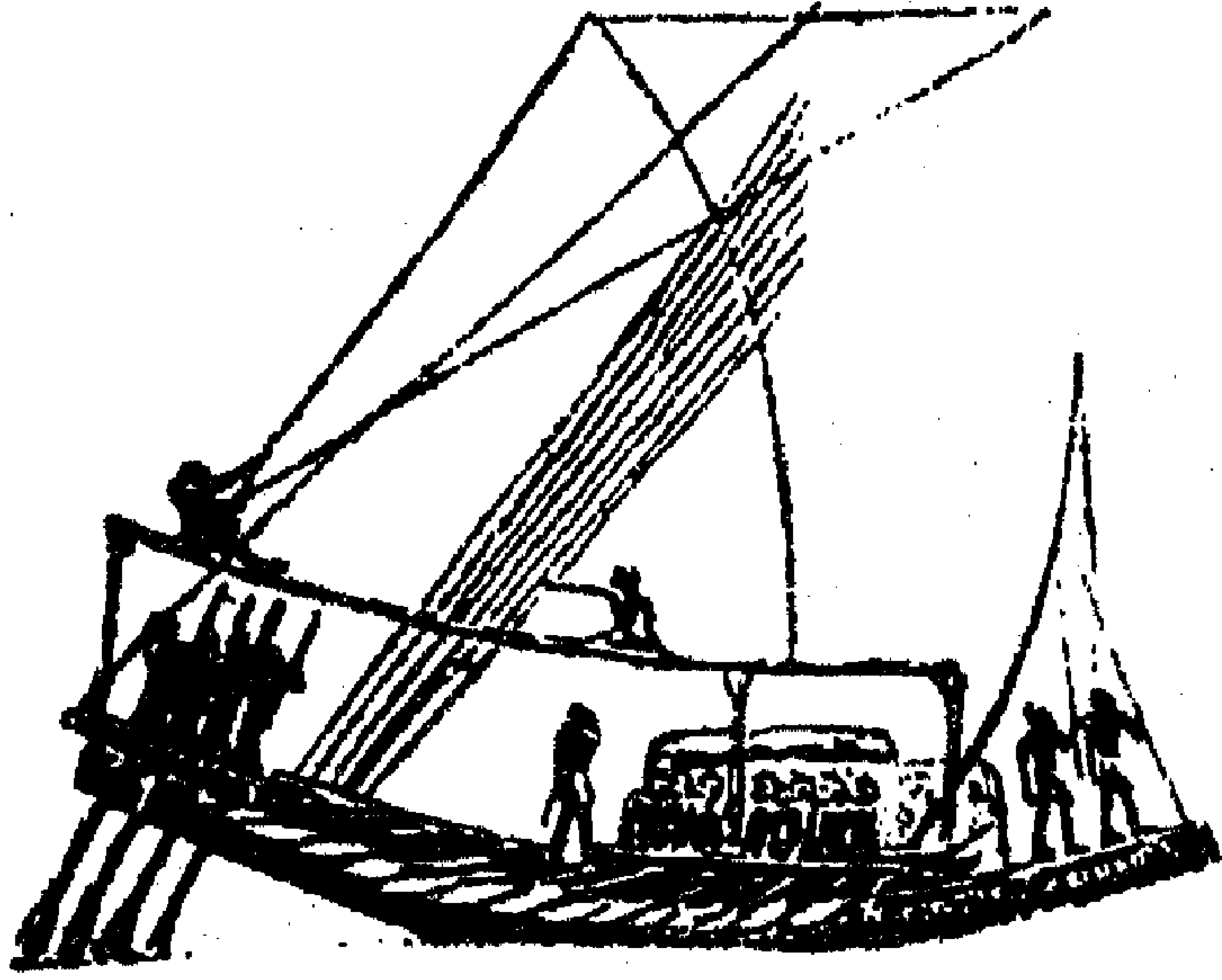
أمينة فخارية من عصر ما قبل التاريخ



مشربية مصرية قديمة



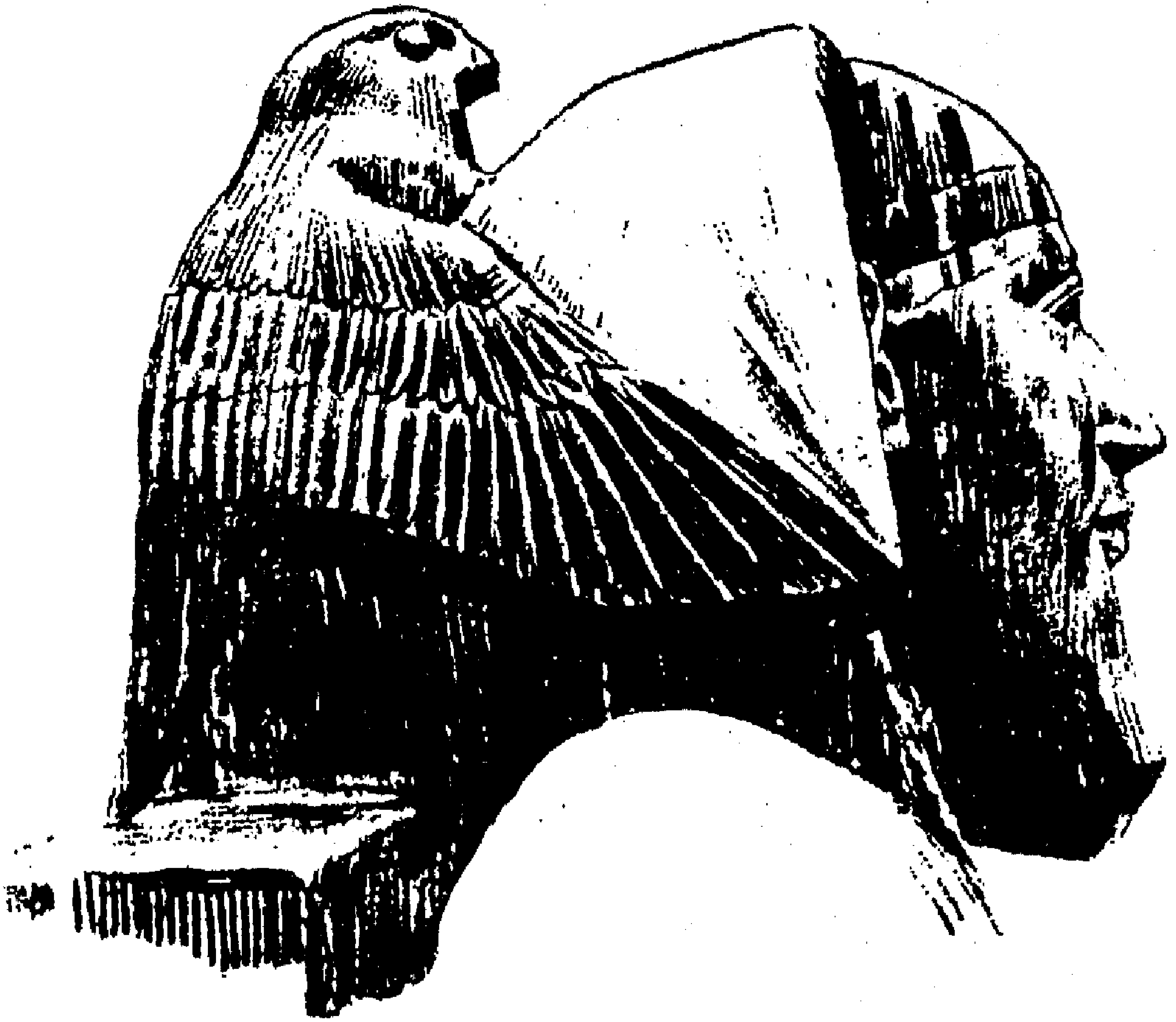
نساء من مصر القديمة فى طريقهن إلى السوق



قارب من مصر القديمة ، عن رسم على جدران معبد سقارة

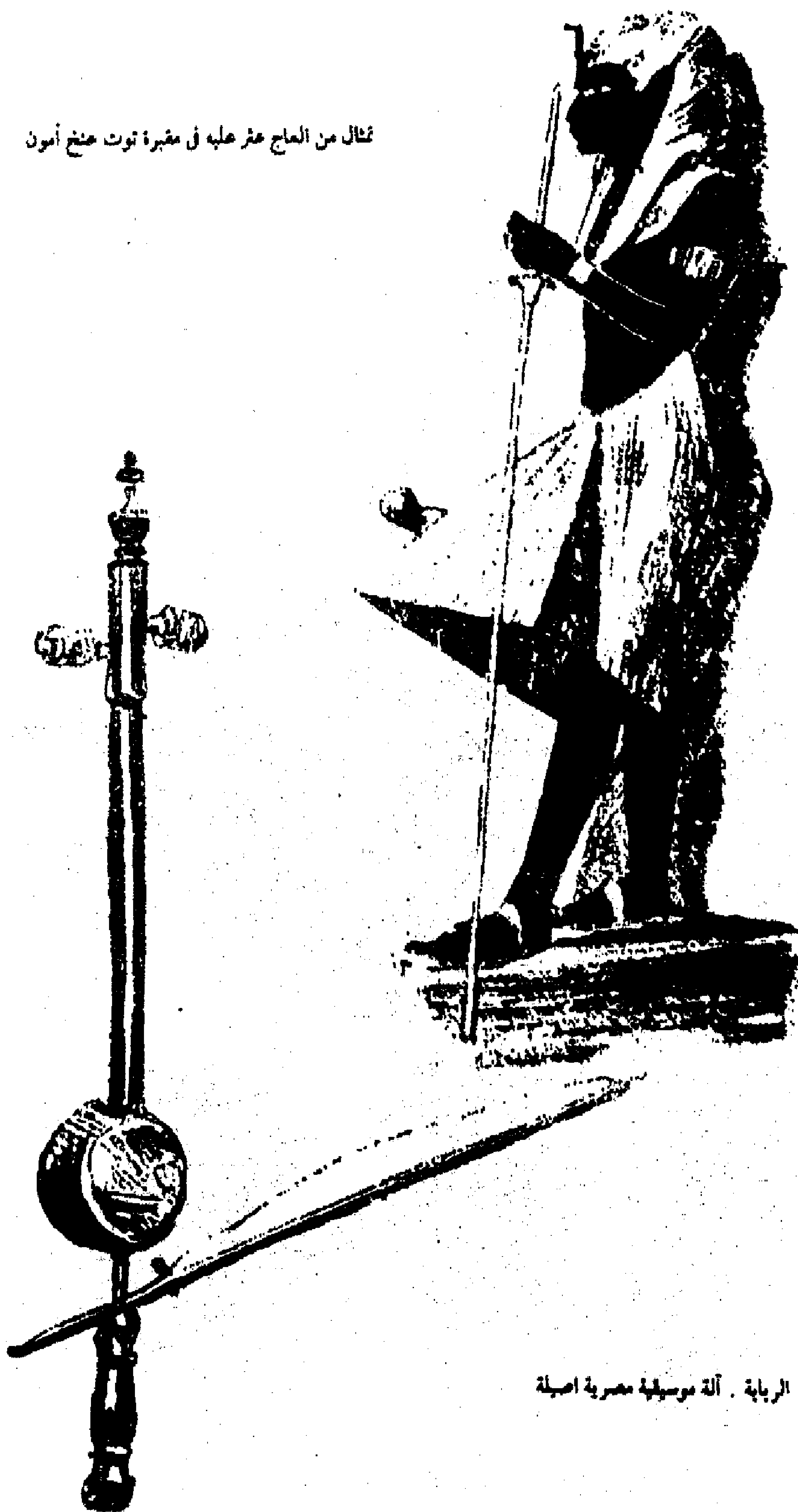


كاتب مصرى قديم (متحف الفن المصرى القديم فى القاهرة)

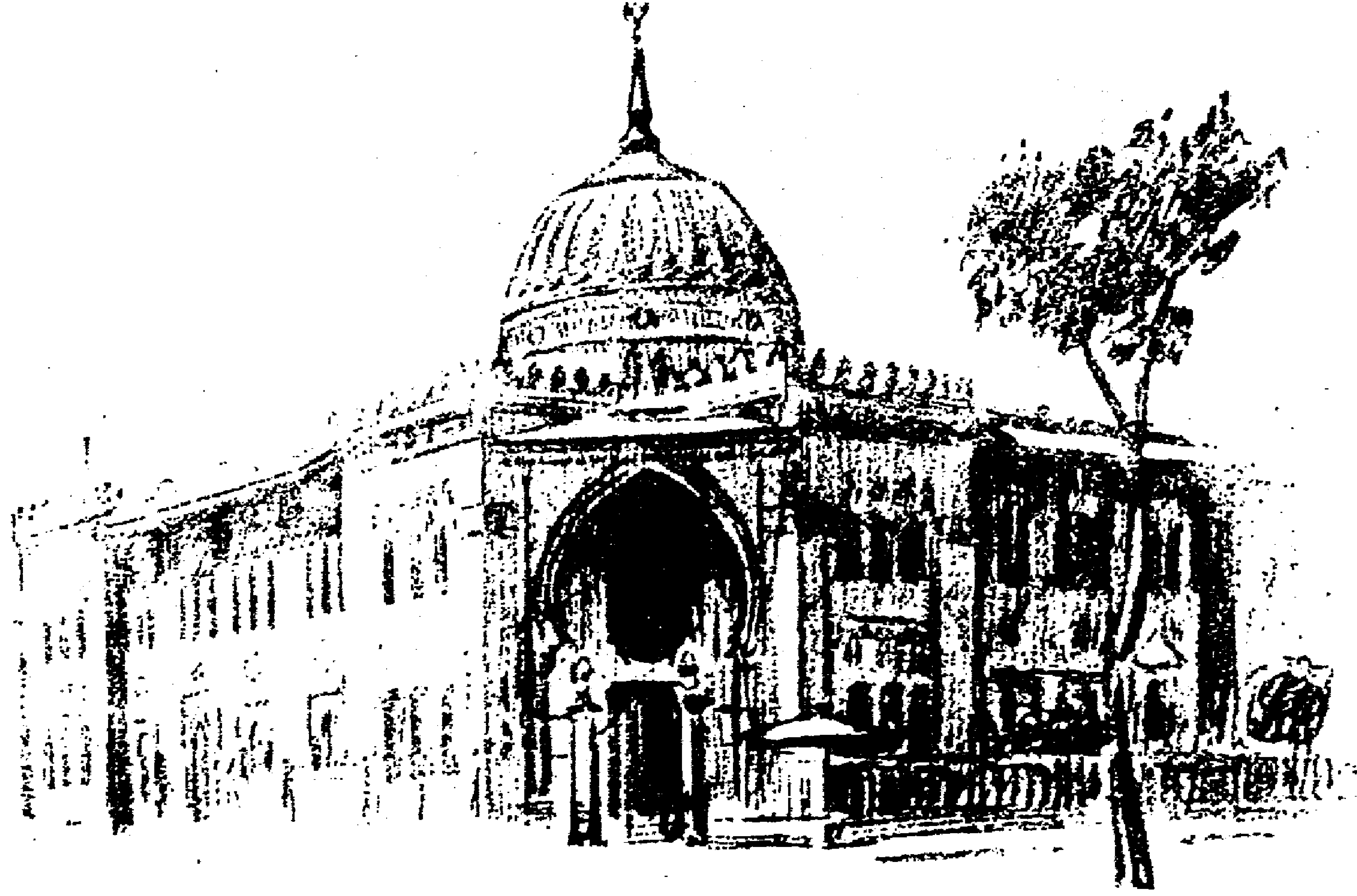


رأس الفرعون خفرع من الأسرة المصرية الرابعة ، منحوت من الجرانيت

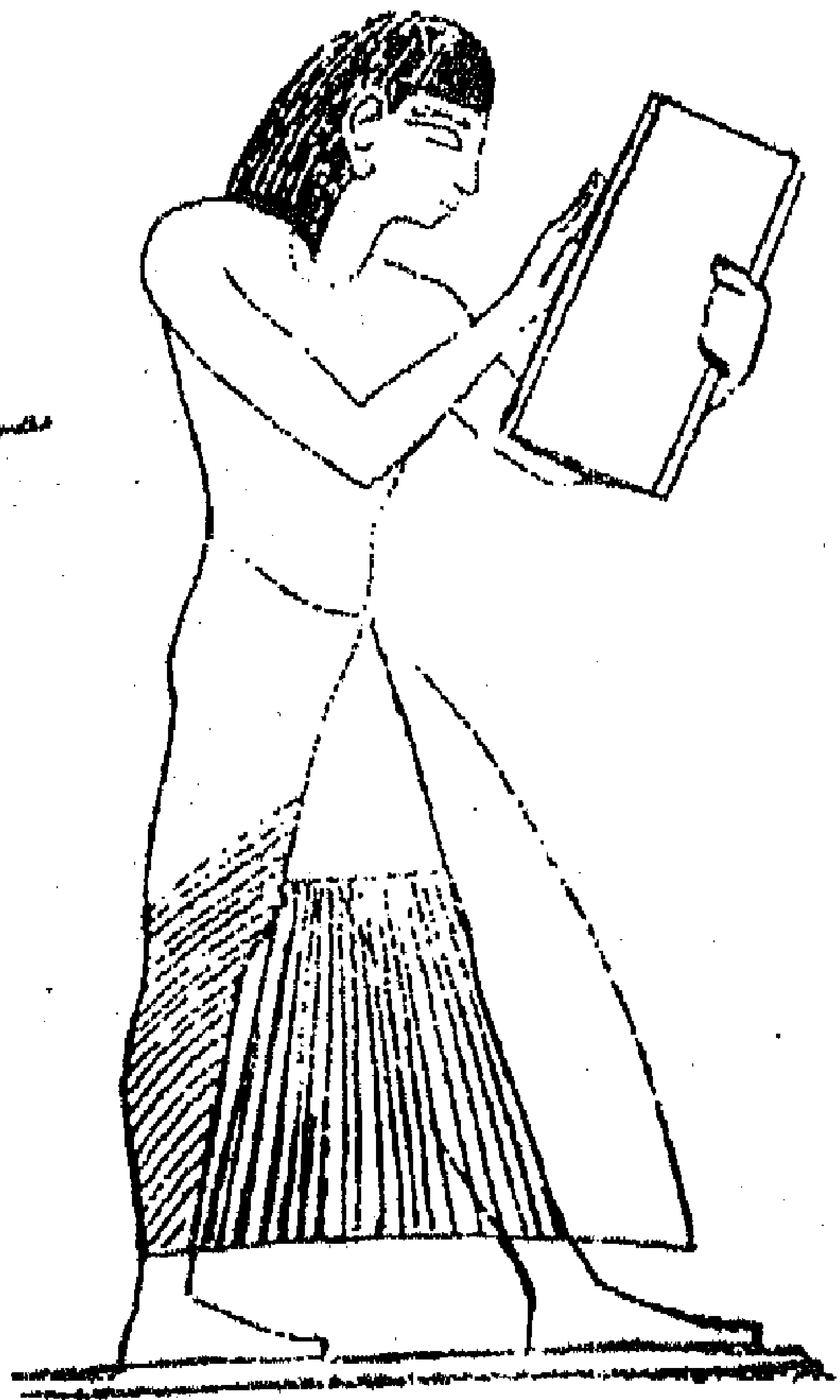
تمثال من العاج عثر عليه في مقبرة توت عنخ أمون



الربابة . آلة موسيقية مصرية اصيلة



معهد الموسيقى الشرقية فى القاهرة



مصرى قديم يقرأ . على رسم من جدار معبد مصرى



مصرى قديم يصطاد وحشا . من رسم على جدران معبد طيبة



متحف الفن الاسلامي في القاهرة . كان المبنى حينا مضى يضم دار الكتب المصرية . انه آية من آيات العمارة في مصر المعاصرة



واحة في صحراء مصر القديمة



وادى الملوك فى الاقصر



رهبان في كنيسة سانت كاترين في سيناء



سيدات من مصر القديمة عن رسم على جدران معبد طيبة



موسيقيون من مصر القديمة . من رسم على جدران معبد طيبة



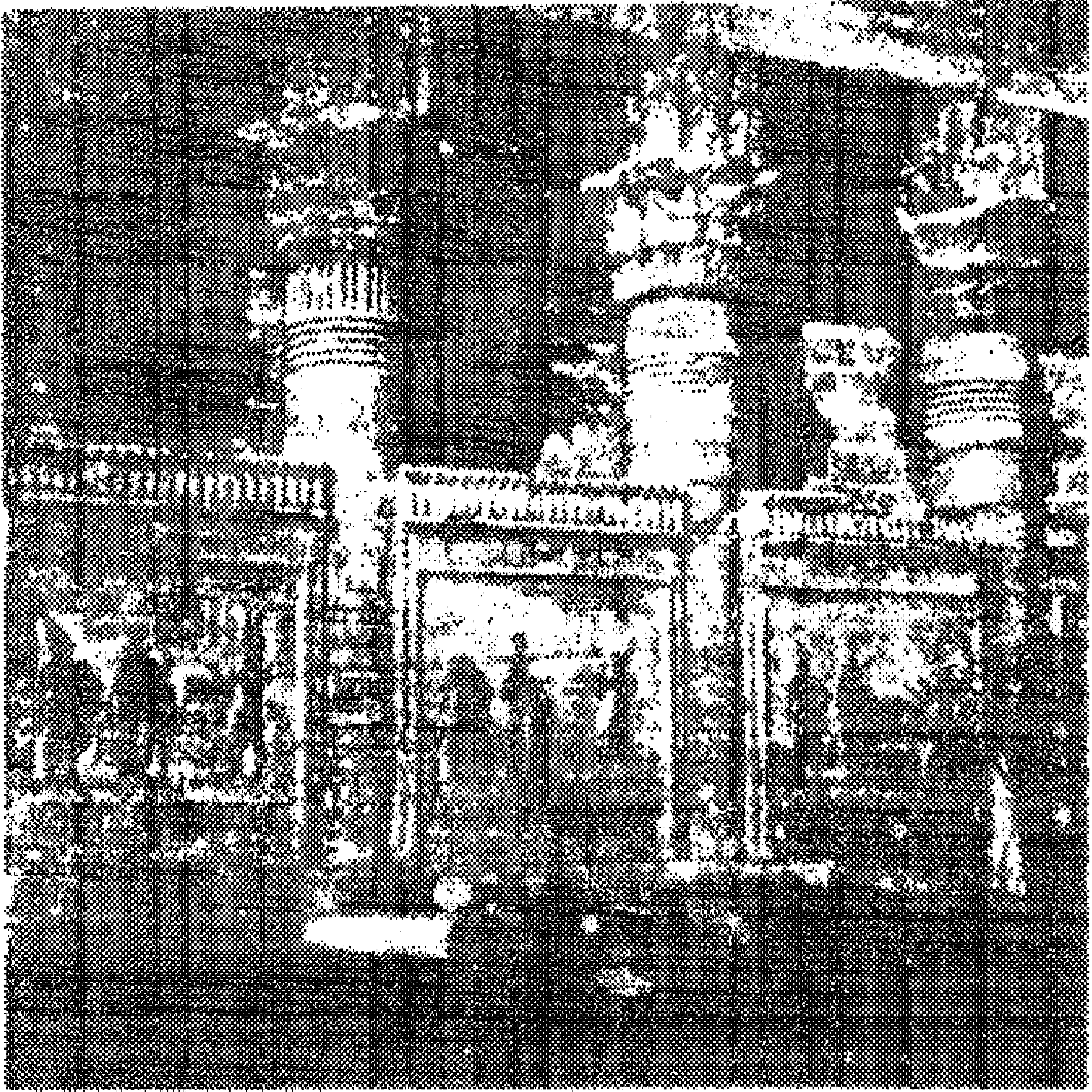
سيدات جميلات من مصر القديمة



سيدة « بلدى » من مصر المعاصرة



موسيقية من مصر القديمة تغنى وتعزف

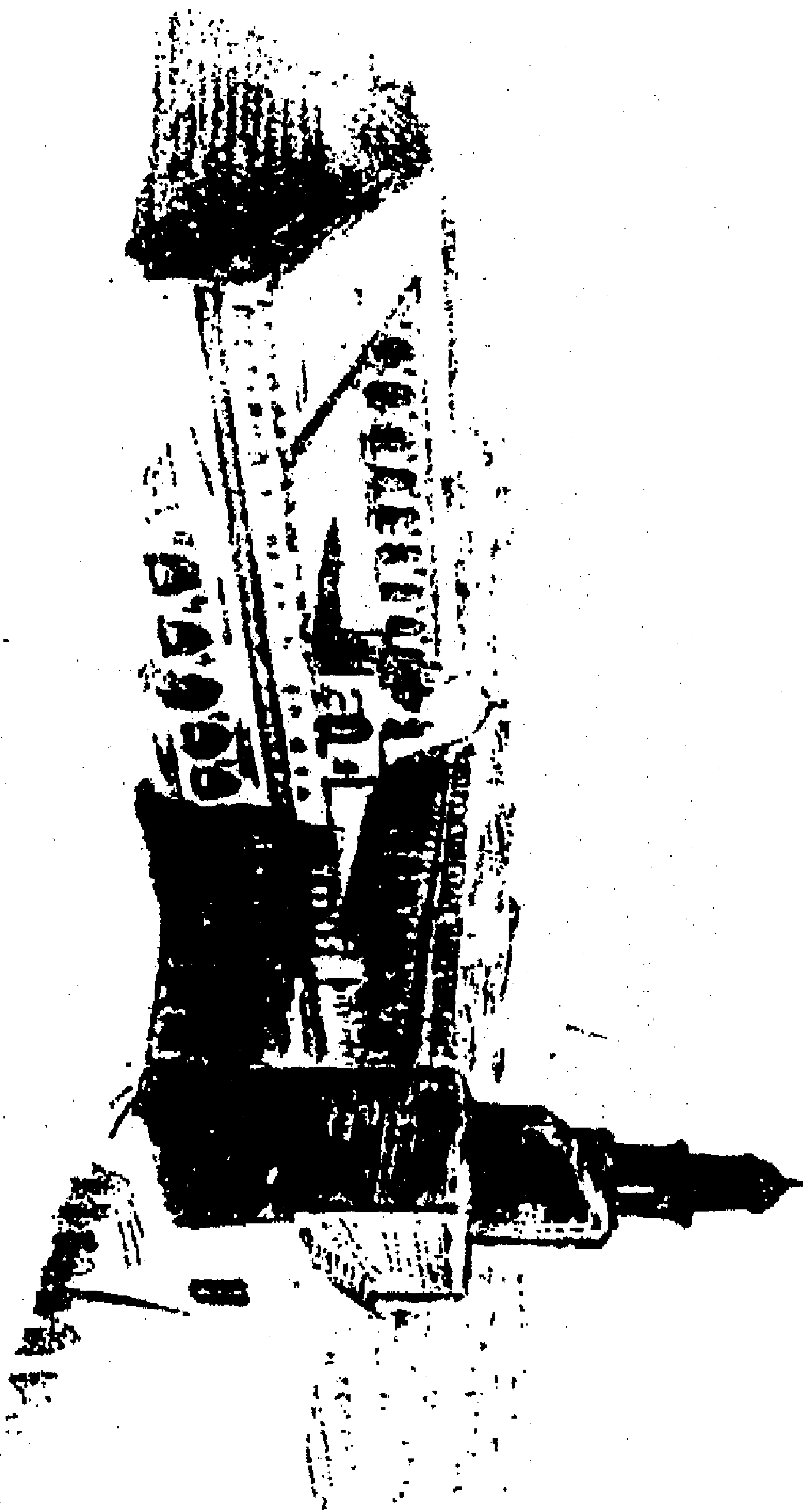


معبد دندرة



هرم ميدوم فى الفيوم

كنيسة مارى جرجس فى مصر القديمة (الفسطاط جنوبى القاهرة)



جامع ابن طولون جنوبي القاهرة الحالية



بوابة مسجد الرفاعي بالقاهرة . [illegible] تحت العمارة الاسلامية المعاصرة

هذه السلسلة

تعد الثورة المصرية التى تفجرت فى ٢٥ يناير ٢٠١١ موجة جديدة ورائعة من موجات ثوراتنا الوطنية من أجل الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، ولما كان تاريخنا الوطنى الحديث والمعاصر قد مر بثورات وطنية ضد النفوذ الأجنبى والاستعمار والاستغلال والاستبداد. فقد أرادت دار الكتب والوثائق القومية أن تقدم هذه الإصدارات - غير الدورية - التى تعالج قضايا النهضة والثورة والحرية والعدالة، سواء عن مصر أو غيرها من تجارب الأمم الأخرى، خاصة ونحن على أعتاب مرحلة جديدة من تاريخنا الوطنى، لتخاطب بها عقول الشباب وعامة المثقفين، ولتصلهم بتراث الفكر المصرى الحديث والمعاصر، والتراث العالمى على حد سواء.

ودار الكتب إذ تحيى ثورة الشباب فإن... تقدم بهذه الإصدارات - بسعر رمزى - ... ومعرفيًا يذكى معارك النهضة والتحرر بك... لنبنى معًا مصر جديدة وطنًا للحرية والعد... كما كانت عبر تاريخها المجيد



مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة